طفولة يهودية بالمتوسط المسلم

شهادات غير منشورة جمعتها ليلى صبار
وترجمها محمد اكرو

منشورات ملتقى الطرق

شهادات غير منشورة جمعتها
ليلى صبار، وصوَر طفولة لـ :

قسنطينة جان لوك علوش
الصويرة أندري أزولاي
الجزائر العاصمة جويل بهلول
إسطنبول ليزي بيهمواراس
مكناس مارسيل بنعبو
جلفة ألبير بنسوسان
الصويرة آمي بوغانيم
صفاقس شوشانا بوخبزة
عنَّابة (بون) باتريك شيملا
الجزائر العاصمة أليس شرقي
القاهرة ميراي كوهين - مسودا
الإسكندرية ريتا راشيل كوهين
وهران روجي دادون
الدار البيضاء آني دايان - روزنمان
بيروت لوسيان إيليا
أنقرة موريس فارحي
ماطر آني گولدمان
تونس العاصمة هوبر حداد
مراكش لوسيت هيلير - گولدنبرغ
تونس العاصمة إيدا كومر
إسطنبول روني مارگوليس
بليدة لين ميلير - سعيد
الجزائر العاصمة دانييل ميسگيش
تونس العاصمة نينا مواتي
الشلف (أورليانسفيل) آلدو ناوري
القاهرة طوبي ناثان
إسطنبول روزي بينحاس - ديلبويك
إمين تانوت (المغرب) نيكول س. سرفاتي
مراكش دانييل سيبوني
موناستير گي سيتبون
قسنطينة بينجامان سطورا
الدار البيضاء رالف طوليدانو
قالمة داني توبيانا
بيروت إيف توركي

Bleu autour ©

طفولة يهودية بالمتوسط المسلم

بنبرة ساخرة، رقيقة، شفافة، حنينية، مأساوية، يحكي أربعة وثلاثون مثقفا طفولتهم اليهودية بمغرب، جزائر، تونس، مصر، لبنان وتركيا سنوات 1930-1960. يكشفون لنا هنا نهاية عالم كوسموبوليتاني امتد لعدة قرون، قبل المنفى الذي أجبرهم عليه - جميعهم تقريبا - التاريخ المعاصر.

صورة الغلاف: المتحف اليهودي بالمغرب

€ 18 / DH 70
ردمك : 978-9954-1-0504-7
الايداع القانوني : 2015MO0269
9 789954 105047

طفولة يهودية
«من مكان إلى آخر»

Publié avec le concours du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France au Maroc

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

© Bleu autour
11, avenue Pasteur - 03500
Saint-Pourçain-sur-Sioule

© منشورات ملتقى الطرق، 2015.
Immeuble Oued Dahab - 1, rue Essanaâni
Bourgogne, 20050 Casablanca - Maroc
الإيداع القانوني : 2015MO0269
ردمك : 978-9954-1-0504-7
البريد الإلكتروني : editionslacroiseedeschemins@gmail.com
www.lacroiseedeschemins.ma

Publié avec le soutien de l'Institut Français de Paris pour la traduction

طفولة يهودية بالمتوسط المسلم

نصوص غير منشورة

جمعتها ليلى صبار

وترجمها محمد أكرو

منشورات ملتقى الطرق

الإهداء:

«إلى روح جاك حسون الذي كاد أن يكتب طفولته النيلية»

مقدمة

أربعة وثلاثون من «أهل الكتاب»، الكتاب المقدس والدنيوي على حد سواء، يحكون طفولتهم اليهودية بالمتوسط المسلم.

بالمغرب، بالجزائر، بتونس، بمصر، بلبنان، بتركيا، كانت ساكنة يهودية حاضرة عدة قرون قبل الإسلام.

لاحقا، وجد اليهود الذين طردتهم محاكم التفتيش الإسبانية، منذ سنة 1492 ونزاعات أخرى عبر التاريخ، ملاجئ لهم في بلدان حوض المتوسط.

عرف اليهود، الذين شكلوا دائما أقلية، أوضاعا قانونية متعددة حسب العهود التاريخية، الأنظمة السياسية والأوطان. لقد حدث أن كانوا ذميين «محميين»، لكن في بعض الأحيان ضحايا تمييز، وفي الجزائر الفرنسية المستعمرة، وجدوا أنفسهم مواطنين فرنسيين بموجب مرسوم كريميوه (*Crémieux*) سنة 1870.

ثم أتت مرحلة نهاية الإمبراطورية العثمانية، الحربين العالميتين والمحرقة، قوانين فيشي المعادية لليهودية، تأسيس دولة إسرائيل في سنة 1948، أزمة قناة السويس والنزاعات الإسرائيلية العربية، الإيديولوجيات القومية العربية، الاستقلالات المتتالية للبلدان التي كانت تحت الحماية ثم الجزائر الفرنسية المستعمرة.

أما الجماعات اليهودية، التي كانت في أغلب الأحيان مهددة، فقد أخذت طريق المنفى.

هكذا كانت قبلة لهذه الجماعات دول مثل: إسرائيل، فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، البرازيل، الأرجنتين، إيطاليا، إلخ.

كانت هذه الجماعات تعد بين ظهرانيها، حتى ذلك الوقت، آلاف الأشخاص، أكثر من مائة ألف بالجزائر وخاصة بالمغرب. حاليا، لم يبق إلا بضع عشرات هنا وألفان إلى ثلاثة آلاف يهودي هناك في كل بلد من بلدان الضفة الجنوبية للمتوسط، باستثناء تركيا حيث يصل عددهم إلى ما يقارب عشرين ألفا...

لم يحظ اليهود المطرودون من إسبانيا باستقبال أفضل من الذي أُنعِم عليهم به في رحاب الإمبراطورية العثمانية: «فيرديناند الأراغوني أصابه الجنون، كان سيقول بايزيد الثاني، إنه يفقر مملكته ويغني إمبرطوريتي».

على نبرة ساخرة، رقيقة، مأساوية، حنينية، متبصرة، تقول حكايا الطفولة هذه نهاية عالم، تاريخ، مجتمع كوسموبوليتي، تقول حدس منفى نهائي. منفى بقدر ما سيكون، بالنسبة إلى مؤلفيها — هذه الحكايا —، فلاسفة، أهل سينما ومسرح، محللين نفسيين، مؤرخين، مترجمين، صحافيين، جامعيين... صعبا في الغالب، بقدر ما سيكون خصبا وخلاقا.

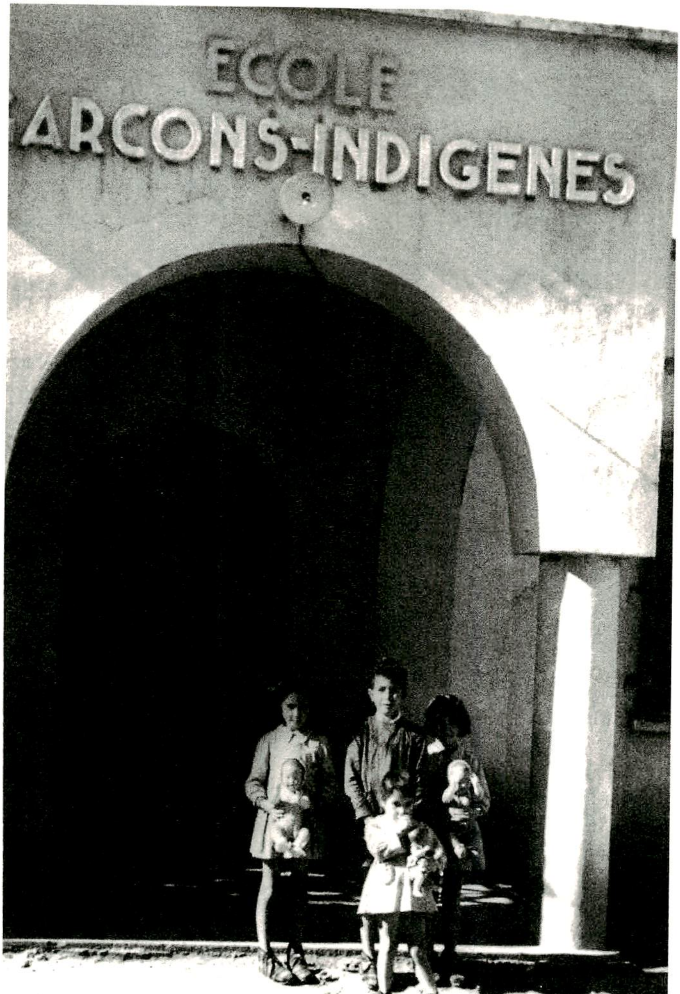

ليلى صبار، يسارا، برفقة أخيها ألان وأختيها ليزيل ودانييل، أمام مدرسة «الحناية»، في جزائر الخمسينيات.

تمهيد

قد تكون القصة نفسها...

ليلى صبار

أسمع فتيات المستوطنة الصغيرات:

صبار... صبار...

ينطقون بأسماء، أسماء عائلية تتوارد فيها رنات «ص»، «أ» أو «أ»، «ب»... لم أكن أعرف، وقتئذ، أن الأمر يتعلق بأسماء يهودية، لم أكن أدرك معنى كلمة يهودي، في بيت المدرسة الذي كان يملكه أبي، قرب تلمسان بالجزائر، لم يكن أبي ولا أمي يصفان أبدا شخصا هكذا: «يهودي»، «مسيحي»، «مسلم»، ما سأكتشفه لاحقا، خارج الأسوار الحامية لفرنسا الصغيرة، للجمهورية المثالية التي اجتهد أبي وأمي في صناعتها، هناك حيث «التسامح، العدالة، المساواة» هي الكلمات العليا، قبل نهاية الوهم.

حينها سأتعلم أنه «شيء سيء أن تكون عربيا، ابنة عربي، شيء سيء أن تكون يهوديا» لِمَ هو شيء سيء؟ لا أحد يقول شيئا، هل أومن بذلك؟ لا أعرف.

لهذا أفكر، آخذ على نفسي، عبر كتب تحاول أن تجمع شمل هؤلاء الذين فرقهم التاريخ مرارا في الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، أن أباشر مسيرة طويلة نحو الطفولة. طفولة تحكي مكانا فريدا، جغرافيا، ذاكرة متعددة، بلا نوسطالجيا ظاهرة. الطفولة كأركيولوجيا جماعية خلاقة.

وهكذا، في المنفى، أستكشف مع كتاب آخرين بالمنفى ومن خلالهم، ضفة جنوبية للمتوسط كانت كوسموبوليتية، متوسط يهودي ومسلم، هو اليوم يتيم يهود سكنوه قبل مجيء الإسلام. تاريخ بهيج أحيانا وقاس أحيانا أخرى يحكي ذلك. قصص فردية تتذكر مرة أخرى...

مرة تكون فيها الطفولة وطنا، أرضا حبيبة، بأجداد، جيران، جارات، أجانب ومألوفين، لغة صلوات مقدسة وكتب، بلغات، لغة البيت، المدرسة، (المدرسة العمومية الفرنسية، مدرسة الرابطة اليهودية العالمية، ر. ي. ع)، لغة الأسلاف الأخرى، الخادمات، الشارع، الصداقات الطفولية والموسيقى. داخل، خارج، الأسئلة والسكتات... حلاوة طبق شعائري، عنف الشتائم. لماذا يسبونني؟ وشوشة الرحيل السري. نحو أي منفى؟ سعادات صغيرة، شقاء كبير. تيه. الشتات.

مازال جاك حسون يذكر: « قانون البلد هو قانوني»، القاعدة المثلى لمُنتَمٍ إلى أقلية، كيفما كان وضعه الاعتباري.

مسقط الرأس المهجور المفقود.

صوت اللغات المحكية، المتلوة، المغناة، المحلوم بها، صوت الرسائل والكتب، نظن أننا نسيناها، إنها هنا، هذه الأصوات، في صفحات كتاب المنفى وطفولة آخر جيل للقصة هذه. قصتي أنا الأخرى أيضا.

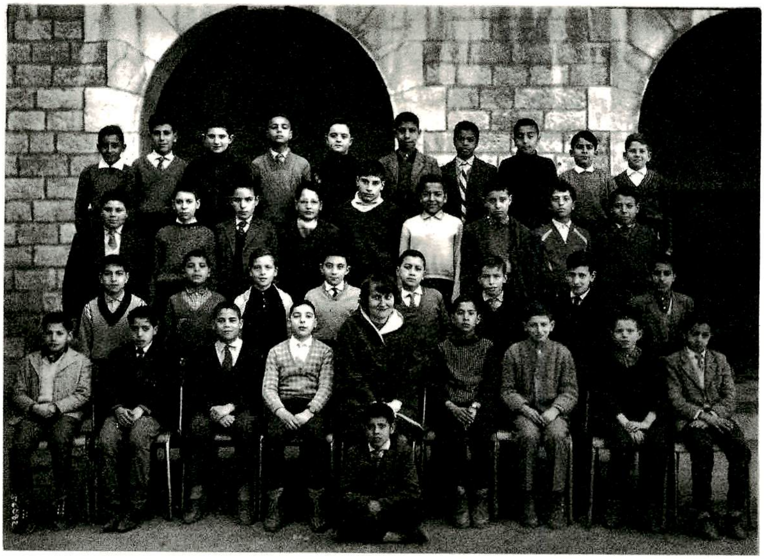

مستوى السادسة أ5، بثانوية أومال بقسنطينة، السنة الدراسية 1960-1961، جان لوك علوش هو الثاني انطلاقا من اليمين، في الصف الأعلى.

فرنسيون ممتازون

قسنطينة، حي بيلفي بيلير

جان لوك علـوش

آخر صورة لي من هناك. في السنة الدراسية 1960-1961، مستوى السادسة أ 5، ثانوية أومال بقسنطينة (اليوم، ثانوية رضا حوحو)، ألقوا بنظرة باتجاه الصف الخلفي. الثاني من اليمين هو أنا. ديك صغير قُصة دهماء ومائلة، أذنين بارزتين، نظرة جميل طلعة صغير فخور بنفسه. الأول في الصف، بجانبي، الأشقر الصغير، ليس إلا بيير زربيب. ندي الأبدي منذ المدرسة الابتدائية، كنت «أسحقه» بانتظام، الشيء الذي كان يحدث ارتياحا لا نهائيا في نفس والدي، وخيبة مرة يتجرعها والداه. في هذه السنة بالذات، حصدت كل الجوائز (باستثناء التربية البدنية، الرسم والموسيقى... الكمال لله). عذرا على هذا الزهو الاسترجاعي، لكن في ذلك الوقت، كان الامتياز، بالتأكيد، هو المستوى الذي يفرضه أساتذتنا وأولياء أمورنا.

ستة وثلاثون تلميذا في مطالع دراساتهم الثانوية. خمس عشرة ربطة عنق، بضع بدلات مضبوطة إلى حد ما. شعر بتسريحة تلميذ عاقل وبِمفرقين جانبيين. لقد نسيت الآن أسماء معظم من درسوا معي أو تقاسموا معي التلمذة. لكنني أستطيع أن أحدد انتماءهم «الإثني» بدقة: واحد وعشرون مسلما، أو «ساكنا أصليا» كما كان يقال آنئذ، تسعة يهوديين، ستة مسيحيين. توزيع يمثل بما يكفي ساكنة المدينة. الرحمة! لنمتنع عن

إطلاق صيحات مفارقة لزمن حدوث الأشياء في مواجهة هذه النظرة «الكاسرة، الشارخة»، كما يقال اليوم، التي لا تحرج نفسها باللياقة السياسية لكن تفحص تنوعا فعليا، لم يكن في حاجة إلى شعارات عسلية!

أي نعم، في المجتمع الاستعماري، كنا نحدد هويتنا، قبل كل شيء، بأصولنا، ثقافتنا العائلية (الدينية، المطبخية، إلخ) هكذا كانت الأشياء. إنما لم يمنع هذا الواقع كل هؤلاء الصبية المتأنقون من أن يكونوا «فرنسيين ممتازين» كما كان يغني ذلك، وفي ظروف أخرى، موريس شوفاليي.

كذا، «فرنسيون ممتازون» ؟ على الأقل، في ذهن أساتذتنا. هل يمكنني أن أنسى أبدا م. فاسيي، أستاذنا في درس الفرنسية-اللاتينية سنتئذ، ومجهوداته التي لا تعرف الكلل من أجل ترسيخ روائع موليير في أذهاننا مع لطائف اللاتينية من قبيل روسا، روسا، روسام (وضع الكلمة باللاتينية) ولحظات السعادة التي سيغدقها علينا، عند أول فرصة، قاموس «لوگافيو» (وضع الكلمة بالفرنسية)؟ مثلما، بالمدرسة الجماعية، ذكرى السيد گدج، السيد لونيس، السيد حسون، السيدة فالي والسيد الباز، معلمي بمدرسة جان جوريس، بحي بيلفي، ستبقى محفورة عميقا في دواخلي.

لأن هؤلاء كانت لهم فكرة عظيمة عن رسالتهم: تهذيب شعب مصياح ومتمرد من الصبية الذين يكونون دائما الأسرع في «الاقتصاصات» الكُرَقَدَمية، والمواجهات بطريقة «تاوات»، مقاليعنا المرتجلة التي نصنعها من مزقة جلد وشريطَي مطاط، لا في الحقائق العصيبة لجداول الضرب. أطفال الدواوير الملتحفين لأسمالهم، بورجوازيون صغارا أبناء موظفين لا يقلون صغرا، بورجوازيون هم نسل الباشآغات، الأطباء أو التجار، كان يجب علينا جميعا أن نجتاز الامتحان المهين للوزرة الرمادية والتعليم المدني، مع المراقبة المنتظمة للنظافة (تفتيش الأظافر لم يكن الامتحان الأقل إذلالا). حين تتأتى المناسبة، تحل المسطرة الحديدية، وهي تهوي

على أطراف الأصابع المجموعة على شكل قرن، الخلافات التي، بدون ذلك، كانت ستعطل السير العادي لجمهورية المعرفة الفاضلة هذه.

كانت دروسنا تلقننا ما يشبه تاريخ الجزائر (من يوغرطة إلى الأمير عبد القادر، مرورا بسيدي عقبة)، لكن دونما إلحاح: أيتها السيدة، كان يلزم الوقت لإقناعنا أننا النسل الكريم لفيرسانجيتوريكس، شارل مارتيل، جان دارك، بايار، لويس الرابع عشر، نابليون وآخرين... باستور... فرنسيون ممتازون، قلت لكم.

الموظفون العموميون في التعليم كانوا يديرون حربا أكثر كرامة من تلك التي كان يعلنها المظليون على «المشاتي»، فيما تربيتي اللائكية والإجبارية كانت توازيها تربية يهودية لا تقل إجبارية. غير قليل من زملائي في هذه الصورة، كنت ألتقيهم، أيام الخميس، الأحد وخلال العطل المدرسية في التلمود/توراة («الرابطة») برقاق تييرس. تحت العين المتيقظة لوالدي الذي لم يكن يتساهل لا في موضوع النجاح المدرسي ولا فيما يخص تلقين التقاليد المرعية. لأنه، في المحصلة، لم يكن يهود هذه المدينة المحافظون الصارمون على موروثهم الديني، أقل انبهارا بانتمائهم إلى الأمة الفرنسية، بفضل السيد أدولف كريميوه المشكور. (لم أحاول إلا لاحقا التفكير في رهانات وعواقب مرسومه). لكن، ماذا، لقد شارك أجدادنا في حرب 14-18؛ أبي، هو الآخر، صنف 39، شارك في حرب 39-45، دون أن يفلت من الاحتجاز بمعسكر أشغال تحت مراقبة الجوقة (لا ليجيون) (*la Légion*)، بعد القوانين العنصرية لفيشي. هذا «الساكن الأصلي اليهودي»، كما يشير إلى ذلك كتيب خدمته العسكرية، لم يكن أقل بأسا على جبهة مونتي كاسينو، ولا غائبا في إنزال البروفانس ثم تحرير فرنسا، بجانب رفاقه المناوشين الجزائريين وطوابير أخرى. «إننا نحن الأفارقة»، هل تعرفون مسيرة الجيش الإفريقي الأول... لا، ليست مسيرة منظمة الجيش السري (*O. A. S*)!

هذا يعني أن تربيتي الوطنية لم تكن أقل شدة من تربيتي الأخريين، إنما كان هناك أيضا رفاقي المسلمون. كنت أشعر فعلا أنهم لم يكونوا مقتنعين بفكرة أن يصيروا فرنسيين مثاليين، أو حتى فرنسيين فقط. في إحدى الأيام، قامت جارة وصديقة لي —كنت أراودها عن نفسها في الفورة الهرمونية للمراهقة— بـ «الصعود إلى أدغال المقاومة» ؛ آخرون من بين باقي رفاقي كانوا يضطرمون في حمى الصراع من أجل استقلال الجزائر. كنت أفهم الظلم الذي لا يطاق الكامن في دواخلهم، لكن كنت أعرف أن حريتهم هي بثمن الجور القاسي الذي سأكابده.

الشيء الذي خلصني، ليس كلية بالتأكيد، من كل اندفاع مفرط، هو اليوم الذي اكتشفت فيه أن المسلمين وحدهم، أطفال في سن العاشرة مثلي، كان يجب عليهم حمل بطائق هوية، وأنني كنت معفى منها. زيادة على ذلك، في عائلتي، بخلاف بعض أعمامي وأبنائهم الموالين لمنظمة الجيش السري (بعضهم الآخر كان شيوعيا)، لم ننشئ أبدا حسا قوميا. كان ذلك، دون شك، يرجع إلى أن والدي كان يعمل بمعية زملاء مسلمين في احترام متبادل، امتد إلى ما بعد الاستقلال. لاسيما أنه كان لنا جيران مسلمون نسجنا معهم روابط أكثر من حميمية: آل كسراني كانوا بمثابة عائلتي الثانية، أختي ربتها السيدة كسراني، فوزي، ابنهم، كان أفضل أصدقائي، وأحافظ معه على روابط لم تنقطع، على الرغم من المسافة الجغرافية وعشرات السنين المنقضية.

في الواقع، إسلام قسنطينة، على بساطته في هذا المقام العالي للورع القرآني، مهد العلامة ابن باديس، لم أستغربه أبدا ولم أستعجب. وإن، مع «الأحداث»، لم نعد نجازف بالذهاب إلى ساحة «لي گاليت» في قلب المدينة العتيقة، هناك حيث، في زمن مضى، كنا نقضي سهرة الفصح عند قريبة لي. بدون شك، أيضا، لم يكن ذلك الإسلام بهذه الاستعراضية التي

نراها اليوم، وكما بدا لي في الجزائر الراهنة حيث عدت مؤخرا، وحيث المساجد المبلطة بالزليج كالحمامات، اللحى الكثة والحجاب قد نسوا الجمال البسيط لإسلام الأمس في الحياة اليومية، لقد نشأت في ظل مسجد سيدي الكتاني، في بيت تركي عربي، وسط أذان المؤذنين، طلقات المدفع المعلنة عن بداية ونهاية رمضان. نداءات باعة سوق العصر (يا مدام تشري العظام؟) وببساطة، اللغة العربية، المهجنة بالعبرية والتي كنا نتحدث بها في العائلة (يا مول لعلام، سيدي، كانت تدعو أمي أينما حلت وارتحلت). ثم تلك التعابير التي كانت ترصع أفراح وأحزان الأيام: «حاشاك»، «لا عاداك»، «تعيش» (بعد العطاس)، «مايا گزيرا» (يالها من مأساة — مر زمن قبل أن أفهم أن «گزيرا» هي كلمة عبرية)، «هاراني كبارا ليك» (فلأكن كفارة لك — هنا مرة أخرى «كبارا» ليست إلا الكلمة العبرية «*kapara*» بنفس المعنى). من ينطق بعد بهذه الكلمات؟

آه، بلى، كنت أضحك بخبث وأنا ألمح «حجاما» بشفرته الصدئة وهو يذبح كبشا بمناسبة العيد، في حين أن ذابحينا نحن، بشفرتهم الحادة والتي كانوا يتحققون من حدتها بأظافر خنصرهم المستطيلة، بين كل أضحية صريعة وأخرى، كانوا يبدون لي أكثر خبرة. صلف صبي، فقد اتجاهه الصحيح بسبب مستقبل مظلم ومريب يحدق به. تتوالى على ذهني عائدة صور عشية عيد الفصح، حين كان الباعة العرب يأتون إلى السوق بالمواد الضرورية لعيدنا (الملح، «الحوت الشعبي»)، أو كذلك، وهو ما لا ينسى، رؤية شيخ بلباس أبيض، يأتي لينصت، في الكنيس الذي بناه جدي الثالث، إلى إنشاد التعاليم العشر باللغة الخالصة لساعديا غاون (الملقب بـ«الفيومي»)، الرباني العبقري المولود بمصر في القرن التاسع). إلى يومنا هذا مازالت في عيد العنصرة (شافووت) تنشد بمعابد اليهود المشتتة في مدينة قسنطينة، تعاليمه، دون أن تفهم جيدا.

هل أنا في حاجة إلى استذكار هذه الموسيقى التي هدهدت طفولتنا، «المالوف» ؟ في بيتنا، كان والداي يتنافسان في ندية حول موضوع المغني المفضل عند كليهما. كان والدي يفضل رايموند ليريس ووالدتي، فرجاني. تلك الألحان الواهنة للموسيقى العربية الأندلسية، مع الانتقالات النغمية الخاصة بالمدينة التي كانت مسقط رأسي، لم تغادر دواخلي أبدا.

لقد رافقت، بشكل طبيعي، زفاف ابني، الذي لا يعرف مهد والده. في الحقيقة، كنا نغوص في تلاحم رحمي مع الثقافة العربية: الـ «حرام»، الـ «حشومة» أو الـ «عيب»، كانت هذه الكلمات تضع حدودا لحيواتنا، يهودا ومسلمين، بشكل أكثر أمنا من الأسلاك الشائكة التي كانت تحيط بالأحياء الموضوعة تحت حظر التجول. صورة أخرى: والدتي وهي تفحص، مع جاراتها العربيات، الخرقة الملطخة بدم عروس شابة، مليكة، شاهدة هنا وهناك على شرفها المصون حتى ليلة زفافها.

لأننا، جميعنا، كنا نسبح في وسواس الشرف هذا، شرف النساء، طبعا. ولم تكن شتيمة أسوأ من سب طهارة أم، أخت، خالة. لا أجرؤ هنا على استعادة الشتائم الجهورية والذكورية التي كنا نتبادلها، مثل المحاربين الإغريق القدماء قبل المعركة...

كل هذا مات، لكنه لم يدفن بعد.

حين أسترجع هذه الطفولة أمام أبنائي، يتعجبون مرارا: «يتكون انطباع أنه، على الرغم من الحرب، كانت هذه الطفولة رائعة.»

دون شك، بما أنهم يقولون ذلك.

لكن ماذا سيتبقى منها لأحفادي؟

هذا الاستعراض بقلب الصويرة-موگادور، في الساحة التي تسمى الآن مولاي الحسن،
تم تنظيمه في اليوم الذي أعلن فيه عن استقلال المغرب سنة 1955.
ونظرا لعدم وجود قوات مغربية منظمة (جيش، بوليس، إلخ) فإن كشافة المدينة هم الذين
قاموا بالاستعراض رمزا للسيادة الوطنية المسترجعة. وقد تم اختيار أندري أزولاي
(على اليمين، خارج الصفوف)، والذي كان في سن الرابعة عشرة،
ليكون على رأس المستعرضين.

من أجل غد آخر
الصويرة، موگادور

أندري أزولاي

كنت في سن الثانية أو الثالثة عشرة، ومع هذا، أكثر من نصف قرن بعد ذلك، إنها لصورة، لحظة خفية، ضوء لثواني معدودة، أحفظها بإخلاص حاضرة في ذهني كما لو كان قد حدث ذلك أمس، بنفس التأثر، بنفس القوة و نفس التفرد الغني باستثنائه.

صورة، لحظة، ضوء، ذلك ما رافقني طيلة حياتي، واهبا لتجذري في مجتمع مسلم، أمازيغي، عربي ويهودي، مجتمع بلدي، المغرب، عمقا ومشروعية كانا سيتجاوزان كل أعراض اللحظة. كل الشكوك، أيضا، ودوخات فقدان الذاكرة التي، منذ زمن طويل جدا، تلغم وتضعف الفضاء الثقافي، التاريخي والإنساني الذي خصبه وتقاسمه المسلمون واليهود خلال ما يقارب الألف سنة بالمغرب العربي والشرق الأوسط.

كان ذلك إذن في مساء خريفي، خلال سنوات الخمسينيات، بمكتب والدي، في عمق زقاق بقصبة الصويرة-موگادور.

دخل صديق للعائلة، كان يسمى الحاج الإمام، وبعد العناقات التقليدية، أخرج من تحت جلابته كيسا بلون بني مملوء بالتراب، وضعه بعناية في يدي والدي وهو يقول: «هذا لك ولعائلتك. لقد عدت من حجي إلى القدس وبما أنه من المستحيل بالنسبة إليك أن تذهب إلى هناك، فإنني

أتيت لأقاسمك صلواتي وأحمل إليك قليلا من هذه الأرض المقدسة التي هي في حوزتنا نحن الاثنان.

لم أُقدر إلا في مرحلة متأخرة جدا ما عشته آنذاك والطابع السوريالي تقريبا اليوم لهذا المشهد.

عمقه، حداثته وحقيقيته كان لها بروز يضاهي عند الطفل الذي كنته، كما عند والدي وصديقه، هذا التقاسم التلقائي والأخوي للمقدس والذي لم يكن فيه ما يجعله استثناءا بل كان يندرج بشكل طبيعي عندنا نحن الثلاثة في اليومي العادي للعلاقة الاجتماعية بين المسلمين واليهود بالصويرة.

يتعلق الأمر هنا، كل واحد سيفهم ذلك، بشيء أكثر من مستملحة... وإنه لهذا البرق المومض... بكل الممكنات الذي اخترت عن سبق إصرار أن أفضله كي أمنح المعنى الحقيقي لاستذكار طفولتي ومعيشي اليهوديين في أرض الإسلام. تقريبا، في نفس المرحلة، ربما حدث ذلك بين سنتي 1953-1954، دون أن يهيئني أو يوحي لي به أي شيء، أتذكر أني التحقت، بشكل طبيعي جدا هنا أيضا، برفاقي المسلمين لأتظاهر بمعيتهم كل مساء عند الغروب، هاتفين بشعارات تدعو إلى إنهاء الحماية الفرنسية وإلى عودة الملك محمد الخامس، المنفي من قبل فرنسا بمدغشقر، إلى العرش.

لم يكن أي شيء هنا بطوليا. كنا في سن الثانية عشرة، نتراكض عبر أزقة الصويرة داعين إلى استقلال المغرب وإلى الحرية ببلدنا، مُطارَدين، دون كبير قناعة، من قبل «ملحقي»... تلك المرحلة، وقد استمر هذا الطقس بضعة شهور مع الضرر الذي ألحقه بأولياء أمورنا، القلقين على نسلهم.

هنا، بالفعل، يمكن أن يشكل ذلك مستملحة، لكنني اليوم مازلت أسأل نفسي عن الشيء الذي دفع بطفل الإثني عشر عاما، تلميذ بـ «الرابطة الإسرائيلية العالمية» والمدرسة الفرنسية، أن يندمج تلقائيا

في الحركة الوطنية المغربية، بينما يتم تلقينه كل يوم على مقاعد قسمه أن أجداده هم الغاليين وأن ماضيه كما مصيره الآتي يبدآن وينتهيان بفرنسا.

إنه بعد التجربة فقط سيفرض الجواب على هذا السؤال نفسه بشكل طبيعي على الكثير من بيننا، حين أعدنا، بكل وعي، امتلاك هذه النفاذية اليهودية-الإسلامية المبنية والمصونة من الطرفين، حيث العمق والديمومة يجدان نفسيهما في التعبير عن العادات الأكثر اتباعا وصدقا في حياتنا اليومية، محددة هكذا، وأكثر من أي بلاغة أو نظرية أخرى، اختياراتنا الجوهرية وسلوكاتنا الأكثر أساسية.

هذه الوقائع، التي هي حوليات معيش أطفال مسلمين ويهوديين بموكادور-الصويرة، أعود إليها اليوم مرة أخرى بنهم وامتلاء.

وأنا أثير هذا هنا، ينتابني مع ذلك الشعور الغريب، والذي يكاد يكون ذنبا في آن معا، أنني أكشف الحجاب عن شيء ما لا ينقال، يجب أن نعالجه بحذر وحسب شروط ما جرى به العمل، لأن التاريخ، التاريخ الكبير للمقررات والبحث العلمي والأدب، لا يكاد يفتح لنا أبوابه إلا مواربة، وأن هذا الفراغ كان فراشا لكل الكليشيهات وكل الاستيهامات.

بسبب النقص والجهل كذلك، فإن الشبهة هنا تحوم، تستثير الارتياب وأحيانا القلق عند استحضار «محرك العقول» هذا الذي له الجرأة كي يندرج ضد تيار فكر وحيد وسائد.

فِكْر كان، في أحسن الأحوال، سيحكم علي بفقدان الذاكرة والإنكار وفي أسوئها بالصمت المتواطئ بجانب هؤلاء الذين ارتضوا أن يروا هويتهم وتاريخهم يعاد بناؤهما أو كتابتهما وفق أهواء ومصادفات اللحظة.

إن الاحتفالية المغربية العميقة بآخر يوم من أعياد الفصح اليهودي، تأخذ في أفق مقاومة النسيان هذا، بعدا شعاريا، بما هي فن لكل الممكنات، وبالأخص رمزيا من حيث كونها درجة عليا للألفة والقرب الروحيين

والثقافيين في نفس الآن واللذين عبر المسلمون واليهود عنهما وحافظوا عليهما على مر العهود.

بالصويرة-موگادور، كما في كل ربوع المملكة، كانت «الميمونة» — إنه اسم هذا العيد الشعبي — تكتسي مرة في السنة ومنذ قرون، هيئة كرنفال باستعراضاته ونيران حبوره. كانت تشهد احتشاد المدينة بكاملها لتتشكل خلالها عصبة يهودية مسلمة، اليد في اليد، للتغني بنفس الأهازيج والاحتفال بنفس القوة بحرية وسعادة العيش معا.

في أزقة الصويرة وفي ساحة السوق، التي تتحول بالمناسبة إلى مسرح كبير للأخوة البهيجة، كانت تهب هناك طيلة ساعات، ومنذ الشفق، هذه الموجة التي لا تنقطع من الراقصين، الموسيقيين، العائلات المحتفلة، وهي تتعانق وتتبادل التهاني والعبارة التقليدية للمتمنيات والتضامن بالدارجة « تربح»... (أتمنى لك الربح وأن يكون عامك رخاء).

قبل هذه الأجواء البهيجة ذات الأثر الخاص في النفوس، كانت العائلات المسلمة تذهب إلى البيوت اليهودية للمدينة التي كانت أبوابها، منذ غروب الشمس، تترك مفتوحة احتفاءا بالجيران والأصدقاء المسلمين الذين كانوا يصِلون وأذرعهم محملة بأطباق ملأى بالحليب، بالعسل، بالزبدة، بسنابل القمح و بالزهور للاحتفال بلحظة البركة هذه التي تخلد خروج اليهود من مصر ونهاية عبوديتهم.

إن قصة الحياة اليهودية في كنف الإسلام هذه، والتي يبقى علينا كتابتها، ليست إخراجا لخيال بدافع المجاملة أو من أجل ضرورات القضية في خدمة، على وجه الخصوص، هؤلاء الذين أجد نفسي فيهم والذين يناضلون كي يعيش الفلسطينيون والإسرائيليون في سلام كل في دولته، كل يقبل من أجل الآخر نفس المتطلبات ونفس الحقوق في الكرامة، في العدالة وفي السيادة.

على عكس ذلك، فإنه قد حان الأوان للقول والكتابة والإبلاغ، متوسلين بشهاداتنا، أن دينينا، ثقافتينا، تاريخينا الخاصين لا يجب أن تستمر بعد هذا مُبررا أو غطاء لبؤس الواقع السياسي الذي يفترض أجوبة سياسية. بين اليهود والمسلمين اليوم، الشؤون التي تزعج ليست دينية أو ثقافية أو تاريخية، إنها سياسية ولا تمت روحانياتنا لها بأية صلة.

كثيرون من بيننا انتظروا وتمنوا طويلا توجها يرى أخيرا النور بالمتوسط المسلم حتى تتم إعادة اكتشاف وبناء التنوع الثقافي والروحي الذي شكل وحدد كثيرا مجتمعاتنا. إن إعادة الاكتشاف هذه لمشروعة في ذاتها، لكنها يمكن أن تصير حاسمة لتنبثق دينامية أخرى على الخصوص بين اليهود والمسلمين. ما كان حقيقيا أمس باستطاعته أن ينير الطريق لحداثة وكونية القيم التي يجب على مجتماعاتنا أن تعيد امتلاكها.

لقد فهم المغرب ذلك بإدراجه في ديباجة دستوره الجديد، الذي تم التصويت عليه في يوليوز 2011، المكانة المؤسسة والتجذر الذي للحضارات الأمازيغية، اليهودية والأندلسية في المجتمع المغربي وفي هوية شعبه.

أستخلص، من جهتي، من ذلك، أنه، كيفما كانت التباينات، النسيانات أو الضلالات العرضية، فإن التاريخ ينتهي باللحاق بنا ويفرض عدم قابلية وقائعه للطعن.

إن هذا الكيس الصغير من التراب، الذي جُلِب قبل أكثر من نصف قرن من مدينة السلام (أورشليم/القدس)، والتي كانت تحت إدارة أردنية، من طرف مغربي مسلم لصديقه المغربي اليهودي، لم يفقد شيئا من راهنيته، من نموذجيته ومن حقيقته.

كان هذا فعلا قبل بضعة عقود، كنت شاهدا على الواقعة، ووالدي مع صديقه «الحاج الإمام»، كانا هما الفاعلان فيها. لم يكن ليستطيع أي واحد من بيننا نحن الثلاثة، في سحر هذه اللحظة المحتفية بالأخوة

المتقاسمة، أن يتخيل مع ذلك أن تجد هذه القصة الحقيقية يوما ما امتدادها في ديباجة الدستور الجديد المقترح على الشعب المغربي من قبل الملك محمد السادس.

بالفعل، الاحتفال البهيج والمتقاسم لعيد «الميمونة» لم يعد يغزو ساحة السوق بالصويرة، لكن في الصويرة مرة أخرى، منذ حوالي عشر سنين، يلتئم شعراء، مغنون وموسيقيون يهودا ومسلمين للاحتفال معا بـ«الأندلسيات الأطلنتية» وإسماع عشاق الموسيقى، الآتين من كل أرجاء العالم، الكلمات المطروزة وألوان الموسيقى المنسوجة لتراث مشترك مغنى بالتناوب بالعربية والعبرية.

إن التاريخ، حقا، قد تعثر مرارا في إعادة الاكتشاف المعقدة والملتبسة للثروة الضائعة أحيانا لثقافتينا المجتمعتين.

لكن، سَيُفْهَمُ ذلك، يهوديتي بأرض الإسلام ليست فقط ذكرى طفولة مطبوعة بالحنين، وإن هذه الذكرى لا تكتب فقط بصيغة الماضي.

السنة الأولى من المستوى الابتدائي، مدرسة البنات بديار السعادة، الجزائر 1958.
جويل بهلول، الخامسة بالصف الأول، انطلاقا من اليسار.

ديار السعادة
الجزائر العاصمة

جويل بهلول

صورة القسم لعام 1958، السنة الأولى من القسم الابتدائي بمدرسة البنات لديار السعادة، تحكي طويلا عن طفولتي. كنا أربعين تلميذة فرنسية وعربية. بساحة المدرسة، لضرورات الصورة، يتم تنظيمنا في ثلاثة صفوف أمام الكوات المزججة لقاعة الدرس، أغلبية البنات عربيات. في الصف الأول لا تبرز إلا الفرنسيات. أقعد في الوسط، بجانب ابنة المعلمة، منافستي على الرتبة الأولى في القسم. بالصفين الثاني والثالث تستقمن واقفات، أغلبية من الفتيات العربيات، مع، هنا وهناك، بعض الفتيات الفرنسيات. هل كانت هذه الطريقة في تنظيم التلاميذ تعني تصنيفا «إثنيا» لمجتمع الجزائر العاصمة؟ بعد أكثر من نصف قرن، هكذا تؤول ذاكرتي هذه الصورة.

على ربوات الجزائر العاصمة، تنتصب «ديار السعادة» كمدينة تم بناؤها في بداية الخمسينيات على يد المهندس فيرناند بويون. ارتحلت إليها سنة 1957 برفقة أختي ووالدينا، في مسكن من ثلاث غرف يلمع جدة. أغلب سكان الحي كانوا فرنسيين، بعض العائلات من البورجوازية العربية الجزائرية كانت أيضا تقيم بها، بما في ذلك جيراننا، آل مقاشتالي. خلال السنوات الأربع التي قضيتها بالمدرسة الابتدائية، كانت معظم زميلاتي

العربيات يقمن بمدن الصفيح بمحيط المدينة، بمساكن مهترئة أبعد ما تكون عن الرفاهية العصرية لشقتنا. خارج القسم لم أكن ألتقي هؤلاء الفتيات، كان عالمهن على النقيض من عالمي وعالم أغلب الفتيات الفرنسيات.

هكذا ترعرعت بالعاصمة المتوسطية المجيدة لجزائر الاستعمار المنفرط. كانت هناك هوة تفصلني عن رفيقاتي العربيات، سواء في حياتنا الاجتماعية أو في ثقافتنا اليومية. العربية كانت لغتهن، أما الفرنسية فكانت اللغة المفروضة، لغة المستعمر. بالنسبة إلينا، نحن الفتيات اليهوديات اللواتي، على عكس زميلاتنا الفرنسيات الخالصات «الأرومة»، كنا نتمتع بتاريخ عائلي وطائفي طويل بإفريقيا الشمالية، شكلت الفرنسية في وعينا لغة تحررنا وتحولنا إلى أوروبيين، اللغة التي كان يجب علينا التمكن منها جيدا لنشهد على وضعنا كمنتمين كاملي الانتماء إلى الأمة الفرنسية. كانت العربية (أو اليهودية العربية) لغة أجدادنا، لغة الماضي التي أراد أولياء أمورنا نسيانها ولم يرغبوا في توريثنا إياها. كانت الفرنسية لغة نجاحنا الإجباري. ركز والدي هذه المعادلة التاريخية على إنجازي في مادة الإملاء. لم يكن يتسامح مع أي خطأ إملائي. خطأ واحد أو إثنان فأفقد ماء وجهي بالبيت. كان علي أن أحصل على نفس النقط الجيدة لأختي الأكبر مني بخمس سنوات، والتي كان يعتبرها والدي التلميذة الكاملة. لكن كان يجب علي أيضا أن أتفوق على ابنة معلمتنا الفرنسية. كانت فريديريك الصغيرة تزعزع راحة بالي العائلية. في كل شهر، كان علي أن أحمل دفتر نقط رافعة، وأنا في نشوة الانتصار، علم الرتبة الأولى.

كيهودي، وضع والدي من قبل حكومة فيشي بمخيم الأشغال الشاقة بتلغما بين 1942 و 1944، وإذن النجاح المدرسي لابنتيه بمدرسة البلد الذي حرمه بشكل مخز من مواطنته، كان يمثل بالنسبة إليه نوعا من الثأر. فكان انتصاري على ابنة المعلمة، أكثر من عشر سنوات بعد ذلك، كما لو

كان محوا لسنوات العار هذه، كان الأمر كما لو أنني، بوصفي فتاة يهودية، حققت نصرا ثانيا من أجل فرنسا وبواسطة اللغة الفرنسية.

هكذا فإنه بمدرسة ديار السعادة الابتدائية للبنات، كنا، أنا وفريديريك، نتناوب على الرتبتين الأولى والثانية بالقسم. كانت رتبة غير مقبولة بالنسبة إلى والدي، وحين كانت تظهر في دفتر نقطي ولو مشفوعة بتعليقات تنويهية تضعها المعلمة، فإنها تجعلني أقضي وقتا صعبا عند عودتي إلى البيت. خصوصا في مواجهة أختي التي كان والداي لايتوقفان عن ترديد أنها تنجح دائما في الحصول على الرتبة الأولى داخل قسمها. أن تكون غريمتي ابنة المعلمة ذلك لم يجعلني أستحق أية رأفة.

لم يكن لي بالطبع أي وعي بالبعد التاريخي لتجربتي الحميمية كصبية يهودية بالجزائر المستعمرة. وحتى إن كنت أسمع الكبار يقولون إن اليهود ليسوا في صف المستعمر ولا في صف جبهة التحرير الوطني، فإنني طالما أحسست بعمق بالمجهود البالغ الذي كان يبذله والداي كي يحصلا على الاندماج داخل المجموعة المواطنة الفرنسية. كانت لهذا الإندماج قيمة رمزية ذات أهمية كبيرة في ذهن يهود الجزائر، حيث كانت تمثل لديهم انعتاقا حقيقيا من ربقة الاستعمار.

عدا تجربتي الشاقة في المنافسة المدرسية، لم أحتفظ من علاقاتي برفيقاتي الفرنسيات إلا بذكرى ضبابية، باستثناء صديقتي هيلين ديليستان التي كانت عائلتها تقيم تحت بيتنا. لم يكن بقسمي إلا القليل من الفتيات اليهوديات، ولم تنطبع طفولتي الجزائرية باندماج عميق داخل الطائفة اليهودية للجزائر العاصمة.

كانت عائلتي تتردد على الكنيس بشكل عرضي، على الأخص بمناسبة حفلات الزفاف، ويهوديتنا لم تكن تتجلى أساسا إلا داخل الدائرة العائلية في الطقوس البيتية للتقويم العبري.

من هذه الجزائر المجندة في الحرب الاستعمارية، لا أحتفظ فقط بلحظات العنف.

نعم، كان ذلك الخوف الثابت، خاصة سنتي 1960 و1961، من الهجومات بالقنابل، من مظاهرات الشارع التي كانت تنظمها الحشود العربية، ومن ردود أفعال الجيش الفرنسي. كانت لأمي حساسية خاصة جراء هذا القلق المستمر. حتى مغادرتنا باتجاه فرنسا، صيف 1961، كان والدي يواظب على الذهاب يوم الأحد صباحا للصيد بصحبة إخوته على متن مركبه الرابض بميناء التسلية بالجزائر العاصمة. في بعض الآحاد من تلك السنة الرهيبة 1961، صار شغفه بالصيد خطيرا : فكي يلتحق بالميناء، كان عليه أن يمر عبر الأحياء العربية المشتعلة ثورة. كانت والدتي تقضي الصباح بكامله تقريبا مترقبة بالبلكون عودة رب الأسرة المهيب (*pater familias*)، في قلق كنت، مع أختي، أجد صعوبة في تبديده. وكي يجد عذرا لعوداته المتأخرة ويهدئ من روع والدتي، كان والدي يشهر غنيمة صيده الوافر ويطالب بأن ينظف ويقلى السمك الطري بدون تأخير. منذ تلك الفترة، صارت بالنسبة إلي وجبات الإفطار بالسمك الطري مرادفا للهناء واللقاءات العائلية.

خلال السنوات الأخيرة من الاستعمار، لم يُنطَق بكلمة «حرب» أبدا. كانت تخضع للرقابة في حديث الكبار. في محله، كان مفهوم «أحداث» يعبر عن كل مظاهر العنف التي وصفها المؤرخون تاليا كجزء لا يتجزأ من حرب الاستقلال. واحتفظت ذاكرتي بوضوح ببعض هذه «الأحداث»، خاصة التفجيرات العديدة بالقنابل البلاستيكية خلال ليالي صيف 1961.

في عجزنا عن النوم، كنا ننتهي بِعَدِها، متمنين أن تقع أبعد ما يمكن عن حينا.

لكن أياما قليلة قبل رحيلنا النهائي إلى فرنسا، انفجرت قنبلة كانت مثبتة تحت باب بالعمارة المقابلة لعمارتنا. لم يكف والداي عن القول إن الوقت قد حان للرحيل ومغادرة هذا الجحيم، على الرغم من الحزن العميق الذي كانا يشعران به حين يفكران أنه يتحتم عليهما التخلي عن وطن طفولتهما وتاريخهما.

حتى زحف العنف على المدن الساحلية الكبرى، كانت طفولتي الجزائرية مطبوعة بالاجتماعات العائلية البهيجة أيام الأحد ربيعا وصيفا، النزهات بغابة سيدي فرج والسباحة بالشواطئ المحاذية للجزائر العاصمة. كانت النساء يقلين في عين المكان الأسماك التي اصطادها صباحا والدي وأعمامي. كانت الخالة جيرمين تتفنن في تحضير أنواع البيتزا المختلفة وفطائر «كوكا» الشهيرة (فطائر محشوة بالطماطم، الفلفل الحلو والبصل). ثم تلتحق عائلة كاستيل، التي كان رب الأسرة فيها صديق شباب حميم لوالدي، بمجمع أبناء الأعمام وبناتهم، الأعمام، العمات والأجداد، مزودة بمساهمتها اللذيذة في النزهة الجماعية : هذا الفلان بالكراميل الذي تعده الأم كاستيل والذي لم أذق له مثيلا منذ ذلك الوقت من طفولتي المتوسطية بالجزائر المستعمرة، أفضل أيضا أن أحتفظ بالذاكرة الحسية لعطور الياسمين والأوكاليبتوس، للألوان المجيدة لنبات الجهنمية، لمذاقات الزعرور الطازجة، مشيمشا (عجين الحمص المشوي) الذي يباع عند أبواب المدرسة.

إنه لم يتح لي إلا بباريس لاحقا، حيث كنت طالبة في سبعينيات القرن الماضي، أن أطلع على تاريخ حرب الاستقلال وأن أكتشف ثقافة عرب البلد الذي كان به مسقط رأسي، ذلك الجزء من ثقافتي الخاصة التي محتها تجربتي تحت نير الاستعمار المتحضر.

ليزي بيهمواراس بإسطنبول في الساحة الكبرى لشيشلي، بداية الخمسينيات.
خلفها، امرأة تضع منديلا على رأسها،
بائع «سيميت» تحجبه جزئيا ورجل بشارب : نحن فعلا بتركيا.

ماتزاه، سيميت[1] وجبن أبيض

إسطنبول، شيشلي

ليزي بيهمواراس

«إنه كأخ لكم جميعا، قالت المعلمة للتو، لأن الأمر يتعلق بمسلم صغير.» إنها تتحدث عن نجل شاه إيران الذي لم يمر على ميلاده إلا فترة قصيرة. ميلاد ألهب، الله وحده يعلم لماذا، حماس ذلك القسم من المدرسة الابتدائية الذي أنتمي أليه. أعرف جيدا أن الوليد المعني بالأمر ليس أخا لي، ولا لجاكي، لفيكتور، لكورين، لطوني، لبيكي... باختصار، لباقي يهود القسم.

أن تكون يهوديا بالقسم، بالنسبة إلينا، هو قبل كل شيء أن تتميز باسم عن «الأتراك»، لأنه، ضمنيا، ليسوا أتراكا «أقحاحا» إلا المسلمون السنيون. على عكس أسمائهم، فإن ألقابنا العائلية توحي بإسبانيا، أما أسماؤنا الشخصية فلها جرس إنجليزي أو فرنسي. فيما يخص اسمي، كانت والدتي تحب أن تحكي في الصالونات أن من كان ألهمها إياه ليس إلا... سارتر.

كانت تتمسك تمسكا شديدا بفكرة تحديث اسم جدتي من الأب، إليزا، التي كان علي، حسب تقاليد السفارديم، أن أرثه منها. إن الفكرة أتتها عند قراءتها لكتاب «المومس اللبقة» فكان إسم ليزي. لكن منذ

1- «ماتزاه» : الخبز بلا خميرة. «سيميت» : فطائر دائرية الشكل مغطاة بحبات السمسم، يبيعها بتركيا باعة متجولون.

السنة الأولى في المدرسة، لم تكن المعلمة تلقي بالا لاسمي، بل كانت تسحله: حاجبان مقطبان، صوت متردد، ثم ها هي تتمتم «سيسي». أن تكون يهوديا أيضا، يعني أيضا أن لا تحضر دروس الدين التي وإن كانت اختيارية، فإن كل التلاميذ الآخرين يتابعونها. كان يجب كذلك أن نتجنب البوح بأننا نتحدث بالفرنسية أو باليهودية الإسبانية في البيت، حتى وإن تعثرنا، كما أفعل بسبب نقص الدربة، في نطق كلمات تركية معينة. التركية لغة مدرسة وشارع. لغة «الدولموش»[2] كذلك، بما أن الشعار الوطني المطلق سنوات الأربعين، «أيها المواطن، تحدث بالتركية»، مازال ساري المفعول وأن السائقين يلتفتون، في هياج، حين تصدر كلمة أجنبية عن أحد ركابهم. إنها مرة أخرى اللغة التي يخاطب بها الجميع «الخادمة» وأخي الصغير، «على الأقل كي يندمج أفضل». فيما نتواصل، والداي، جدتي من الأم وأنا باللغة الفرنسية. فرنسية إسطنبولية، بنطق له طعم أغنية، مشوب بتعابير طريفة: القسم عندنا «وحياتي» ؛ الهاتف، آلة الغسيل والسيارة ليست هذه الآلات، حين تكف عن العمل، معطلة، لكنها «فسدت» ؛ طبق ما يسمى «مأكولا»؛ نستعمل صيغة نصب الفعل بإفراط: «علي أن أحكي لك! أن أذهب؛ أو لا؟ لم يكن من حظ جدتي من الأب، سليلة العائلة الأكثر محافظة، أن تحفظ عن ظهر قلب، خلال طفولتها، الحكايات المنظومة للافونتين. وحين تزورنا، نخاطبها بشيء من التنازل بتلك الإسبانية الموروثة عن العصور الوسطى المهجنة بالتركية والعبرية والتي هي اليهودية الإسبانية... وعلى الرغم من نشأتها في وسط كان يفضل التحدث بالفرنسية على هذه اللغة المستهجنة، فإن والدتي قد وجدت نفسها مجبرة على بذل جهد لفهمها بعد زواجها. تنادي حماتها «ماما»

2- سيارات أخرى جماعية.

وتخاطبها كما العادة، بصيغة الغائب، ما كان يثير ضحكنا أنا وأخي. هناك كذلك العبرية الخاصة بالصلوات، تلك التي نعتبرها غير قابلة للفهم بالكل، لكن مع ذلك فإن إيقاعها الرتيب كان يهدهد مساءات عيد الفصح التي كنا نحضرها حيث كان والدي يرتلها ونحن نأكل الـ «ماتزاه». لم يكن إذن ابن شاه إيران أخاً لي. أحمل اسم بطلة من أبطال سارتر، أقرأ في النص الأصلي «كونتيسة سيغور»، «تانتان» و«بيكاسين»... لي لغتان للبيت، ثالثة للشارع والمدرسة، رابعة للأعياد. في الواقع، لأنني لا أتقن كاملا أية واحدة منها، أحتاج إليها كلها مرة واحدة. تركيبتي المترددة لا تمنعني من نظم وإلقاء قصائد وطنية حماسية. كل المناسبات تصلح مبررا: ذكرى وفاة أتاتورك، عيد الجمهورية، عيد الشباب والرياضة... وفي يوم ما وأنا مأخوذة باندفاعي الوطني، كتبت في واحد من أعمالي الكبرى: «أعلامنا المجيدة، هذه البقع الحمراء والبيضاء الخافقة في السماء الزرقاء.» هكذا مزقت المعلمة، والشحوب يعلو وجهها، إلى قطع صغيرة، الورقة التي كتبت عليها شعري: «هل أنت مجنونة، تربطين العلم بالبقعة في نفس الجملة. سيستنتج من ذلك أن علَمنا — لا قدر الله... — مبقع. لا تعودي أبدا إلى هذا، خاصة إذا كان واحدا من بينكم» صرخت المعلمة. «خاصة إذا كان واحدا من بيننا»، لقد سجل ذلك...

كانت شقتنا التي أقمنا بها بساحة شيشلي، هناك حيث أولى ذكرياتي، هي تلك التي لطفلة نحيلة تقف أمام النافذة بالساعات، مصفاة ودرع ينتصبان بينها وبين العالم، يحميانها من أخطار الخارج. في مقابلها تماما، تحت قبة بلون أوكسيد النحاس الأخضر، تقوم صومعة شيشلي التي تعني لي مصدرا لا نهائيا من المتع منذ أن لم أعد أخاف من الصوت الجهوري للمؤذن ومن الكلمات المبهمة التي كان ينطق بها خمس مرات في اليوم باللغة العربية... وفي الصيف، أراقب كل يوم، باعة غزل البنات

والـ «سيميت» (فطائر بالسمسم)، وهم يتكئون على حائط المسجد ويستدفئون بالشمس، فيما يلتحق بهم مسنن السكاكين وحرفي القصدير ومروض الدببة، فتقطع جلبتهم سبات فترة ما بعد الظهر. وطيلة السنة، في الساحة الداخلية للمسجد، تبدأ مراسيم التشييع العسكري على صوت الموسيقى الجنائزية لشوبان والتي تعزفها جوقة بالقليل أو الكثير من الفانتازيا. «إنهم يذبحونها» لي «!» تنتحب عندئذ جدتي.

في فترة رمضان، تزدان الصوامع الأسطوانية بأكاليل مضيئة تسحرني. رمضان، هو أيضا «البيديات»، فطائر تسقى بالزبدة المذابة عند خروجها من الفرن وتقدم مصحوبة بمربى الورد، شيء من جبن النعاج الأبيض والكاشار (نوع من الجبن) وقليل من الزيتون، لحظة الإفطار، أجد الأمر مسليا أن أقوم من نومي مع الخادمة لتناول السحور، آخر وجبة قبل طلوع الشمس، وأن أنظر إليها وهي تؤدي الـ« نماز» (الصلاة) راكعة على بساط صلاتها. ثم نقتسم بعد ذلك الـ«بيدي» المسخن هذه المرة، الزيتون والمربى، لترسلني بسرعة إلى فراش نومي خشية مؤاخذات الـ«مدام».

وإن ألغيت رسميا مع إعلان قيام الجمهورية، فإن لقبي «باي» و«هانم» يستمران على الرغم من كل شيء كشكلي تسمية الأكثر شيوعا، ما عدا بالنسبة إلى الأقليات، هكذا يسمى أساسا الأرمينيون، اليونانيون واليهود، فتخاطب الخادمة إذن والديَّ قائلة «مدام جاكلين» و«موسو نسيم» حسب تقديرها فإن هذا ليس له أي مضمون قدحي بل يعني ببساطة أننا لسنا مثلها.

على العكس فإن سيدة مسلمة ستعتبر ذلك إساءة أن ينادى عليها بهذه الطريقة وسترد بغضب : «أنا لست مداما !».

النافذة نفسها، الساحة نفسها، في سنة 1960، سأشاهد بوادر انقلاب عسكري (الأول في حياتي، سيليه انقلابان اثنان آخران على مسافة عشر

سنوات). سيتظاهر بعض الطلبة ضد الحكومة رافعين لافتات ومطالبين باستقالة الوزير الأول ميندريس. ما يثير قلق جدي فيقول: «إذا كان من أجل أن يعود الأصم!» في المعجم المدون لليهود الأتراك، «الأصم» يدل على الرئيس عصمت إينونو، الذي هو فعلا ثقيل السمع، فيما «الكبير» هو أتاتورك، والخضر، الأتراك، في ذكرى الحقبة العثمانية بدون شك والتي خلالها كان لهم وحدهم فقط حق ارتداء الأخضر.

في سنوات الأربعين، سيصدر «الأصم» مرسوما بإقرار ما يسمى بـ «فارليك فيرجيسي» التعسفية واللاديموقراطية (ضريبة على الثروة)، والتي لم تعصف إلا بالأقليات فأوصلت بعض العائلات إلى الإفلاس. رجال الأعمال، التجار، والصناع التقليديون الذين عجزوا عن أداء المبالغ الباهظة المفروضة، وجدوا أنفسهم محكومين بالأشغال الشاقة، بشرق الأناضول، على تخوم الاتحاد السوفياتي. لجدتي عادة أن تحكي في كل مناسبة عن ممتلكات كانت تحوزها ثم هي الآن مفقودة مثل الزرابي، البيانو، مصابيح «لاليك»، بلورات، أواني من الفضة، إلخ، جرد ينتهي برتابة وكآبة بهذه الكلمات: «ثم أتى الـ «فارليك» فأخذ كل ما كان عندنا...» فارليك هو إذن الشخصية التي قضت مضجع طفولتي، تلك التي تداهمنا دون سابق إنذار، تصادر كل الممتلكات، تكومها في صناديق ضخمة وترسل بقوة السلاح رب الأسرة ليكسر الحجارة. لماذا؟ لا نعرف شيئا عن ذلك، أين؟ بمكان يسمى «أشكال»، بقرية صغيرة جدا، حددت موقعها على الأطلس الجغرافي الذي كان في ملكي. هكذا فإن حياة جدِّيَّ تنقسم إلى مرحلة ما قبل وما بعد ما يسميانه باختصار الـ «فارليك»...

منذ إعلان الجمهورية وحتى الستينيات، توالت بإيقاع مقلق الإجراءات التمييزية التي كانت تستهدف الأقليات غير المسلمة، مثل هذا

«الفارليك» الشهير. على الرغم من ذلك، لا يظهر أن الدين لا يحضر إلا قليلا، على الأقل بمدينة إسطنبول، على أقل الأقل بالأحياء التي نسكنها. الحجاب الإسلامي لا أثر له بعد. يغطي نساء الشعب رؤوسهن بمنديل يربط بإهمال فوق صدورهن، والذي ينزلق باستمرار، كاشفا شعرهن. «الشرشف» الأسود الذي يسدل على الملابس، والذي يغطي الرأس كما الجسم كله، لا ترتديه إلا الفلاحات اللائي أنزلن توا من الأناضول الأوسط، الشرقي أو الجنوبي الشرقي، أي من أدنى العالم، عالم آخر.

لزمن طويل، وكأي منتم لأقلية، سوف لا أعرف من تركيا سوى إسطنبول، ومن إسطنبول غير المنطقة التي يسميها الجميع «المثلث شيشلي، نيشانطاش، إتيلير»، تلك الأحياء الواقعة على الضفة الأوروبية والتي يسكنها اليهود أساسا، والذين يقيمون أيضا، خلال عطل الصيف، بجزيرتين من جزيرة الأمراء (*Les Princes*)، في عرض المدينة، على بحر مرمرة، جزيرة بورغاز و«جزيرتنا» بويوكادا، بالحرف «الجزيرة الكبرى.»...

بهذا العالم المصغر الكوسموبوليتاني، هناك مفارقة أننا نقتسم مع الأتراك الشعور بكوننا أقلية، بما أنه في كل مكان، بالأزقة المحفوفة بشجر الغار والجهنمية. عند البقال أو بائع السمك، لا نسمع إلا اللغة التركية في الأحاديث. عموما «نعرج» إلى بويوكادا، حوالي شهر يونيو، حين تزهر أشجار الميموزا، و«نهبط» إلى المدينة وقت الدخول المدرسي، حين تبدأ اللقالق هجرتها...

إسطنبول التي أقيم بها لم تعد تماما تلك المدينة التي عرفتها وأنا طفلة، لكن الحياة فيها بنفس كثافة أمس، بنفس الضجيج، ربما بأحلام أخرى، بانشغالات أخرى. كما يقول مولانا : «كل ما ينتمي إلى الماضي، يا روحي، ذهب مع الماضي. يجب الآن أن نحكي أشياء أخرى».

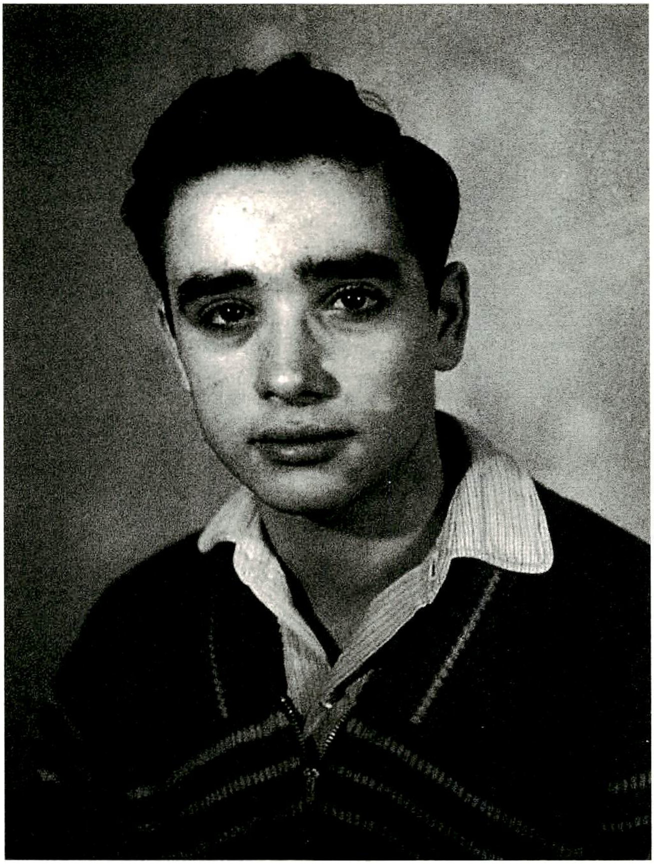

مارسيل بنعبو، مراهقا بمكناس.

البحر المحيط داخل غرافة
مكناس، «الملاح الجديد»

مارسيل بنعبو

أن أستعيد طفولتي المغربية لهو تمرين مألوف بالأحرى. لقد بدأت أتعاطاه مبكرا، ولم أكف عن ذلك منذئذ. كما لو أن ذاكرتي تعمل على أن لا تفلت فرصة لاسترجاع هذه المرحلة الخاصة جدا من حياتي. لم أكن أجهل مع ذلك أن ذكريات الطفولة تكون دائما معرفة، أحيانا ما قد يعاد بناء أجزائها، لإضفاء تلوين مثالي، بعد أسطوري قليلا أو كثيرا، على بعض الكائنات، بعض الأشياء، بعض الأماكن التي هي في الواقع عادية. لكنني كنت أقتنع أن ذاكرتي، ولو أمكن أن يشوبها النسيان أو الانتقائية، بين الفينة والأخرى، بقيت، بخصوص السنوات هذه، جديرة بالثقة. على عكس الطفولة المتقلبة التي للآخرين، فإن طفولتي كان لها تماسك لا ينفصم : الآثار التي تركتها ليست من النوع الذي ينمحي. بأي صفاء، بأية دقة انحفرت بعض الانطباعات، بعض الأحاسيس، بعض الانفعالات، بعض القناعات، التي قادت بعد ذلك اختياراتي في مرحلة الرشد. إنها الآثار التي يبدو لي بالضبط أنه من المهم أن أقتفيها هنا. لا داعي إذن، على هذه الصفحات القصيرة، لمحاولة نصب لوحة عظيمة حيث كل واحدة من مراحل، كل واحدة من مكونات حياتي كطفل

تجد مكانا لها[1]. سيكون ذلك، وفق كلمة لفلوبير[2]، «محاولة الإبقاء على المحيط داخل غَرَّافة». هكذا يتحتم علي أن أتخلى — ليس بلا ندم، هذا مفهوم — عن الاسترسال في الحديث عن السحر الذي لا يقارن للمناظر الطبيعية، لمعان الألوان، الرقة الغريبة للمذاقات والروائح...

إنني قد عشت إذن، منذ ولادتي (1939) وحتى ذهابي إلى باريس (1956)، بالمغرب، حيث كانت مبسوطة، في شكل حماية «حماية»، الهيمنة الإستعمارية الفرنسية[3]، مع البنية الاجتماعية الشديدة التمايز والتراتبية التي تفرضها، كانت مدينة مسقط رأسي، ومسقط رأس أفراد عائلتي، هي مكناس. إذا افترضت أن طفولتي قد دامت على الأقل ثلاث عشرة سنة، وسن الرشد الذي بلغته عن طريق الإحياء الاحتفالي للبار ميتزفا (*bar mitzvah*) التي تخصني. أظن أنه يمكنني أن أتبين، في تتالي هذه السنوات الثلاثة عشرة، ثلاث مراحل كبرى، كل واحدة منها ساهمت على طريقتها في تحديد وجه من وجوه تكويني، في طبع بعد من أبعاد هويتي.

تغطي أولى هذه المراحل السنوات الأولى من حياتي، تلك التي استطعت خلالها أن أكتشف، ببطء وبتدريج، ذلك العالم الصغير الذي كان يشكل محيطي المباشر: والداي، المتقدمان في السن نسبيا (كانا في الأربعين)، «إخوتي الكبار» الثلاثة و«أخواتي الكبيرات» الثلاث (كنت السابع في عائلة من ثمانية)، البيت العائلي الأضيق من أن يحتوينا

1- توجد محاولة من هذا النوع في كتاب لنسيم سيبوني «طفولة يهودية بالمغرب. جنة مفقودة ؟». لقد تطلبت لا أقل من أربع مائة وعشرين صفحة. أنا نفسي سنحت لي الفرصة أن أستسلم لهذا التمرين التذكري في بعض كتاباتي، وبالأخص في «يعقوب، ميناحيم وميمون، ملحمة عائلية»، دار النشر لوسوي، 1995، كما في «لماذا لم أكتب أي كتاب من كتبي» (الطبعة الثالثة، لوسوي، 2010).

2- هذه الكلمة لفلوبير وترد في «يوميات الأخوين گونكور» (11 فبراير 1863).

3- صار المغرب مستقلا رسميا في شهر مارس 1956.

جميعا، البيوت المجاورة التي تعج بأطفال في سني والذين سرعان ما سيصبحون، مع بعض أعمامي، رفاق اللعب الذين لا أفارقهم، وأخيرا حينا، «الملاح الجديد»، الذي يسكنه بالكامل، كما يشير إلى ذلك اسمه، اليهود[4]. بداخل كل هذا العالم الصغير، والذي كان بالنسبة إليّ هو «العالم كله»، كانت الحياة اليومية خاضعة بصرامة للإيقاع الذي يفرضه على الكل احترام التقويم الديني اليهودي. كان قبل كل شيء ذلك التمييز الدقيق بين الأيام العادية والسبت: كنت ألاحظ أنه في كل يوم جمعة، تجهد والدتي نفسها كثيرا كي تقوم بأشغال البيت المتعددة — التدبيرية والمطبخية خاصة، لكن ليس فقط — الضرورية للاحتفال بـ«الشباط» (عيد السبت). ثم بعد ذلك تأتي الدورة المنتظمة جداً للأعياد الكبرى، والتي كانت تمنح للسنين بنيتها الراسخة. اكتشفت سريعا إلى أي حد تختلف الاحتفالات التي كانت تصاحبها، كانت ترتبط بكل واحد من الأعياد، بالبيت كما في الكنيس*، أجواء خاصة تارة جادة وطقوسية، كما في روش هاشانا (*Rosh Hashana*)، عيد السنة الجديدة) أو يوم كيبور (*Yom Kippour*، عيد الغفران)، وتارة أخرى منفرجة وبهيجة، كما في بوريم (*Pourim*) أو هانوكا (*Hanouca*).

كل واحد كانت له أطباقه الخاصة، والشهية، والتي كان يجب أن تقتنى مسبقا، ليس بلامعاناة أحيانا، مكوناتها الضرورية. لكن بالأخص، كل عيد له صلواته المميزة، المدونة في كتب قديمة ونفيسة، حيث لم يكن والدي يخرجها من دولابها إلا للمناسبة: إن هذا هو ما ولد في ذهني مبكرا القناعة أنه كان هناك رابط حميمي بين الكتاب والمقدس، كما بين القراءة والصلاة.

---

* الصّلاة، في الثقافة المغربية (المترجم).

4- الملاح كان اسم الحي اليهودي بالمدن المغربية. بمدينة مكناس، ابتداء من سنوات 1920، تم، بمحاذاة الملاح القديم الذي يرجع إلى عهد السلطان مولاي إسماعيل (نهاية القرن السابع عشر)، بناء حي عصري تم إطلاق اسم «الملاح الجديد» عليه.

يجب علي أن أعترف أنني كنت حساسا، في تلك الفترة، لتفاصيل معينة ملموسة جدّا والتي أجدها مثيرة لحب الاستطلاع والاهتمام: بمناسبة روش هاشانا، تلك التفاحة المغموسة في العسل التي كانت تضمن سنة ملأى بالخيرات، الترنحات الأخيرة للفراريج العديدة (واحد لكل فرد من أفراد العائلة) والتي كان يأتي رِبّي ليذبحها كأضحية أمامنا بمناسبة «يوم كيبور» والتي يفترض فيها أن تذهب بذنوبنا، خلال أسبوع «سوكوت» (*Souccoth*)، تلك الوجبات التي كان يجب علينا أن نحملها إلى كوخ مسقف بالقصب، مبني في عمق الحديقة، الأقنعة التي كان يضعها أطفال الحي يوم «بوريم»، الصحن النحاسي الكبير، المليء بمجموعة من المأكولات الرمزية، والتي كان والدي يمررها فوق رؤوسنا مساء «الفصح». وأستطيع أن أسترسل في هذا التعداد. لكن حان الوقت للمرور إلى المرحلة الثانية. إنها مرتبطة، هذه الأخرى، بسنوات تعلمي في المدرسة والتي كانت تجري في سجلين مختلفين كثيرا، واحد فرنسي، الآخر عبري.

في أكتوبر 1945 تم قبولي بمدرسة الرابطة (*Alliance*)[5] حيث قضيت خمس سنوات. أحب أن أعيد الحديث هنا عن السحر الذي مارسه علي بدءا هذا المكان: أولا ساحة استراحته الرحبة حيث غرس نوع من أشجار الفلفل والتي لا تغيب عنها الشمس إلا قليلا، ثم، بقاعات الدرس، المنصة والمكتب الخشبيان للمعلم، المحابر الملأى بالمداد البنفسجي، علب الطباشير الملون، الخرقة المبللة المتزلقة على السبورة السوداء، الخرائط الحائطية الكبيرة بألوانها الزاهية والنقوش التي تعرض لأهم أحداث تاريخ فرنسا.

5- «الرابطة»، اختصارا للرابطة الإسرائيلية العالمية، هي مؤسسة فرنسية، أسست في القرن التاسع عشر، طورت شبكة واسعة لاستقبال الأطفال اليهود ببلدان مختلفة من حوض المتوسط. كانت البرامج بها هي نفسها برامج المدارس الفرنسية.

مع ذلك فإن بداياتي لم تكن سهلة. لكن بمساعدة فعالة جدا من أختي الكبرى، المعلمة، حققت في وقت وجيز تقدما كبيرا، خاصة في مجال اتفق الجميع على أنني أستوعب فيه بسرعة، دراسة الفرنسية: كل شيء كان بالنسبة إلي جيدا: الإملاءات، تمارين النحو، التعبير الكتابي... إنما الذي كان أحب إلي فوق كل شيء، هو أن كل دخول مدرسي كان يمنحني الفرصة أن ألج أكثر عالما غريبا وفاتنا على حد سواء: ذلك الذي كنت أكتشفه من خلال نصوص مجمعة في هذا الكتاب النفيس الذي كان يسمى «كتاب القراءة». في اللحظة التي يكون فيها بين يدي، أذهب رأسا نحو الجزء الأخير من الكتاب. كانت تحتوي على حكايات قصيرة أو نصوصا سردية من صفحتين أو ثلاث، أولى النصوص التخييلية التي هيئت لي فرصة قراءتها، والتي جعلتني أشعر برعشات مجهولة، إلى حد أنها كانت تمنحني الرغبة، أحيانا، في أن أعيد كتابتها بطريقتي...

في نفس المرحلة، كانت علاقتي مختلفة بما يكفي بالتلمود-توراة (*Talmud Torah*) المدرسة الرابينية التي كان علي أن أرتادها خلال شهور الصيف والتي لم أكن أشعر فيها بالراحة. لا الفضاءات (بناية ثقيلة مربعة بأقسام شديدة الامتلاء)، لا المدرسون (ربيون طاعنون في السن وملتحون، ببيداغوجيا بدائية على الأرجح)، ولا رفاق التلمذة (كان معظمهم مراهقين فعليين، ولم يكن لي معهم ذرة توافق) جذبوا اهتمامي.

على الرغم من ذلك، اقتحاماتي القسرية لهذه المؤسسة كانت لها انعكاسات إيجابية: لقد سمحت لي باستكمال تكويني الديني، في انتظار البار ميتزفا، وبالتقدم في معرفة اللغة العبرية، التي لقنتني والدتي قبل ذلك مبادئها الأولى. في تلك اللحظة بدأ يظهر بقوة اهتمامي وميولي للغة وللألعاب التي تسمح بها. كان لي حظ أن ألج حينئذ، ولو بشكل متفاوت جدا، ثلاث لغات: الفرنسية (التي كانت تحتل المرتبة الأولى)، العربية

الدارجة (التي كنا ما نزال نلجأ إليها مرارا) والعبرية. لكنني اكتشفت سريعا أنه، في ممارستنا اليومية، كل واحدة من الثلاث كانت تستطيع، بالمناسبة، أن تبني تآلفات أكثر أو أقل تعقيدا مع الأخريات، وأن تكون هكذا ما يشبه «اللغات الصغرى».

كان يجب أن نعمل، مع كل فئة من المخاطبين، على اختيار اللغة المناسبة، أي عند الاقتضاء «اللغة الصغرى» الملائمة، وبداخل هذه الأخيرة، المعجم، النحو وبالأخص النطق المناسبين. رياضة تتوافق فيها التسلية والتعلم.

كان على هذه الرياضة أن تستمر حتى المرحلة اللاحقة، مرحلة الدراسة الثانوية. الانتقال إلى السادسة، الذي حصل بعد استقرارنا ببيت جميل كله جدة بفترة وجيزة، والذي كان يلائم حجم العائلة، شكل هذا الانتقال التحول الأكثر أهمية في طفولتي. عندما صرت في سن الحادي عشرة تلميذا بثانوية بوميرو، مؤسسة كانت تقع بـ «المدينة الجديدة»[6]، وجدت نفسي مقذوفا بي، ولأول مرة، خارج الشرنقة الخاصة باليهود التي كنت حتى ذلك الوقت أعيش داخلها. كي ألتحق بالقسم، كان يجب علي منذئذ أن أقطع مسافة طويلة عبر المدينة القديمة، التي لم أكن أجد الفرصة حتى ذلك الحين لأنفذ إليها. في الثانوية، اكتشفت مدرسين، رفاق قسم، مسيحيين (بأغلبية كبيرة جدا) أو مسلمين (بعدد قليل) جددا، والذين لم يكن لي معهم دائما علاقات سهلة، لكن أيضا، كان لي أن ألج معارف جديدة. ولكوني منذ نهاية المستوى الابتدائي استقررت في الموقع المريح لـ «التلميذ النجيب» فإنني كنت ألتهم بشهية لا تشبع كل ما كان يراد تعليمه لي. اكتشفت بالأخص متعة تعلم لغات جديدة، الإنجليزية ولا

6 - هكذا كان يسمى الجزء الفرنسي من المدينة، الذي تم بناؤه في بداية الحماية، مفصولا بشكل واضح وعلى مسافة من «المدينة القديمة»، التي كانت تمثل الجزء العربي.

سيما اللاتينية. في الصيف الذي سبق دخولي إلى قسم السادسة، بادرت واحدة من أخواتي لتلقيني مبادئ النحو اللاتيني، والتي كانت لها مهارة تقديمه لي كلعبة. لعبة أثارت إعجابي على الفور، لأنها كانت ترتكز على منطق صارم. هكذا تم وضع البذرة، تلك التي كان عليها أن تقودني، في وقت لاحق، إلى التخصص في دراسة روما وحضارتها.

لكن هذا المنطق السعيد ظاهريا لم يتحقق دون بعض الخسائر، كان يتحتم علي أن أتعلم الانصياع لمعايير جديدة، دون القطع بنفس القدر مع القديمة، بتعبير آخر: أن أقبل الحياة يوميا محكوما بسجلين أكثر أو أقل تنافرا. أن تكون لي شخصية ازدواجية. مفارقة كانت تتفاقم سنة بعد سنة، مع التعليم الذي كنت أتلقاه: كنت ألقَّن تاريخا لا علاقة له بماضي ذويَّ، وجغرافيا لا تطابق في شيء المحيط الذي كنت أعيش فيه. كل ما كان يقع نصب عيني صار خلسة عديم القيمة. ما كان يساهم في تغذية شعور دائم بالحنين، بالإحباط. كان ذلك من الحدة بحيث، ممزقا بين نارين، غادرتُ الطفولة بكل أعراض ما يمكن أن نسميه اليوم «أزمة هوية». لكن هذا، بطبيعة الحال، فصل آخر من تاريخي...

ثانوية كَوتيي، الجزائر العاصمة، 1948.
ألبير بنسوسان هو الثالث انطلاقا من اليسار بالصف ما قبل الأخير.

«الجلفة، محبوبتي»
الجلفة

ألبير بنسوسان

.

جمعة واحدة من كل شهر، في الأزمنة المراهقة، كنت أذهب إلى إرساليات شارع أميرال - بيير، بين ميدان بريسون وساحة الحكومة، لأستلم من حافلة الجنوب - الجلفة - بوغاري - ميديا - بليدة - الجزائر العاصمة - علبة كارتون ثقيلة، والتي، عندما نفك أربطتها بالبيت، تكشف عن كبش كامل مقطع إلى مربعات كان يهدينا إياه إسرائيل خالفا، صديقنا الفاضل - وحمو أختي.

كان باب الصحراء قرية مترفة تستمد ثروتها الأساسية من الحامية العسكرية المهمة التي أنشأها الجنرال يوسف، (الذي أعلنه فرنسيا نابليون III). كان العسكر الفرنسي يسهر دون أن يرف له جفن على هذه الصحراء الوعرة التي اعتقد أنها ستفيض ذهبا أسود في القريب العاجل. كان السيد خالفا يمتلك أحد دكاني البقالة بالقرية، الآخر كان في ملك آل أكو، ثاني أكبر عائلة جلفاوية، والمنافسة. كان متجره الشاسع في نفس الآن، مخزن مواد غذائية، بقالة، قبو خمور جيدة، معرض شوكولاطة، دكان خبز وحلوى وأخيرا وليس الأدنى قيمة، مجزرة حلال قطعا. وإذن، مرة في كل شهر، يقوم إسرائيل بذبح عظيم يذكيه الـ «شوحيط» (*chohit*، ذابح الأضاحي) يحتفظ لنا منه بأضحية، بسبب الصداقة المفعمة بالود التي كان

يكنها لوالدي أيام كان ضابطا بثكنة الشلف المتاخمة للقصبة وهو، إسرائيل الشاب، الجندي الممرض. كان يقضي هذا الكبش عندنا من أسبوعين إلى ثلاثة، على شكل ضلوع مشوية، عنق بالبطاطس، «ميگينا» بالمخ، مطية (*selle*) خروف بالجلبان، «الكرعين» (القوائم) لطبق اللوبيا (الفاصوليا)، الكروش لـ«شكانبا» بالكمون، وكل اللحم المفروم الذي كنا نحشو به، مخلوطة بالأرز، النقانق اللذيذة لـ«العصبان»، التي كانت أروع ما في كسكسنا. إذن حين كان يقضي إسرائيل الشباط (السبت) عندنا — كان يأتي من الجلفة بانتظام في سيارته من نوع «سالمسون» ليعقد صفقاته بالعاصمة — كان يلتهم صحنا، ثم اثنين، يسيل لعابه على «الكرشة»، يبتلع «الخرشوف» المحشو واللوبيا البيضاء بـ«كرعين» العجل التي كانت والدتي تطلق عليها اسم «التشراع» (الكراع) (عربيتي ضعيفة جدا)، وفجأة يثبت صحنه ويدفع به: ها هو يلقي نظرة على الطوابق الأربعة لشقتنا، يصعد مرتفع تيلملي، يكمل دورته على طريق قنوات الماء وحتى «العجائب السبع»، ونصف ساعة بعد ذلك، كان يعود ليجلس على المائدة وليجهز على الوليمة الشهية الوفيرة التي تحضرها له والدتي، بما أنها تعرفه نَهِمًا وقويا بقنطاره من الشحم المرح الجيد، وبما أن والدتي كانت ترفع المغرفة عاليا وكل هذا المرق المتبل، فإنه كان يقول لها دائما: «في يوم ما، عزيزتي عائشة، سيحق علي أن أستضيفك أنا كذلك.» لكن أمي، التي لم تكن تحب كثيرا أن تنادى بالإسم الذي ألصق بها في ندرومة، كانت تعود إلى المطبخ مهمهمة: « أليس، أليس... القط بالمطبخ... » وهكذا في ظهر ما من ربيع سنواتي الخمس، انقلبت لعبة بلهاء بصحبة أخي الأكبر — كان الأمر يتعلق بمحاولة تدوير كرسي في حالة توازن على رجل واحدة، أخي من الخلف وأنا من الأمام، ملتصقا بظهر كرسي — إلى كارثة. السقطة، حيث التفت رجلي بقضيب، تسببت

في كسر بعظم فخذ الغض، ماجعل حجم فخذي يتضاعف. ومن كان هناك، بالمطبخ، مع والدتي، يرتشف قهوة بالقرفة؟ الأب خالفا. أخذني هذا الرجل الصلب العود بين ذراعيه وهرع بسرعة إلى عيادة لافيرن، بشارع باستور، تحت مكان إقامتنا، حيث تم وضع جزأي العظم في خط مستقيم مع بعضهما، ثم، رافعا عاليا لفخذي، مسنودة ببكرة خصصت لتسهيل الالتحام، جعلوني أبقى مستقليا هكذا ورجلي في الهواء مدة أربعين يوما، لا أقل. بعد هذا، أتى ممرض الرتبة الأولى — الذي خدم بكتيبة «الزواويين» التاسعة، ثكنة الشلف — يتفقدني بباب العيادة. أركبني بجانبه بالسيارة، وست ساعات بعد ذلك، أي بعد أكثر من ثلاثمائة كيلومتر من الطريق، اكتشفت أخيرا الجلفة، في عقدة طرق لغواط، الواحة التي انحدرت منها عائلة خالفا المزابية، أفلو حيث رأت ليلى صبار النور في اللحظة نفسها التي وصلت فيها إلى الهدف، وبوسعادة ومرتفعات أولاد نايل، حيث أصول زوجة إسرائيل الفاتنة - قوام رشيق، قدمان بيضاوان على قبقابين يطقطقان على البلاطات، وآه! من هذه النظرة البروسية الزرقاء الحادة التي لسيدات الجنوب الحسناوات أحيانا.

في ذلك الوقت، كنت أمشي إذن متكئا على عصا، جارا ساقي اليسرى التي لحموها لي، وخلال شهر كامل، كنت أخضع لنظام السميد — التمر الذي قواني، نماني وأعادني إلى العاصمة أقل هشاشة — وشيئا ما أكثر تمردا. تحت العينين المنبهرتين لواضعتي، التي كانت تحب إلى حد كبير أن تتحدث بلغة سرية إلى والدي مساء على السرير، ها أنا أتكلم العربية كأي واحد من أبناء الجلفة البررة. تقاسمت ثلاثة أمكنة إذن تربيتي. أولا سوق القرية حيث أرافق مرتين في الأسبوع الأخ الأكبر لحامي، ذاك الذي يسمى «عمي باهي» - تصغير، يجب قول ذلك، لأبراهام، أو، على الأصح، لإبراهيم - والذي كان يمتهن حرفة الحجامة (قلع الأسنان) : أنا، كنت أجلس على

الحصيرة الممدودة على سطح الرمل وأتأمل استعماله للكُلّاب. ثانيا، ردهة الكنيس حيث ينيق الربي من سلطته، مرتين في الأسبوع، الفتيان المقبلين على البار ميتزفا (سن الرشد والتكليف) — في الواقع كل الصبية الذين أدركهم السن — والذين، وهم جلوس على الأرض، يتصايحون بالعبرية. وكذلك ثم كذلك، فناء البيت حيث كنت ألعب مع نسيم، قريب السيد الذي كان يكبرني، وأخته الصغرى ريفكا التي كانت تتسلى بإشهار عصاي جاعلة منها سيف الأمير عبد القادر، «يا ويلي».

لم تكن عصا الربي عصا عادية، بل سوطا طويلا، خيزرانا يلصقه على رؤوسنا، نحن الجالسون القرفصاء أرضا، بأرجل حافية على الحصائر، معتمرين شاشية كما ينبغي لكل من عليه أن يتعلم العبرية وينشد الصلوات. كنت أتابع بصعوبة لأنه لم يكن يتكلم إلا العبرية، ككل أولئك الصبية. «يا داوود، كلب بن كلب»، كان يقول للكسول، وإذا تمادى هذا الأخير، أمسك به أطول تلميذين بالقسم قامة، فطرحاه على الأرض مبقيان ساقيه في اتجاه عمودي وأخمص قدميه للخيزران اللاذع الذي، عند كل ضربة، ينتزع صيحات الطفل المشاغب - فيما كنت أثابر لأخط بالطباشير، على اللوحة، الهندسة الصعبة لحرف «الألف» : عارضة أفقية، قرن من فوق، قرن من تحت، كما كان أول كاتب ينسخ، وهو يرسم، رأس ثور.

— ماذا تعلمت؟ سألتني بعد ذلك ريفكا راجة حلقات شعرها المصبوغة بالحناء الأرجوانية.

لكن بما أنها طرحت علي السؤال باللغة العربية، فإنني هززت رأسي كأي جاهل. ثم هزت كتفيها هي الأخرى. جلسنا بالمقعد الصغير، محاطين بسلتين حيث تغرف راحة يدها بالتناوب حفنة سميد وحفنة تمور معجونة.

في الخميس التالي، أو الأحد ربما، سترافق أمها — للاّ الغالية — حتى مدخل المعبد. حيث الصراخ بالألف - باء - جيم - دال (أليف، بيت،

گيميل، دالِت) وها هي وجبة العاشرة صباحا، هذه الكويرات الصغيرة الرخوة والهشة والتي كانت تنفخ خدود الحضينة الرابينية كاملة. أي اسم كان لهذه الحلوى؟ كنت أعرفه لكنني نسيت كل شيء، سأقول لكم لماذا.

وبما أنني كنت أجلس عند أقدام «باهي» هذا الإثنين أو هذا الأربعاء، يوم السوق، مع كل فلاحي وأثرياء الجلفة المسارعين إلى أريكة العمليات (*étals*)، فإن «الحجام» (الحكيم) الطاعن في السن كان يأتمنني على أداة الاقتلاع. كانت تلك آلته الوحيدة. كان يضع أيضا على الأرض الكوب الصغير وقنينة فينيكس (*Phénix*)، لأنه، وفي الغالب، يجذب شراب اليانسون الزبون أكثر من ألم الأسنان. كان «عمي باهي» رقيقا، لم يسبق لي أن سمعت معه صراخ أشخاص نزعت أسنانهم، كما هو معهود بالجزائر العاصمة حيث يثقب الصراخ جدران قاعة الانتظار عند طبيب الأسنان المرخص له، صاحب الإسم المهيأ لهذه الرسالة «ماشتو». «باباطا»، كان يقول باهي في حركة بطيئة، لكنني، أنا الذي كنت أجد صعوبة في تتبع العربية على شفتي الشيخ، كنت أسمع «بطاطا» ولم أكن أفهم ماذا تفعل البطاطس في الفم الأدرد للمريض. لا يهم، في أقل مما ينبغي من الوقت للنطق بكلمة بطاطا، كان سن المشتكي يبدو عالقا بطرف الكلاّب وكوب شراب اليانسون في عمق بلعومه. كانت الجلفة لا تعرف الألم، المعاناة، العذاب... وهكذا وهكذا.

كنت أعود دوريا، على مدى شهر صيف طويل، إلى الجلفة، ضاحكا ما زلت من ضربات الخيزران على أخمص قدمي التلاميذ الكسالى (لم يكن ذلك إلا لعبة تواطؤ). وبما أني صرت كبيرا بما يكفي، فقد أيقظني السيد خالفا، الذي كان يغلق دكانه السبت، باكرا ذلك اليوم، ليأخذني إلى الحمام، بين رجل ورجل... قبلي أنا، كان هناك ابنه (الذي سيتزوج أختي)، لكن هذا الأخير كان داخليا بثانوية ميديا. هكذا كان الأب

يحب جدا أن أحل محله بالمعبد، هو الفخور بنسله، فيغطي جبيني بشال صلاته ذي اللون السماوي ساعة منح البركة، فيما قبل، كان علينا أن نتطهر داخل الأبخرة الهائلة للحمام التركي: كنت أسلم جسمي ليدي المدلك الذي لم يكن يستعمل فقط أصابعه المزيتة ليحرك المفاصل لكن رجليه أيضا، ممسدا وخابطا على الظهر بقدميه وهو يقف على الأجسام الواهنة قرب الفسقيات، أبدا لم يُعثر بعد على ذلك الشاي الحارق الذي يقدم إلينا على الحصيرة، بالقاعة الحارة، طعما وسعادة... عند العودة من الصلاة، كانت النساء ينتظرننا بالمسكن، وسيمحا، الزوجة الحسناء ذات العينين الألمانيتين (كان يقال ذلك، بالتأكيد، في فظاظة أرض يُعتبر فيها الكل مجرد «كحلوش» أو حتى أسود زنجي اللون)، تدفع بكوب الخمر وكويرات لحم الخروف من أجل المباركة الشباطية. دائما تأتي ريفكا لتضع بيدي كبة السميد والتمر الصغيرة التي تكون قد عجنتها بصبر عشية اليوم المنصرم. ودائما، وهي تمدني بشراب، تجعلني أنطق بهذه الكلمة الصعبة على حنجرتي «الأوروبية»: «كخرة»، (القرعة، أليس كذلك؟) نعم، إنها اللفظ الأعسر نطقا بالعربية، وكانت تضحك من ذلك كثيرا أمام فمي المفتوح وحنجرتي العاجزة. فتنتقم معتبرة أنني «خمار» (حمار)، شيء كالأبله أو الدابة ببردعة، هكذا، لكن الآن صارت ريفكا كبيرة ولم أعد أراها إلا من خلف حجابها، لأن يهوديات هذه البلدة محتشمات أكثر من سكان المدن، خاصة بالعاصمة حيث لم يكن يغبن عن الحفلات الراقصة الخاصة أيام الأحد، بمقر اتحاد الطلبة اليهود بفرنسا، زقاق نوكار (زقاق بلا منفذ على أعالي شارع ميشلي)، مشتل أزواج المستقبل والزيجات العائلية القرابية.

لكنها الجلفة مرة أخرى وأخيرة — قبل أن يضيق الثوار الخناق على المدينة بأغلال الإرهاب. كان ذلك في ظهيرة «الخانا». انطقوا جيدا بهذه

«الحنا» كاشطين حناجركم لهذا الغرض، «الحنا»، لأن الأمر يتعلق بحفلة تقديم ذبيحة. نسيم العظيم يتقدم لخطبة أصغر بنات إخوة إسرائيل — ربما كان اسمها أيضا عائشة، اسم كانت بناتنا أو أمهاتنا مازلن يحملنه وقتئذ. جئت خصيصا من أجل العرس وكانت لي ثماني عشرة سنة. التحقت السيارة سالمسون القديمة، التي كانت تقلني في وقت سابق، بمرأبها الأخير، وكنا نركب بسهولة أكثر ما سميناه الـ«إينوكس» (الفولاذ)، قطار صغير من الألمنيوم بطريق ضيقة كان يصل البليدة بالجلفة في خمس ساعات (فقط). كان يجب الركوب بالقطار الكبير على خط الجزائر العاصمة - البليدة، ثم تغيير الرصيف بمحطة لاروز الساحل (وردة الساحل) لأخذ مكان بهذه العربة الصغيرة التي تشتد حرارتها على الهضبة المرتفعة، صيفا، في عز السمت : حينها يستغل المسلمون الوقفة الإجبارية ليبسطوا سجاداتهم لأداء الصلاة على الرمل، على جانبي ممرات القطار، فيصلون مسترحمين السماء، فيما يغط الآخرون في نومهم في تفاهة تاركين وجوههم تقطر عرقا. عند حلول المساء، في الفيلا المهيبة للأب خالفا، تم إدخال الموعودين. هو، نسيم، محاطا بأصحابه الذين طافوا قبل ذلك سبع مرات حول البيت، في سلوك طقوسي، وعايشة، الخطيبة التي تأخذ أمها وعرابتها بيدها عن قرب، ورأسها خلف حجابها المصنوع من ثوب رقيق وشفاف. وسط قاعة البروز، صينية عريضة تسند هرم الحناء ومن فوقه التمرة المغروسة كفأل سعادة وخصوبة.

في تلك الأمسية، رقص الجميع حتى وقت متأخر من الليل على موسيقى النوبة، فعلا، لكن أيضا على إيقاعات جريئة تئن على أسطوانات إليكتروفون يشتعل جدة خرج لتوه، وبالمناسبة، من دكان التاجر. كانت ريفكا جسورة، على الرغم من حضور أخويها الإثنين اللذين، مازلت أراهما، يؤطرانها على الكراسي الموضوعة قبالة الحائط.

كانت قد أطلقت حلقات شعرها الأسود الأصهب (بسبب الصبغة)، وحنجرتها الناضجة كانت تطلق زغاريد جَشَّاء عند كل تحية موجهة إلى المخطوبة، التي تحمل يداها، من على الظهر، نجيمات لذيذة موشومة بالمسحوق الأسود، والتي كانت لها هذه الحركة الأنيقة، وهي ترقص، في لف يدها المنجمتين على جبين نسيم الطويل المنحني أمامها... في هذه اللحظة تقوم ريفكا، أنا على يقين أنني أراها مرة أخرى تعود باتجاهي، مقلدة قريبتها (بنت عمها) ومغطية وجهي بيديها الممتلئتين.

آه، نعم لقد اكتسبت صحة في مراهقتها بالتأكيد. ثم رقصنا، أولا على الطريقة العربية، كل واحد يمسك بمنديل يفصل بيننا تارة ويصل تارة أخرى، وأيضا على الطريقة الفرنسية، لأن الجلفة كانت تعرف أحيانا كيف تبدو عصرية، فاستشعرت صلابة عودها بين يديَّ المرتعشتين شيئا ما، لأنني كنت ألاحظ جيدا أن الجميع، كما إخوتها، كانوا ينظرون إلي. لاحقا، وبما أنه قد تتبقى بعض حناء الهرم، فإنها قربت العصية وغرفت حجم تمرة صغيرة من المسحوق الأسود ثم وضعتها في جوف راحة يدي، فلَفَّتْها في شريط كتان رقيق مكونة عقدة، ثم طلبت مني أن أفعل مثل ذلك معها. هل كنت أخرق لهذا الحد؟ لقد لطخت يدها بقطعة صهباء والتي لففتها بدوري في الدنتيلا الرقيقة. وراقصني حتى أراقصك...

في الغد استقللت القطار الأتوماتيكي، وعدت إلى البيت، رأسي يتذبذب من قلة النوم، واليد اليسرى (أو هل كانت اليمنى) تنطوي على قطعة لويس ذهبية رائعة - التي انكشفت تماما كما في الصباح حين أرخيت راحة يدي. وخلال فترة السفر كلها كنت أفكر في ريفكا التي كبرت وازداد وزنها إلى هذا الحد، بدون شك بسبب تناولها المفرط لكويرات السميد والتمر هذه التي كان اسمها على طرف لساني لكن سارعت إلى نسيانها. ذلك أنه، في المساء نفسه الذي وصلت فيه، قام إسرائيل خالفا بمهاتفة بيتنا:

«إذن، يا بنيامين، قال لي في التلفون، يظهر أنك تقدمت للخطبة مساء الأمس؟»

«ماذا - ماذا - ماذا...» أجبت، وفمي عاجز، وحنجرتي مختنقة، مع كل هذه الكلمات بالعربية التي صارت صعبة بالنسبة إلي. «لقد بحث عنك إخوة ريفكا الصغيرة هذا الصباح... إذن قل لي، «يا ابني»، قل لي، «يا ابني»...»

إنه وأنا أقطع خط الهاتف فاقدا للصوت بالكامل — نعم، كنت قد صرت بلا صوت — تطايرت كل الكلمات العربية التي علمتني إياها بصبر جميل رفيقتي الصغيرة منذ أن كنت في خامسة سنواتي العرجاء، في الهبة الحمقاء للسموم القاتل. وهكذا، فإنني إذن لم أتعلم شيئا ونسيت كل شيء.

«باقة أخوة» بعثتها آمي بوغانيم التي لا تملك أية صورة لها تعود إلى مرحلة الطفولة.

مهد الله

صويرة موگادور

آمي بوغانيم

ليس باستطاعتنا أن نتهرب من هدهدة المرضعة، من حركتها والأحلام التي وضعتها فينا والتي تستمر في العناية بها من الصدى الإلهي لصوتها. لا يمكننا أن نضيع وحدتنا، أن ننساها دون أن نقترف المحرم. إننا نحمل مهدنا فينا وندفنه معنا. في كل مكان، عبر طرق العالم، من منزل إلى آخر، عبر الأمواج، من ميناء إلى آخر. كان لي مهد أمازيغي بأثافي مستديرة. كان يتمايل على إيقاع حركة البحر مدا وجزرا وهي تبلل الأسوار الحساسة والهشة لصويرة موگادور، الواقعة على شبه جزيرة بجنوب المغرب. حين عدت إليها للمرة الأولى، خمسا وثلاثين سنة بعد مغادرتها، بدت لي المدينةكلها وكأنها مهد. الدفء الشتوي، حركة الأمواج، الأهازيج الأمازيغية. لم أعد أسكنها، هي التي تسكنني.

كانت موگادور مدينة تتزين بالدانتيلا وترتجف لوشوشات الريح. صباحا، تنشر النوارس البيضاء نور النهار ؛ ومساء، تطويه طيور الزمج الرمادية. من كل جانب، تندفع الأمواج ضاربة في الصخور وفي محاولة يائسة لتحريكها أو للالتفاف عليها. الصنوبريات الجليلة والثابتة، تعيد لعب أدوار باتاگونية قديمة ؛ نباتات الكاوتشو المنكوشة المتهالكة، لم تعد تعرف بعد أين تمد أغصانها ؛ النخيل يجتر حنينه إلى الصحراء. كان هناك

أيضا باعة يعرضون جرادا مشويا في أواني مقعرة وثمار بلوط في صهاريج صغيرة. حلوى «المرينكة» (*meringue*) وأخرى باللوز ذوابة. مساحيق لكل أنواع الحبر وأعشاب لكل الأوجاع. فراشات يابسة وأذناب عظايات تجلب السعد. في المحلات الكبرى — التي تحولت منذئذ إلى أروقة فن — تتحلق فارزات اللوز محييات حفلهن الفصلي. الأذان، صوت الأجراس ورنين الساعة تقشر طين الأسوار، الجير الأبيض للجدران، أزرق الأبواب والنوافذ. وكان الرذاذ يشبع بالتعاويذ السوداء لگناوة والإيحاءات المخملية لطيور السنونو، بهمهمات العرافين وتوسلات المتسولين. تدخل موگادور في مقام «الحال»، فنشاهد هياج الموكب اللانهائي للمتجولين، من باب المرسى (*la Marine*) إلى باب «المنزه» ومن باب السبع وحتى باب «القدر» (*Destin*). وكأن الحنين ما هو إلا وجع في الحواس، الأحشاء، في القلب أكثر منه في الرأس. كل واحد له ربما جنته المفقودة، وموگادور كانت كذلك. لم أكف عن الهيام بها. تلقي موجاتها الشعائرية، إن كان عند قدم حائط المبكى أو كنيسة «الساكري كور» (*Sacré Cœur*). تحسس أصواتها الواهنة في ذكريات ملتبسة صماء وفي رؤى نورانية. إعادة بناء مناظرها ومواقعها بدقة نادرة في أحلامي. لقد تركت الطفل هناك. لقد بقيت من هناك. ثمن الهجرة ربما هو شرنقة دودة لم تنتج فراشة وحيث تنحفظ ذكرياتي؛ أجرها أيضا. منذ أن أدركت المشي، تم تسليمي إلى الربي بينحاس الذي كان يملك حضانة ببيته. كان رجلا قديسا، بجلبابه الأسود، ورأسه مغطى بحجاب أزرق منقط بالأبيض كما يفعل حكماء اليهودية المغاربية. كان يقيم بزقاق مظلم يربط ساحة شايلة بزنقة «القدر» في القصبة العتيقة. كنا زمرة أطفال، من سنتين إلى أربع، نردد حروف الأبجدية العبرية المرسومة على لوح قديم يضعه الربي على صدره. استظهار رتيب تمتزج فيه نبرات عبرية، آرامية وعربية، يُفهم، لا يعني شيئا، لا ينمحي. لم

يكن يقول شيئا محددا ؛ كان يقول كل شيء. كان ملهما ؛ كان حكيما. كان يصم الآذان. ثم كان يدعى كل واحد للإشارة إلى الحرف الذي ينطقه الربي. حين كنا نخطئ، فإن الأصبع الشارد كان يوضع بين فكي ملقطه، وكان ضغطه من القوة بحيث ينتزع منا صرخة توبة.

إنه ذلك «الحضور الإلهي» كله — ومضات متذبذبة للشموع في الظل، نشائج تنعقد بالحلق، شعور باليتم — الذي كان حبيسا لهذا الزقاق المظلم الدنس والذي كان كل من يمر به يسرع الخطى ليعانق الضوء المطمئن للنهار. ستبقى مع ذلك هناك، هذه الألوهية الغامضة، الصماء العمياء، منتظرة من يأتي ليحررها من سجنها. عند عودتي الأولى، أدخلني حارس المقبرة إلى غرفة حيث كان ينتصب قبر. كان شيخي القديم. الأول والأخير. الوحيد. كان له الشرف العظيم أن لا يدفن مع عموم الفانين. سلمني الحارس قبعة وكتابا. لم يأت نشيد القاديش إلى شفتي. لا يقول شيئا حين لايوقظ أصداء عند دزينة من الأشخاص على الأقل. بينما أتذكر حكاية لكافكا بحثت عنها في تدويناتي : «كيف يتأتى ذلك؟ لقد مر زمن طويل على خروجك من قسمي. لو لم تكن لي ذاكرة أمينة فوق قدرة البشر، لعجزت عن التعرف عليك. لكن هكذا أتعرف عليك جيدا، أجل، إنك تلميذي. إنما لماذا أنت عائد؟»[1]. لم يترك الربي بينحاس لا كتابا ولا خلفا. في وقت لاحق، سأحاول أن أعالج العقم المحرج مخصصا له مكتوبا أُقَدِم نفسي فيه على أنني وريثه الروحي مباشراً قَبالة (*Kabbale*) ظل لفائدته. سأضع في فمه هذه العبارة المستقاة من كتاب «الزوهار» (*le Livre de la Splendeur*) الذي كان يقضي أيامه قارئا له : «الغمر البدء (*Tohu Bohu*) هما بقيتان من حبر كانتا ملتصقتين برأس القلم[2].»

1ـ ف. كافكا، «نصوص وشذرات سردية»، لابلياد (la Pléiade)، ج II، گاليمار، 1980، ص. 411.

2ـ «الزوهار» 30أ، ترجمة س. موبسيك، منشورات فيرديي (Verdier)، ج. I، 1981، ص. 172.

من حضانة الربي بينحاس، مررت إلى المدرسة الربية حيث جربت السلم المتنوع لقسوة مدرسيها. لم يخرج الله، برهة وجيزة، من زنقة الحبس، إلا ليجنح بهذا الحي-الكوخ الذي هو الملاح. إنه كان وسخ العالم، الاختلاط الأكثر ازدحاما، الفاقة القصوى. إنسانية في حالة انتقال، إلى مكان آخر، متأخرة على الخصوص، عالقة في انتظارها للمخلص الأكبر. في سرية آسنة، تحيا لتحيا، تختنق عند هبوب الريح. كانت الأزقة من البؤس، المباني، الحيطان، الوجوه؛ الصلوات سريعة، سواء كانت للمنشدين، لموظفي أماكن العبادة أو للمتسولين. إنه شعب الله الذي جوعته ألفا سنة من المنفى وهو يرتل عزته والذل. كانت مقاومته الصماء تغوي كما كانت تثير الاشمئزاز. كان مستنقعا بشريا يتصاعد منه ما يشبه أبخرة شعائرية عفنة ولم يكن أحد يتساءل هل هناك إله لينصت إليهم. إنه إلى هذا المكان كانوا يقودونني، يوما بعد يوم، لأتلقى «كلامه».

ثم بعد ذلك رحلنا من «بيت البئر» بالمدينة العتيقة إلى «البيت المتصدع» بالقصبة. كانت مربعات زجاج بالنافذة، التي لم يكن الريح ليرحمها، تتكسر وتنسحق بالباحة. والأبواب ومصاريع النوافذ لا تكف عن الاصطفاق، راجة البناية كلها. الفئران والقطط كانت تدخل بحرية من تحت الباب. طيور السنونو، باحثة عن منفذ أمان، كانت تصطدم بالحيطان. الذباب، النحل والجعل تحلق حولنا حتى، في غفلة منها، تسقط في واحد من بيوت العنكبوت الكثيرة التي كانت تؤثث الزوايا. ومع ذلك فقد كانت الجنة هي. النوافذ تفضي إلى الأسوار، الساعة الكبرى وباب السباع الذي يحرسه مدفعان برونزيان صغيران واللذان كنا نركبهما تحت العين اليقظى لوالدتنا من وراء زجاج النوافذ.

من الآن فصاعدا، صار موقعنا في منتصف الطريق بين المدرسة العبرية والمدرسة الاستعمارية. تخلى والدي عن طموحاته في رسم مسار

لي كرِيّي؛ دفعت بي والدتي نحو المقاعد اللائيكية. كانت مدرسة حقيقية، بساحة تملأها أشجار البلوط والحور، جزء مغطى و... أرجوحة يفعل بها الريح ما يريد. لم يعد الله هو المسألة. كان يكتفي مدرس العبرية بتعليمنا النحو، على أفضل التقاليد السبينوزية التي كانت تتبعها «الرابطة». وحده مدرس العربية لم يكن يذكر الله دون أن يضم إليه رسوله. كنا نرتدي وزرات، ونرفع لوحات، الطباشير الملون المختلط بالأبيض، وإذا كان الحبر بالمدرسة الرابينية أسود، فبالرابطة كان بنفسجيا.

عند عودتي مرة، سمحت لزميلة لي أن تجرني إلى خلوة «شوافة» (عرافة) «كناوية» (من طائفة كناوة، مغاربة ملونون من أصل إفريقي يمارسون نوعا شعبيا معروفا من الموسيقى). هيأت كل ما يلزم، الصحن الطيني، المجمر والبخور. شرعت في طقوسها. ثم عندما أتت لحظة الكلام، تراجعت، معتذرة بصداع نصفي كان يحول بينها وبين ممارستها للعرافة. كانت ترفض أن تتكلم، على الرغم من إلحاحنا أنا وزميلتي. كنت دائما أتساءل عما تكون قد رأت أو أحست حتى ترفض أن تبوح لي بتنبؤاتها. ربما شعرت بتأثير «عايشة قنديشة» (جنية في الميثولوجيا المغربية) علي ولم ترد أن تقاسمني تخوفاتها. بدافع من الحياء، حسن الضيافة... خوفا من «المقدمة» الكبيرة (المسؤولة عن هذه «المهنة» التقليدية غير المنظمة) التي تراقب المكان. منذ ذلك الحين لم أكف عن الاستيهام حول كل ما يتعلق بإقامتي بالصويرة. أثاث ملون على نمط «تزواقت»، ستائر من ثوب «الحايك» وزليج بألوان أمازيغية. نوافذ تفضي إلى المحيط كجدران. واجهة زجاجية تستطيع أن تقاوم الريح وتسرق منه بعض ترنماته. غرفة نوم على شكل مخزن. في حضن دفء حميمي، هدهدة موجات المحيط، النوارس الزائرة، الزبح الحارس من فوق. أن نضيع من أنفسنا في مقامنا، على أهبة قفزة في الصمت العظيم. الجسد والروح فوق كل الحدود. دون

شرط أن يكون مدى لذلك ولا طموح. أن نختلي وراء النوافذ المغلقة متابعين رقصات الأمواج دون أن تنتبه إلينا. ثم، هنا وهناك، أن نلاقي «الريح» التي، كي نستعير من كافكا مرة أخرى، «تلاعب الكائنات الخفيفة، تمدد في حياة الأوراق المتساقطة»[3]، والتي، في قَبالة الظل للربي بينحاس، تجسد وترمز إلى الله...

3 - ف. كافكا، «رسائل إلى فرانز فيرفل»، دجنبر 1922، لابلياد، ج. III، ص. 1202.

شوشانا بصحبة أختها رينا، سنة 1963 بصفاقس.

لا شيء عن الطفولة

صفاقس، مولانفيل

شوشانا بوخبزة

إن الأمر لا يتوقف عن الوجود بداخلي ومع ذلك، في الحقيقة، الذكريات تلاشت.

وبما أنها اختفت غارقة في الذاكرة، سأعفيكم من حكاية حول الشمس، البيوت البيضاء، البحر ورائحة الياسمين.

لا أعرف كيف أحكي لكم عن هذا، لا أستطيع.

لقد انمحى كل ذلك.

كما تنمحي، وأنا أكتب، ذكريات قريبة، ذكريات سن الرشد. لا أعرف هل أكتب كي أتذكر، أو أكتب لأهب نفسي ذكريات.

رغم ذلك فإن صفاقس في ذاكرتي.

ولدت هناك، في هذه المدينة الساحلية، كسبعة أجيال من عائلتي، أناس فقراء، مؤمنون أو، كما يقال بأناقة في العربية، «خايفين ربي»...

كنت في سن الرابعة حين غادر والداي صفاقس ليقيموا بباريس. لم يكن والداي يرغبان في الهجرة. كانا يحبان «زنقتهما»، حيهما، جيرانهما، كانا يعشقان فواكه هذه الأرض. مذاق الزيتون لم يغادر شفتيهما، كما مذاق السمك الطازج الذي كان الصيادون يلتقطونه بشباكهم.

حين يتحدثان عن تونس، يسترجع والداي زمنا حيث كان للزمن معنى وخفة. ثم يضيفان سريعا أنهما بدءا «يجريان» فقط حين وصلا إلى فرنسا. في البداية كانا يرددان: كل من لا يجري بباريس، «المشيام»، المسكين يهلك.

شيئا فشيئا، طفقا يقولان إن الزمن، منذ بداية منفاهما، اختل. وإن الزمن صار ينساب بأسرع من السابق، كما لو كان مخطوفا، وإن النهار لا يكاد يولد حتى يأتي الليل، وإن الشهور تفر، والسنين تطير، باختصار، كان الزمن يسير بسرعة أكبر من إيقاعهما ومن أحلامهما.

في الواقع، منذ أن صارا يعيشان بباريس، كل شيء أصبح يبدو لهما أكثر صعوبة من السابق، وأكثر تعقيدا في التدبير. فوضعا قائمة كاملة للأسباب التي يمكن أن تفك لهما هذا اللغز. السبب رقم 1، الأخطر: لا توجد شمس بباريس، الضوء الحقيقي، الأبيض، الذي لا تستطيع العينان أن تنظرا إليه مباشرة، الذي يخرج العرق من المسام، يفصل النهار عن الليل، الذي يخلق خط أفق. السبب رقم 2: المدينة الجديدة مترامية الأطراف وللذهاب من نقطة إلى أخرى يجب التنقل عبر الميترو، الباص، أحيانا الإثنان. السبب رقم 3: كلما اشتغلنا، كلما استهلكنا، وكلما استهلكنا اشتغلنا. باختصار، لم يعد هناك وقت لأخذ الوقت. في السابق على الأقل، حتى حين نكون فقراء، بصفاقس، كان بالإمكان تذوق الحياة.

كنت أنصت إليهما يتناغيان.

كان حديثهما يسقط في دواخلي كأحجار في بئر. كلامهما كان يملأ بئر حياتي كطفلة. كل كلمة كان لها وزن لا يستهان به. وكل كلمة كانت تخلق صدمة عقلية. كل كلمة ترن عند اصطدامها بأخرى. ولا تزال ترن، ذلك أن، ويا للعجب، بئر حياتي كطفلة لا يمكن أن يملأ. كلما سقطت به كلمات أكثر كلما طلب المزيد. كلما سجل تفاصيل معينة كلما زاد ظمأه للإنصات.

كنت في سن الرابعة.

كان يجب علي أن أتذكر أشياء كثيرة.

لكنني لم أعد أرى شيئا.

مسقط الرأس غادر جسدي.

أعرف — قيل لي ذلك — أنني كنت طفلة صغيرة ناضجة قبل الأوان لأنني في سن الثالثة غادرت البيت، ساعة قيلولة والدي، لأذهب إلى منزل جدي. لوحدي، على ساقيّ الصغيرتين. قطعت رصيفا، ثم آخر، اجتزت مرأب «سيمكا». وصلت فخورة بنفسي، إلى باب منزل جدي، الذي، حين لمحني، التقطني من الوسط، وأجلسني بين يدي مقود الدراجة الهوائية ثم أعادني على جناح السرعة إلى والديّ اللذان كانا يبحثان عني في كل مكان. لقد أبلغا الجيران، مشطا الأزقة القريبة، مسحا المصطبة على أمل أن يجداني.

كنت أحب وأنا صغيرة أن تحكى لي هذه الهربة.

صارت هذه الهربة رمزا.

لكل هذا الماضي الذي بُتِر.

الطفلة التي كنتها فهمت أنه كان هناك تمزق. فهمت أنه من جهة كانت هناك الشجرة، شجرة العائلة التي تبحث عن عموديتها، توازنها، وأنه من جهة أخرى كان هناك ثقب، المكان الذي احتضن جذورا، ثقب مفتوح، هناك، بعيدا لماذا ؟

لأنه لم تعد هناك رغبة في بقاء اليهود على أرض مسلمة؟

لأن إسرائيل وجدت؟

لأننا تغربنا؟

لأن سهم التاريخ أخذ وجهة أخرى؟

لي خمسون سنة، اليوم.

لا أكف عن بناء أسئلة، عن بناء أجوبة، عن بناء صور.

هكذا، أحيانا، يتهيأ لي أنني «أرى» معبد جدي، أنني «أراني» ألعب في الزقاق، أنني أعرف بحر صفاقس حيث، كما كانت جدتي تقول، يأتي بحارة العالم بأسره للاستراحة. هناك فعلا صور مصفرة قديمة ترشني، أغلبها بالأبيض والأسود.

شيء آخر.

منعت حكومة بورقيبة اليهود من حمل أموالهم معهم. فاشتروا — كي لا يتركوا كل ثرواتهم خلفهم — بعض الأغراض. هكذا، طلب والدَيَّ أن تنسج لهما أغطية بقفصة، أغطية أثقل من الزرابي، تكسر عظامنا حين نتغطى بها. أفضل من ذلك، أرسل بعض أبناء عمومتي إلى باريس مئات الصفائح الملأى بزيت الزيتون، والتي احتاجوا إلى سنوات كي يستهلكونها، صفائح استعملوها فيما بعد ككراسي وموائد.

لقد غادرنا تونس، لكن تونس لم ترد أن تغادرنا. وكما كان يقول أحيانا والدي، الذي كان يذهب إلى بيلفيل كل يوم أحد ليلتقي تونسيين، ليشتري أكلة خفيفة محشوة بالهريسة، ليقتني علبة «زلابية» وكيس فستق: «الأسد غادر الغابة، لكن الغابة بقيت في عيني الأسد.»

من دائرة إلى دائرة، كنا نحاول أن نلمس المركز، أن نجد مرة أخرى قلب الوجود، أن نريح رأسنا على صدر الأرض المفقودة لننصت إلى نبضها.

شعب غريب في الحقيقة هو شعبي، ممزق بين بلد مفقود، بلد للعيش، للزواج، للعمل، وبلد موعود. شعب غريب ممسوك في كماشة بين الماضي، الحاضر والنبوءة.

متى وعيت أن شيئا ما لا عودة فيه قد حدث؟

يجب أن نقول إننا كنا التيار المعاكس لمجتمع لم يكن لنا خيار فيه غير الانغراس. كنا هنا وهناك في نفس الوقت.

كنا نحاول أن نغير، أن نتكيف، أن نتطبع، لكن المظاهر القديمة لم تكن تريد أن تموت.

كان جدي يمشي مرتديا سروالا و«كابوشا» بالبيت، كنا نأكل الكسكس، «الحلالم»، «البقيلة»، «النيكيتوش»، «المرگيز»، «الحصبانة»، «كوكلا»، «العقود». عندنا ليس هناك سليقة، ولا «كاسولي» ولا «كبد البط»، طورطات أو فطائر.

وكل ما فعلناه في السنوات الأولى بباريس، كان تقريبا، نعم، فلنقل الكلمة، مشبوها.

أمثلة؟

لدي مثال استغرق تفكيري طيلة سنوات.

كان جدي مذكي أضاحي بصفاقس. كان يذبح ديكة، دجاجات، أكباشا، ثيرانا للجزار، على شريعة موسى. وطبعا فإنه حمل معه إلى باريس سكاكينه المشحوذة وأحجار الشحذ.

منذ الأسبوع الأول، تجولت والدتي بباريس باحثة عن ديك حي تشتريه ليوم السبت (الشباط).

ابتاعت واحدا، من على الأرصفة.

بثمن الذهب.

بقي هذا الديك بضعة أيام تحت مغسل مطبخ شقتنا الصغيرة الواقعة بشارع لاروكيت. كان يصيح كل صباح. الشيء الذي أثار فضول الجيران فبحثوا عنه في كل جنبات العمارة. سألوا والدتي. هل سمعت ديكا يصيح؟ لا، قالت، ثم فجأة وقد امتلكها الخوف، وبمجرد ما أغلقت الباب، قالت لجدي: «اذبح هذا الديك، اذبحه بسرعة، حتى أطبخه وننسى أمره. في هذه المدينة يُبعث بالبوليس إلى من يأوي الدواجن الحية في بيته.»

مع هذا الديك، أنهى جدي الذي كان عمره ثماني وخمسين سنة، مساره كذابح أضاحي.

لكن في البيت استمررنا نحضر هريستنا.

أتذكر فصول الصيف التي كانت تيبس حبات الفلفل تحت شمسها، الخريف حيث كانت عيناي وفمي يحترقان، بينما تهرس جدتي الفلافل في المهراس النحاسي.

وحين كانت الشرفات الأخرى تتزين بأزهار نبات الجيرانيوم، كنا نحن نكدس شرفتنا بأحواض، سطول، علب كارتون ملأى بأواني عيد الفصح، لأنه كانت لنا ثلاثة أنواع من الأواني، تلك التي تخص اللحم، وتلك الخاصة بالحليب، وتلك التي لا تمس الخبز والتي لا تستعمل إلا أسبوعا في السنة. وطيلة سنوات كنا نترك اللحم المعالج بالزيت، الكمون والفلفل الحار، والذي يسمى «القديد»، ييبس منشورا على حبال، ثم نطهوه على بخار الماء بعد ذلك.

وفي يوم ما، فهمت أخيرا أننا كنا أغرابا.

أدركت حينها أنه قُذِف بنا من بلد كما من طائرة، بدون مظلة.

ما رأته عيناي، لا أستطيع أن أستعيده. ما أحس به جلدي، لا أقدر أن أحييه ثانية.

لكن صفاقس تقترب في كل مرة أتحدث بالعربية، في كل مرة أقول «في لمان»، «تمنيك»، «مالاراحا»، في كل مرة أفارق فيها واحدا من أبنائي داعية له «ربي معاك»، وإن عطسوا، أهمس «تعيش»، وإن جرحوا، أقول «اسم الله»...

إنني من هناك، من صفاقس.

مكتوب ذلك على بطاقة هويتي.

ولدت ب...

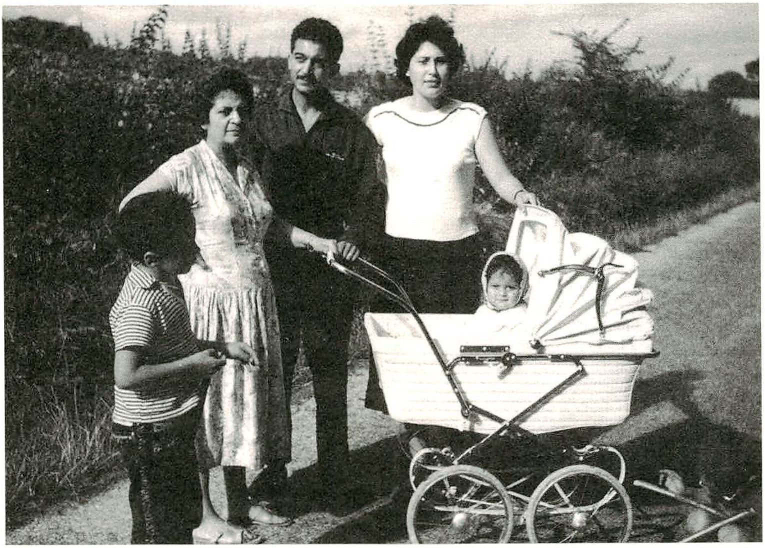

يسارا، باتريك شيملا في سنته السادسة، أثناء عطلة الصيف بمنطقة بيرجير-سو-مونميراي (شامبانيا)، برفقة والدته، أخيه الأكبر، زوجة هذا الأخير وابنهما.

بين ملذات وأوجاع

عنابة، زنقة جوزيفين

باتريك شيملا

أعرف ما كنت، بالنسبة إلى والديَّ، التمزق الكبير الذي كان بسبب المنفى. أعرف أن والدتي كادت تتجرأ على والدي الذي رفض الذهاب، مغادرة منصبه كموظف صغير. إن هذه المغادرة القسرية كانت أقرب إلى الهروب: بعد الاستقلال، وجد نفسه، بما هو «أوروبي»، معينا بشكل إعتباطي في موقع ممثل لرب العمل ولفرنسا ومن حيث هو كذلك، خاضعا لضغوطات وتهديدات لحياته ما جعله بمجرد ما وصل إلى فرنسا، يهوي في اكتئاب لم يقم منه أبدا.

كان أخي، الذي يكبرني بثماني عشرة سنة، يحكي لي عن طفولته التي تميزت بفقر عائلتنا. فقر نسبي على الرغم من كل شيء، لأن الشقة التي كنا نعيش بها كانت اشترتها جدتي بالمبلغ المالي الذي توصلت به كتعويض عن الوفاة العارضة لزوجها عامل السكك الحديدية. كانت توجد هذه الشقة على طرف ساحة دارم (*place d'Armes*)، المصطلح الذي كان يعني آنذاك الحي العربي. على الفور يبزغ هذا القرب وهذه المسافة بيننا وبين عالم حيث زقاق صغير، زقاق جوزيفين، هو الذي يفصلنا عنه، والذي يتعلق الأمر بالتحرر منه للولوج إلى المدينة الأوروبية. جزء من العائلة، بقي ناطقا باللغة العربية، استمر في العيش بهذا الحي.

كان أخي طفلا خلال الحرب العالمية الثانية، ترك فيه فقدان جنسيته الفرنسية جرحا غائرا مازال يؤلمه. امتلك قلق عارم كل أفراد العائلة. لكن بعد التحرير وإلغاء الإجراءات المعادية لليهود، أخذته الرغبة في أن يطوي هذه الصفحة السوداء وأن يعيد بناء حياة، مستقبل لا يمكنهما أن يكونا إلا جزائريين. تبزغ أيضا في حكايا أخي مظاهر حياة سعيدة وصداقات قوية مع مراهقين من أديان أخرى. بخلاف أختي التي تصغره بأربع سنوات، والتي لم تحتفظ من طفولتها السعيدة بأي ذكرى عن اتصال مع العرب، فتى مثله كان يستطيع أن يتنقل بحرية وأن يتحدى الحدود الخفية بين المنتمين لأديان مختلفة. مازال إلى الآن يفتخر بصداقاته مع عرب — لم يكن مصطلح مسلمين متداولا آنذاك — وبالأخص مع أولئك الذين سيصيرون قادة لجبهة التحرير الوطني المحلية. بعد ذهابه للدراسة في فرنسا، عاد سنة 1960 ليقضي الصيف مع الزوجة والأبناء واستقبله عند نزوله من الباخرة أفضل أصدقائه العرب. لكن في الوقت الذي كان يستعد للإقامة بجزائر كان، من غير موافقة والدينا، يساند استقلالها، اصطدم بواقع بلد طبعته الكراهية. وجد نفسه يتلقى نصائح قوية بعدم الاتصال بصديقه الناشط بجبهة التحرير الذي، هو نفسه، نصحه بالعودة إلى فرنسا، بهذه الجملة القدرية والنبوئية مع الأسف التي مفادها أنه «لم يعد مستقبل لليهود بهذا البلد»... وهكذا قرر أن يأخذني معه إلى فرنسا وأنا في سن التاسعة، تاركين وراءنا والدينا اللذين طمأنه أصدقاؤه أنهم لن يدخروا وسعا لحمايتهما.

من جهتي، عشت طفولة مطبوعة بالحرب (كنت في سنتي الثالثة حين بدأت)، لكن مشبعا بعطف الأم، عرفت مبكرا أننا يهود وأنه يجب علينا أن نحذر العرب الذين هم مع ذلك جيراننا الأقربين والذين تتبادل معهم والدتي الحلويات بمناسبة الأعياد الدينية التي تطبع بإيقاعها التقويم.

أحيانا يكون لي حظ أن أتلقى كمكافأة، الـ«كسرة» اللذيذة المطهوة على الـ«كانون» بمعرفة جارة ما. أتاني معجم استعماري بكامله مع اللغة الفرنسية التي صارت لغتي الأم، فيما يتحدث والداي فيما بينهما بالعربية حين يفضلان أن لا أفهمهما. هكذا، لم تورث العربية لي، وبما أنه لا يمكنني أن أتجول بحرية بسبب التهديد السائد، لم يكن بإمكاني أن أتعاطف مع أطفال عرب إلا بالمدرسة. لكن هذا التقارب يتوقف، كما لو كان الأمر طبيعيا، عند الخروج من المدرسة هذه، والأصدقاء الوحيدون الذين كنت أستطيع أن أدعوهم إلى البيت كانوا يهودا.

في يوم من الأيام حين أتى رفاق فصل إلى بيتنا للاحتفال بعيد الميلاد، جرحت جراء نظرتهم وتعبيراتهم التحقيرية بخصوص بيتنا.

بشكل اعتباطي، أشعر بالفقر، عجيج القطط التي تترك رائحة بول قوية على السلم، كل الأشياء التي تكون العادي عند الشعب اليهودي البسيط بالجزائر. كنت أعرف جيدا، ذلك أنني طالما سمعت والدي يجيب «لست روتشيلد» عند كل نزوة من نزواتي، وأنه هناك يهودا أغنياء لكننا لا نعاشرهم. ومع هذا كان لي دائما ذلك الإحساس — المبرر جداً — أننا فقراء وأنني أستطيع أن أحصل على كل ما أريد «بالمثابرة في المدرسة». لن نقول أبدا ما يكفي عن نزعة أمثَلة المدرسة، الاعتقاد الجنوني في التحرر بواسطة المعرفة والثقافة الذي كان سائدا داخل أوساط عدد من العائلات التي لها نفس وضعنا.

طبعا، كان هناك أيضا الشاطئ خلال الصيف، وقد حافظت على ذكرى متع البحر الدافئ. خاصة أننا نذهب كل مساء للتجوال في ممر بيرطانيا، ذلك المكان الذي كان ملتقى للعائلات. وكانت إشاعات مقنعة حول الفظاعات التي نسبت للفلاقا، تحدث ضجيجا عارما في أذني، أثناء ارتشافي لمشروب الليمون، هذا المثلج الذي لم أجد لطعمه أبدا أثرا بعد

ذلك. ملذات وأوجاع كانت تتراكب هكذا، تاركة لي أمارة لا تنمحي. ما تبقى من الوقت، كنت أجلس، بعد المدرسة، منزويا بالبيت، ما سمح لي مبكرا أن ألج خزانة أختي، فأتعرف على الميثولوجيا الإغريقية واللاتينية، لكن أيضا أن أقرأ خفية القصص البوليسية التي كانت في ملك والدي وكتبا أخرى أكثر جرأة. من ذلك الوقت لم تفارقني أبدا لذة القراءة، وحب اللغة وبدون شك أيضا حب فرنسا الجمهورية واللائيكية. عرفت مبكرا أن هناك شيئا ما غريبا فيما كان يقدم لي كبديهية: في الطريق إلى السوق، حين كنت أسأل والدتي لماذا يمشي «السكان الاصليون» الذين كنا نلقاهم حفاة القدمين. أبدا لم أستطع أن أصدق أن الأمر كان بسبب عدم تحملهم للأحذية..

أما فيما يتعلق بمسألة أن اليهود كانوا كذلك سكانا أصليين، وأن اسمنا العائلي كان موروثا عن قبيلة أمازيغية اعتنقت اليهودية، فقد احتجت زمنا طويلا لانتزاع هذه الحقيقة التاريخية المكبوتة. مع ذلك ورغم كوننا متجذرين عميقا في هذه الثقافة اليهودية العربية، فإن والديَّ رغبا أن يعترف بهما كفرنسيين وأنكرا عروبتهما. حاولا كذلك اختراع نسابة من جهة الأرستقراطية السفرديمية، كما لو أنهما أرادا بذلك إنكار أي انتماء محلي مشبوه.

كانا أيضا متدينين عميقا، لكن ممارستهما الدينية كانا يعيشانها بشكل مفارق: إذا كنا نأكل طبعا كاشير (الحلال)، فإنه كان علي أن أتذوق أكلات خفيفة بـ«الجامبون» (لحم الخنزير) بعيدا عن عيني الربي. فوالدتي، التي لم يسبق لها أن قرأت لاكان مع ذلك، كانت تعتبر أن ما يمنع يكون مرغوبا أكثر وأنها لن تستطيع حرمان أبنائها منه. كما أن الأربيان وفواكه بحر أخرى كانت تضاف إلى الأطباق اليهودية العربية اليومية. يجب القول إن مائدتنا كانت معطاءة ومفتوحة، وإن إكراهات وملذات

الكرم الشرقي كانت تشكل مبررات كافية للاحتفال. كل شيء من غير كحول، خارج مشروب اليانسون الروحي الممتد: الغريب أنه كان يحيط بالخمر طابو ارتبط بإدمان أحد الأعمام لكن ارتباطه بالقرب من الإسلام بدون شك كان أكبر. ثم إننا، في كل عام بمناسبة عيد الفصح، كنا نمارس الذبح الشعائري لكبش الأضحية. تشترك العائلتان اليهوديتان القاطنتان بالعمارة في شراء الخروف الذي يؤتى به من السطيحة مقدما كما لو كان ذلك من أجل تبنيه، إلى أن يأتي المحتوم حيث يصل الربي ذابح الأضحية الذي كان علي أن أقبل يده قبل فعل الذبح. أن أقول إن هذا المشهد طبعني سيكون ذلك تلطيفا للتعبير، لقد عشته في رهبة مقدسة فيما كان بالنسبة إلى المشاركين الأخرين عيدا فعليا. لابد أنني كنت في طريقي إلى الخروج من عالم كان سيتغير اعتباطيا مع وصولي إلى فرنسا. طبعا، لم تعد مطروحة مسألة الذبح الشعائري الدموي، وحين، بعد سنوات طويلة، قمت ببعض الأبحاث، فإن الأمر كان لتقرير الحجب الكلي من قبل اليهودية الرسمية لهذه الشعيرة التي مورست مع ذلك خلال طفولتي كلها. كما لو أن قربا بديهيا من «العيد» تأبد هكذا حتى المنفى بالمجال المسيحي، وأنه مايزال يتحتم الآن إنكار وجوده ودلالته في نسابة إبراهيمية.

أردت أن أرجع إلى «بون» التي صار اسمها عنابة وأن أباشر، أربعين عاما بعد ذلك، عودة إلى فضاءات طفولتي. صارت الشقة سكنا لخادمة والدتي القديمة. استقبلتنا بحفاوة أنا وزوجتي. سألتني عن أخبار عائلتي التي تعرف عنها أسرارا حميمية عديدة. ثم بكت موت والدتي التي كانت صديقتها وكانت تترجم لها الفرنسية. في الخلف، كنت ألمح صورة زوجها بزي محارب في جيش التحرير الجزائري. هكذا وجدت تأكيدا للحماية التي استفاد منها والداي. إلى جانب أواصر صداقة وقرب كانت قائمة رغم عنصرية المستوطنة. في الحقيقة، كنت أعرف ذلك مسبقا بما أن

والدي نجا بأعجوبة من اعتداء بالزقاق: كان قد استشعر أحدهم خلفه، وأنقذت صرخة بالعربية، أطلقها الجار بائع السمك، حياته...

أحتفظ، من هذه الطفولة اليهودية الجزائرية التي عشتها خلال الحرب، بالذكرى المؤلمة لرهبة مستمرة حيال الفظاعات التي كانت تحكى لي مع بقائها مستترة. جرح كان له شأن كبير في التزامي السياسي وفي ما قادني إلى التحليل النفسي. لكن هو أيضا مكان لرسوخ في هذه الثقافة اليهودية العربية التي تعني بالنسبة إلي ثروة حقيقية في انفتاح على عالم ما زلت أريده كوسموبوليتانيا.

أليس شرقي في سن الثالثة عند المصور بالجزائر العاصمة.

بنت الجزائر العاصمة

لا مارين، الجزائر العاصمة

أليــس شــرقـي

أن أعثر على صورة لي وأنا طفلة، عزيزتي ليلى، إن هذا لعمري إنجاز كبير. ليس فقط لأن كتبا كثيرة، أثاثا وألبومات، بما في ذلك يوميات مراهقتي، لم تتبع الانتقال المبالغ لوالدي — بعد 1962 — ولتنتهي بالاستقرار في أقبية بيت حيدرة، لكن أيضا لأنه لم يكن من المعتاد أخذ الصور - أو إذن عند المصور. هكذا نجحت في أن أجد صورة مع أخي الأكبر. أرتدي فيها واحدا من هذه الفساتين بِطَيات والتي كانت لباس طفولتي العجيب مع تسريحة على طريقة «ليلي». قصة قصيرة وشعر مسدل على الأذنين، ضدها نجحت في أن أتمرد خلال مراهقتي من أجل تحرير شعري الفاتح اللون والمموج طبيعيا.

ولدت ونشأت بالجزائر العاصمة، عاصمة الجزائر الاستعمارية، بعيدا عن جنوب البلاد وقسنطينة. عاصمة جزائر الاحتلال لكن أيضا فرنسا الحيرة بين 1942 و1945. ما يمنح هذه الطفولة لونا مختلفا عن لون طفولة أبناء عمومتي ورفاقي الذين عاشوا بالغواط، سطيف أو تلمسان. الصورة الملحة لطفولتي الأولى هي تلك المرتبطة بفيلا الجد من الأب. «الفيلا» كما سميناها، كانت في الأعالي. ليس بالأحياء الراقية لحيدرة أو للبيار الواقعة بالمدينة الأوروبية، حيث الاختلاط كان نادرا، لكن بعد باب الواد، تماما

قبالة نوتردام الإفريقية، المسماة «نوتردام إفريقيا». للوصول إليها، كان يجب السير طويلا : كانت نهاية خط الترام بساحة الساعات الثلاث، والباص الكهربائي، بمستشفى مايو. كان يجب السير أو بعبارة أدق التسلق، لأن زاوية الانحدار كانت حادة وفي مدخل الفيلا، كان الكثير من أدراج السلم المسطحة والعريضة لا يزال ينتظرنا. إلى اليسار، في منتصف الطريق، كان هناك بيت تسكنه عائلة «عربية»، مكترية، على ما أظن، عند جدي، لكنني لا أعرف عن ذلك شيئا. لم أكن أعرف كذلك هل هم قبايليون أو من الأوراس أو ببساطة من الجزائر العاصمة، حيث إنهم كانوا يسمون بدون تمييز «عربا». كنا نلقي بالتحية ونحن نمر، بالفرنسية في الغالب، أو ننطق بعبارة «السلام عليكم» في غير وضوح، ونستمر في صعود السلم المفضي إلى الباب الكبير الصدئ لفيلا الجد. كنا نزور مرارا جدينا من الأب. في كل الأعياد اليهودية وأحيانا السبت.أحيانا أيضا كنا أنا وأخي الأكبر نبقى عندهم بضعة أيام.

مهيب هو هذا الجد، بعينيه الرماديتين كالفولاذ، لحيته الصغيرة، گندورته الداخلية و«تفيليناته» (تمائم). كان يغلق على نفسه صباحا غرفة الطعام ويحدث نفسه، مخاطبا شخصا ما غير مرئي لا أعرفه. فهمت لاحقا أنه كان مستبدا حقيقيا بالنسبة إلى أبنائه. فقد أكره تقريبا كل بناته على الزواج بالأقارب، «رتب» أيضا زواج والدي ببنت رجل يهودي كذلك لكن كان مختلفا جدا عنه، بلا دين بالأحرى، إنما كان يقدره فوق كل اعتبار. كانت الفتاة حسناء، الفتى أيضا. كان هذا الزفاف المدني والديني على ما يبدو رائعا وعظيما — لم أحضره — بحمام تركي، حناء وكل تلك التقاليد، أعترف بذلك، التي نسيتها شيئا ما. كان كما عند المسلمين، مشابها ومختلفا في نفس الآن. بالحمام المسمى تركيا، كانت الحماة وأخوات الزوج يزن جسم زوجة المستقبل الشابة التي كن يجدنها نحيفة قليلا. وهذه الأخيرة، في سن

السابعة عشرة، هي التي تربت بتقاليد أقل، طالما أزعجها ذلك لكن كانت تلوذ بالصمت. هذا الزوج إنها اختارته، لم تقل «نعم» تحت الإكراه. لقد تم تقديمه إليها، فأعجبها، كان بإمكانها أن ترفض بكامل الحرية، هكذا كان يروق لها أن تقول سنوات طويلة بعد ذلك.

كان يتكلم العربية بطلاقة، هذا الجد، العبرية أيضا، التي كان يقرأها. والفرنسية، اللغة الإجرائية في التجارة والعلاقات. بهذه اللغة كان يخاطب أحفاده، لغة موشاة بألفاظ غير مفهومة — لهجة يهودية عربية بادي الأمر — تلك التي أسمعها كما لو كانت كلمات حب تغمرني. كان صعبا بالنسبة إلي أن أكون فتاة، فقد أطلق علي اسم «العنيدة»، «الفضولية» بهذه اللهجة المذكورة.

جدي من الأم كذلك كان يتقن العربية. إنه بهذه اللغة كان ذلك الرجل اللطيف، الذي عاشر عمال الموانئ، يتحدث إلى المشردين وقتها، أولئك الذين كان يهتم بهم عكس رغبة زوجته. كان والدي أيضا يتحدث بالعربية الدارجة، العربية الجزائرية. كان له زملاء، سموا «سكانا أصليين مسلمين»، تبادل معهم الاحترام بل كانوا أحيانا شركاء، بينه وبين هؤلاء الموظفين نشأ تضامن حقيقي داخل هذا الخليط الفرنسي الجزائري.

كان والدي يقول دائما إنه، خلال الحرب العالمية الثانية، أقرضه صديق وزميل له، اسم بنبرات مسلمة، اسمه ليستطيع أن يستمر في العمل تحت نير قوانين فيشي. وكان لأخي بثانوية بوجو (تسمى الآن ثانوية عبد القادر) صديق من أصل مسلم، سيصبح لاحقا طبيبا. عمتي ذات الثلاثة وتسعين عاما هي أيضا تتذكر زميلات قسمها، بنات البورجوازية الكبرى المسلمة، الحسناوات والأكثر نباهة منها. وتتذكر كذلك بشكل طبيعي جدا سوزان، بنت مهندس بحري، والتي صارت زوجة لجان عمروش. «كنا في نفس القسم، تقول، من السادسة وحتى النهائية.» ثم تتذكر الاختلافات

بين الأختين، الكبرى سوزان، المثقفة، المنحوتة جسما من كتلة، والصغرى، الطويلة والرشيقة، اللعوب بالأحرى.

ومع ذلك، فإن الأواصر تنقطع عند عتبات البيوت. هكذا كان الأمر في الاجتماعات العائلية الكبرى، لم أر أبدا أصدقاء مسلمين، حتى في المساء الذي كان يجب علينا أن نترك فيه مكانا للغريب. والصبية الوحيدة التي كانت تلج بيت العائلة، لم تكن إلا زميلة دراسة بالثانوية الصغيرة والتي كان والدها، القبايلي المسلم الأصل، معلما، ووالدتها، فرنسية، على ما كان يبدو ذات تقاليد مسيحية، لكن بلا دين مثله. من الأكيد أننا كنا بجزائرالعاصمة، التي ليست كل الجزائر. إنما حتى بأورليانسفيل، مدينة أول زلزال، بعين بسام، على وادي الشلف، كل واحد، طفلا كان أم مراهقا، لم تكن له علاقات إلا داخل جماعته المدرج تحت بند ديني : مسلم، يهودي، مسيحي وحتى عند المسيحيين أظن أن المرء يبقى بين ذويه من الكاثولكيين أو البروتيستانتيين. كنا في عوالم أو بالأحرى في دوائر غريبة بعضها عن بعض. في ساحة المدرسة الابتدائية برفقة زميلاتي — فاتحة، نجمة، خديجة — كنا نتحدث بالفرنسية ونلعب الحبل. لكن في عالمهن لم أكن أدعى أبدا. كان لغزا، لم أخترقه قط. لغز مصون. توافق مضمر. عالم مختلف شيئا ما، مع ذلك، عن عالم الزميلات الكاثوليكيات. هناك، وأنا طفلة، عرفت أنني غير مرغوب فيّ. لم تنشأ علاقات وتضامنات إلا لاحقا بالجامعة. من أولئك الذين كانوا يسمون مسيحيين تقدميين. وأيضا مع صديقات جزائريات وجدتهن يقاسمنني نفس التطلعات. لكلٍّ إلهه، حتى بالنسبة لغير الممارسين، حتى بالنسبة لغير المؤمنين. وأنا أفكر في الأمر اليوم، أقول لنفسي بخصوص الجماعة التي كنت أنتمي إليها، الجماعة الضيقة المكونة من العائلة والصداقات، لم يكن باستطاعتنا الحديث عن العنصرية. لم يسبق لي أن سمعت بفيلا الجد أو ببيتي الخاص عبارة

احتقار تجاه المسلمين. لم يكن لي، وأنا طفلة، أي حس من هذا الصنف. والدتي، عند نهاية الحرب العالمية الثانية، كانت في وقت ما مقربة من اتحاد نساء الجزائر، الذي كان تابعا للحزب الشيوعي الجزائري، في نفس الآن الذي كانت فيه متطوعة في «قطرة حليب». وبسوق الحي، بين ثانوية بوجو (ثانوية بنين، باستثناء الأقسام التحضيرية التي كانت تستقبل بضع فتيات، بمن فيهن آسيا جبار) وحمامات نيلسون المحاذية لإعدادية لازيرغ (التي صار اسمها ثانوية فرانتز فانون) وبائع المثلجات گروسولي (عجيبة من عجائب إيطاليا الخاصة)، بسوق الحي إذن، كان باعة الخضار والأسماك يعرفون ويتعرفون والدتي التي كانوا ينعتونها برقة «اليهودية ذات العينين الزرقاوين». كنت أمشي أو على الأرجح أتدحرج بجانبها، صامتة لكن تخترقني كل هذه الروائح، هذا الضجيج الآتي من الأصوات المقعقعة في رنات الفرنسية الجزائرية التي لم أكن أعرف كيف أسميها لكن التي كانت طبيعية في أذني مع ذلك. وخاصة، أنا القوية بـ«تجربتي» في الإقصاء من مدرسة التعليم الأولي التابعة للدولة الفرنسية، أنني كنت أفتح عيني بالكامل على تعقيد عالم الكبار. كوني ولدت وترعرعت داخل هذا العالم يترك هذا أثرا في حياتي الطويلة قبلا. رنات اللغة العربية، حركية التحايا بعبارة «السلام عليكم» التي لا تنتهي. المؤذن الذي كان آنئذ صوتا حقيقيا، عمقا لا يزعج أحدا. الموسيقى أيضا، العربية الأندلسية، اليهودية الأندلسية — كيف السبيل إلى المعرفة؟ — ذات الإيقاعات بزمنين أو أربعة التي تتناوب مع كونشرتوهات براهمس، سمفونيات باخ، أو حتى إيديث بياف وهي تبكي مارسيل سيردان. ثم كل كلمات الألم تلك: أين تشعر بالألم؟ في القلب؟ في الرأس؟ «وين يوجع فيك؟ راسيك؟ گلبيك؟» وكذلك الخادمة الشابة عايشة التي، خلال سنوات 1945-1950، كانت تساعد والدتي في أشغال البيت وتمنعني من تخطي عتبته عند عودتي من المدرسة

مادام زليج المدخل رطبا. كانت طويلة القامة وحسناء، لكن وبالأخص تحمل «الجنين الراقد». لم تكن لي أيامها رغم ولادة أخي الأصغر، إلا فكرة غير واضحة عن «الأشياء الجنسية»، لكن أن تحمل عايشة في أحشائها، زمنا طويلا، طفلا نائما، كان ذلك بالنسبة إلي مصدر حيرة واحترام كبير.

هل تعرفون أين تندرج النقط الأكثر بساطة للذكرى المفقودة؟ بالنسبة إلي، أعترف بذلك، إنها الفطائر المقلية — التي كانت تباع عند قدم القصبة أو حتى بشارع ميشلي، شارع ديدوش حاليا — بعجينتها التي تنتفخ، مولدة عيونا تحت نظراتنا نحن الأطفال. كانت حلواي المفضلة، بعيدا عن الحلويات المحشوة باللوز والعسل التي كانت تتفنن في صنعها أمهاتنا، اليهوديات كما المسلمات. هذه الفطائر، وجدتها ثانية سنوات طويلة فيما بعد ولفترة قصيرة بشارع سان سيفران أو ليزيكوف بباريس. مازلت أقتفي أثر هؤلاء الباعة المختفين عبثا. حتى بالجزائر العاصمة لا أثر.

الأثر الآخر، الأقل طرافة، هو هذا الوفاق الفريد، هذا التعاطف الفوري مع النساء الشابات اللائي ولدن مسلمات بالجزائر أو بفرنسا سنوات بعدي. أستشرف كلماتهن التي تحاول أن تقول طفولتهن، الصرامة الناعمة للأب، قسوة الأم التي تمنع عن نفسها أن تكون متواطئة والتي أحيانا، أحيانا فقط، تريد أن تجبر ابنتها على نفس مصيرها، والإخوة — نعم الإخوة — الذين ينتصبون حراسا للفضيلة. هذه الألفة، أليس كذلك، التي يستحيل علي أن لا أتقاسمها اليوم إن ترتبت عن تقاليد ثقافية مشتركة أو، بالأحرى، عن فسادها — لأجلي في زمن مضى، لأجلها اليوم — بسبب العالم الآخر، وعن إبحار وسط الفخاخ من عالم إلى آخر.

ميراي كوهين-مسودا الملقبة بـ«ميرا»،
بالإسكندرية في شتنبر/أيلول 1945، في سن الرابعة.

«المسلمون الزرق»
القاهرة، شارع أنتيكانا

ميراي كوهين-مسودا

في القاهرة، بمصر، في أحضان الطائفة الأقدم والأهم لليهود العرب الذين يسمون المسلمين الزرق[1]، ولدت. داخل هذه الطائفة نشأت. كانت العربية اللغة المحكية عند جدّيَّ. لغة عشتها كما لو كانت ممنوعة. خلال سنوات الأربعين، ضرب وباء حمى التيفويد إثنين من أعمامي ثم طفلة الأربع سنوات التي كنتها. مساء بعد انتهاء خدمته، كان العم فريد، أخ جدي لأمي، يمر علينا. لم يكن علينا أن نذهب إلى المستشفى. بالمستشفى لا نستطيع إلا أن نموت. بعناد، كان ينجح، بفضل معارف له بإنكلترا حيث تابع دراسته، في الحصول على البنيسيلين. انتكاسة بعد انتكاسة، لزمت فراش المرض مدة أكثر من ستة شهور. فقدت والدتي عشرة كيلو غرامات، وكان يتحتم أن يعاد تعليمي الكلام والمشي. ستقول لي فيما بعد إنني «كطفلة خرجت لتوها من المعسكرات.» بعد الموت، كان أول ظل في حياتي الهامة العرجاء للأخت روز التي كانت تربط ذراعي و، بواسطة إبرتها الغليظة، تحقنني.

---

1 - مسلمون لأنهم ينزعون أحذيتهم ويركعون خلال صلواتهم، وزرق لكون خيوط زرقاء تتخلل هدب شالاتهم الخاصة بالصلاة، «تاليثاتهم» (taleth).

ما دامت جدتي الكبرى، «ستي»[2]، على قيد الحياة، كانت كل الأعياد اليهودية تحيا بالبيت عند جدَّيَّ. كل عام، خلال عيد الفصح اليهودي[3]، كانت تحصل كل طفلة صغيرة على فستان جديد. وينظف البيت من كل جنباته. كانت تغلق الغرف الواحدة تلو الأخرى، وننتهي كلنا، الفتيات منا بالأحرى، في غرفة واحدة، عشية اليوم المنتظر. كانت التحضيرات بالمطبخ تتميز بالترف. في ذلك المساء، كانت الصلوات تستغرق وقتا طويلا. ويستولي الجوع على بطوننا، فنعرف أنه يجب علينا التسلح بالصبر. كنا نعد الجميع، نحن الطفلات، أن نكون عاقلات، لكن كان الأمر يتعلق بيوم عيد، الإثارة في أوجها. أن لا نفهم شيئا في ما كان يقرأ بشكل شعائري إلى ذلك الحد، ذاك ما كان يفقدنا بسرعة جديتنا. كانت القهقهات تملأ المكان. والنظرات السوداء للأمهات تخترقنا كالرصاص. لا أدعية الجد الذي يعتمر طربوشا، ولا الوالد بال «كيبا» على رأسه وهو يبدو مستغرقا في القراءة، كانت تفاجئنا نحن الفتيات الصغيرات. أنه، على الرغم من مظهره الجدي، فقد كان هذا الأب يتظاهر بالارتياح، ولم يكن ليحضر إلا احتراما للشكليات ولا ينتظر إلا شيئا واحدا، ليلتحق بنادي المقامرين الذي كان يرتاده كل ليلة حتى الفجر. لم يكن يفلت شيء منهن، هن اللائي، باعتبارهن فتيات، تم إبقاؤهن جاهلات بأمور الدين، هن اللائي كانت العبرية بالنسبة إليهن «عبرية» فعلا...

سأذكر دائما عيد فصح سنواتي العشر. إذ منعت من مرافقة «ستي» إلى مغارتها، التي تملك وحدها مفتاح الدخول إليها. حين كانت تسمح بمرافقتها، فإن كل من ولجت المكان كانت تخرج منه سكرانة بالمتعة. عطر التوابل، القناني بكل الألوان، أوعية مربى الورد، المشمش، البرتقال المر،

---

2 - ستي : سيدتي، بالعامية المصرية. هكذا كنا ننادي جدتنا الكبرى. لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، لكنها كانت تتقن الحساب وتعرف كيف تعتني بنا.

3 - الاحتفال بالفصح القرائي (caraïte) عبارة عن قراءة بالعبرية، في نص التوراة، لسفر الخروج من مصر.

كانت الحلويات المحضرة على مدى أيام طويلة تسكننا. في المناسبات الكبرى كانت «ستي»، سيدتي، تخرج أجمل الأواني، اللوازم الفضية، الكؤوس البلورية. لن أنسى أبدا السنة تلك، ذلك المساء من العيد. كنت أبقى وحيدة، بعيدة عن الأطفال الآخرين، في مائدة معزولة، أمام صحن ولوازم عادية، يخدمني محمد، الخدوم. أقوم ودون أن أنبس ببنت شفة، أغادر المائدة. أحبس نفسي في الغرفة التي كنت أتقاسمها مع هيلين، الطباخة. محمد، ككل الخدم، كان بالطبع رجلا ومسلما، كان جزءا من البيت، ويعرف عاداته جيدا. كان عيد الفصح الأكثر حزنا في حياتي. الله وحده يعلم كم كان الخروج من مصر بالنسبة إلي طويلا، ذلك المساء. لا واحدة من النساء، والدة، خالة، جدة، جدة كبرى، فكرت أن تنذرني بما ينتظرني. لقد نسين أن يقلن لي إن المرأة الحائض تكون «نكسة» (نجسة)، أي غير طاهرة، ويجب أن تستبعد من المجالس.

لانحداره من عائلة «قُرَّائية»*، تتكون إذن من ثمانية أطفال، جعل القدر وحب والدته له من أبي سيداً، «خواجة»، «دكتورا». قضى حوالي عشرين سنة بباريس حيث ذهب يتابع دراسته في طب الأسنان. نهاية 1938، بناء على نصائح طبيب أسنان «قرائي» روسي مطلع على أبعاد التهديدات النازية، غادر فرنسا وعاد إلى مصر. كان ذلك أيضا «للزواج بالمرأة التي كانت مهيأة له»[4]. إذا حقق أمنية الوالدة في الزواج بامرأة «قرائية»، فإنه قد رفض الانغلاق الطائفي واستقر بقلب المدينة بعمارة گروبي[5]، ساحة سليمان باشا. كان قد اختار الأماكن التي يرتادها

---

* توراتيون أصوليون يلتزمون بظاهر النص التوراتي ويرفضون ما جاء من تأويلات في التلمود (المترجم).

4 - طائفة القرائين بمصر كانت لهم روابط وثيقة بأمثالهم من جزيرة القرم، حيث يذهبون للبحث عن نساء للزواج.

5 - گروبي (Groppi)، إسم صالون الشاي الأكثر بذخا بالعاصمة والذي أسسه سويسريون لكنه تعرض للتخريب والحرق يوم 26 يناير 1952، إلى جانب عمارات ومؤسسات بورجوازية بالقاهرة.

البورجوازيون الكبار، سواء كانوا مسيحيين، يهودا، أقباطا أو مسلمين، والذين كانت لغتهم المفضلة هي الفرنسية. العربية، لغة أجداده، لغة إخوانه، هؤلاء الذين كدُّوا كي يوفروا له مصاريف الدراسة، صارت لغة الشارع، لغة الخدم. لكنه حقق مع ذلك شيئا مشرفا بإخراجه إخوته من «الحارة». الأخ الأصغر، حبيب، اعتنق الإسلام عن حب واحتفظ باسم كوهين.[6]

لم أعرف أبدا لماذا، داخل هذه الشقة المغطاة بمخمل جنوة والمؤثثة على الطريقة الفرنسية، أبعدت إلى الجانب الآخر من الباب الذي كان يفصل عالم الوالدين عن عالم الخدم. هناك كانت غرفتي، التي اقتسمتها مع «هانم»[7]. وهناك كان، كل أربعاء، يحل يوسف، المكوجي، ليقضي اليوم بكامله. كنت أشاهده يقبل ويدبر من موقد «بريموس»[8] إلى لوح الكي. بحركة دقيقة، كان يتناول من بين اللهب مكواة من الفولاذ حارقة، ويضع بها أخرى قد بردت، ثم من فمه المليء بالماء تخرج قذيفة قوية يوجهها نحو الثوب ليبلله. ما إن يتم كيها حتى توضع الشراشف، الأغطية، القمصان، على سريري بمقربة مني. يسخن الجو أكثر فأكثر حتى يصير خانقا وفرقعات موقد الگاز، مصمة للآذان. كنت أخرج.

في سنة 1948، عند تأسيس دولة إسرائيل، تلقى والدي أمرا بمغادرة مصر خلال أربع وعشرين ساعة. كان عليه أن يطلب تدخل الملك، الذي كان يقاسمه طاولة اللعب كل مساء، كي يتم إلغاؤه.

---

6 - عند طائفة القرائين، يتم توريث الدين اليهودي عن طريق الأب.

7 - هانم، امرأة بالعامية المصرية، كانت فتاة قرائية في الخامسة عشرة من عمرها حين كنت في التاسعة والتي «أوتمنت» عائلتنا عليها للعناية بالأطفال وجمع قيمة المهر ؛ كثيرات هن الفتيات اليهوديات المنحدرات من الحارات اللاتي «عهد» بهن إلى عائلات ميسورة.

8 - اسم الموقد الذي صممه وصنعه ابتداء من 1892 السويدي فرانس فيلهلم لبندكفيست.

سنة 1949، قرر أن يستصحبنا، أخي إيليا وأنا، في عطلة إلى أوروبا. كان أول سفر لنا خارج مسقط رأسنا. كان سني تسع سنوات، وأخي أربعا. كان المدعو موريس كوهين، الذي يحمل نفس اسم والدي، مشتبها به كجاسوس صهيوني موضوعا على اللائحة السوداء. بمقر الجمارك، تم تفتيشنا جميعا حتى الأجزاء الأكثر حميمية منا. في سن العاشرة، بعد محاولتين في الدروس الخصوصية، الأولى من أجل تعليم بالإنجليزية، الأخرى بالفرنسية، استدعت مديرة المدرسة والدَيَّ لتقول لهما إنها لا تستطيع شيئا لطفلة تصر أن لا تتكلم. ثم وجدت نفسي ببولاق بالثانوية الفرنسية للقاهرة، قسم الاستدراك، مع بنات مسلمات أساسا، كن أكبر مني عمرا.

أتذكر عنف الصفعة التي وجهتها لواحدة منهن والتي، للتعبير عن غيظها حيال اختلافنا وتجاهلي لكل ذلك، نعتتني بـ«اليهودية» (اليهودية القذرة). فكان أن عوقبنا نحن الاثنتان.

في موضوع الإنشاء التقليدي، حيث يجب وصف ذكرى طفولة، أثرت ذلك العام مصير دميتي الأولى. دمية من ثوب قديم، سوداء، بعينين جاحظتين، كانتا ترعباني جدا. كان يصعب علي الرمي بها من نافذة الطابق الرابع لأتخلص منها، إذ كان يوجد دائما من يعيدها إلي، فانتهيت بتمزيقها بواسطة مقص مطبخ. بفضلها وتعليم السيدة ألكود، اندمجت في السير العادي للتمدرس.

كان العالم المحيط بي مأهولا بالرجال. أحيانا، بركن ما من أركان المطبخ أو الممر، خلال ساعات الصلاة، كنت ألمح بساطا ينشر وظِلًا ما يركع. كان هناك دائما ظل يحوم بقربي حيثما وجدت.

منذ أن كنت طفلة، وبمجرد ما يمكنني ذلك، ليلا، وحين يذهب الوالدان إلى حلقة اللعب، أمسك بحقيبتي وألتحق بگاردن سيتي حيث يسكن جداي لوالدتي. أن أعبر القاهرة ماشية على قدمي، وأواجه

السيارات المجنونة في زحمة المدينة، أن أجتاز ساحة التحرير، لم يكن كل ذلك شيئا بجانب الصمت الجليدي الذي كان بهذه الشقة الباذخة التي تسكنها الظلال. كنت استُقبِلتُ بشكل طبيعي جدا، دون أدنى كلمة، في هذا المستنقع المثقل بالصمت.

كنا نقضي الصيف كلنا بالإسكندرية، بفيلا الجدين، خلال احتفالات عيد «يوم كيبور»، يبقى النساء والأطفال بالبيت في جو هادئ، مناسب للخشوع. ثم يختفي الرجال ليوم كامل. عند غروب الشمس، يتدافع الأطفال بالسطح المطل على البحر. من يستطيع أن يرى أول نجمة كانت له سعادة أن يعلن للمترقبين نهاية فترة الصوم. أواني كبيرة الحجم تحمل عصير ليمون، يحضره محمد وعبدو، كانت تنتظرنا على المائدة الرحبة بقاعة الأكل.

لم أفهم إلا وأنا راشدة لماذا كنت أرى مرارا، في طفولتي، جدي المحامي، الأستاذ خضر مسودا، منهمكا في قراءة القرآن. بالمحاكم، هو اليهودي، كان يرافع باللغة العربية حسب الشريعة الإسلامية ليدافع عن الرعايا المسلمين. رجل قانون... كان جدي أيضا رجل سلام. لا أعرف كيف أميز بين ما عشته وبين ما سمعته، مع ذلك فإن صفارات الإنذار ما زالت ترن بداخلي، تلك التي كانت تدفع بهؤلاء وأولئك إلى الأقبية، بعيدا عن القصف بالقنابل. ما زلت أشعر بحرارة الغطاء والأذرع التي كانت تضم جسمي كطفلة. أرى هامتي جدَّيَّ، وآذانهما ملتصقة بالجهاز، مستمعين لإذاعة لندن. على الرغم من كل الخصومات الأخوية المتعلقة بالتحالفات أو بالأحرى اللا تحالفات بين القرائين والربيين[9]، فإن الحرب

9 – بمصر لم يكن التمييز، في أوساط اليهود، إلا بين القرائين والربيين (Caraïtes et Rabbanites). لم أكتشف الفرق بين الأشكيناز والسفرديم إلا بأوروبا. بإسرائيل، لا يعتبر القراؤون يهوداً. وكما قال مصيبا جوزي إيزينبرغ في واحد من البرامج الأربعة التي خصصها لهم سنة 1988، إنهم «يهود اليهود».

أصلحت علاقات جدي بالربي الكبير ناحوم. أن يتم إسعاف ومساعدة يهود أوروبا[10] ذلك كان هو هدفهما الأول. من موقعه كرئيس، حرر الأستاذ خضر مسودا لمنتمين إلى طائفة الربيين شهادات انتماء إلى طائفة القرائين، شهادات مزورة لحيوات حقيقية. وإنه إليه، هو الرئيس الفعلي لطائفة القرائين بالقاهرة، التفت أعضاء الطائفة سنة 1948، زمن تأسيس دولة إسرائيل، و1952، حين احترقت القاهرة وحين أتى الكولونيل نجيب ليقول لطائفة القرائين إنهم بين ذويهم بمصر وإن عليهم أن لا يخشون شيئا[11]. لي ذكرى خاصة بيوم 26 يناير 1952. لقد تم منعنا آنذاك، أخي إيليا وأنا، من الذهاب إلى المدرسة. على مر ساعات اليوم، كانت الشوارع تَسْودُّ بالناس، ضجيج الشارع يتحول إلى هتافات حادة. كانت شعارات الكراهية تصعد إلى حيث كنا. وكانت القاهرة تحترق.

آخذت لزمن طويل على جدي قوله لطائفة القرائين، الذين ذهبوا بناء على نصيحة منه إلى إسرائيل، إنهم بوصفهم يهودا لم يعد لهم أي مستقبل بمصر. كانوا أول اليهود المطلوبين وغير المعترف بهم على أرض الاستقبال هذه. بالنسبة إلى الآخرين، الذين ذهبوا إلى فرنسا، إنجلترا، الولايات المتحدة أو كندا، واحتمالا بالنسبة إلى العديدين بإسرائيل اليوم، فإن التاريخ صَدَّقهُ.

10 - لم يستطع النازيون أن يحددوا هوية القرائين كيهود حتى 1944، ما سمح للبعض منهم أن يفلتوا من التنكيل.

11 - وردت معلومات عن أن الكولونيل عبد الناصر كانت له مرضعة قرائية.

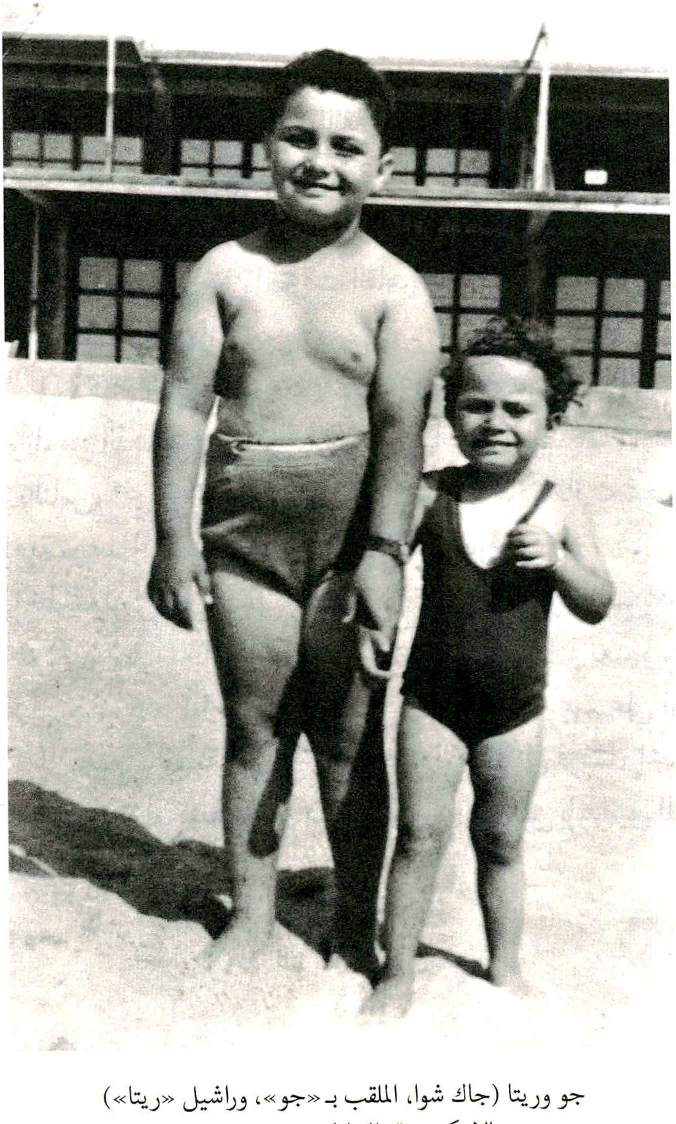

جو وريتا (جاك شوا، الملقب بـ«جو»، وراشيل «ريتا»)
بالإسكندرية، الشاطبي، صيف 1956.

جو وريتا
الإسكندرية، الشاطبي

ريتا راشيل كوهين

أن أسمع:
— ألو ريتا... ماذا تحكين من الأشياء الجميلة؟ أخي. أنت منذ وقت ليس بالطويل. على الهاتف. بالبيت، عندي. بالشارع. في كل مكان. وهيا بنا! الضحك، ضحكاتنا، كنا نقول لبعضنا البعض كلمة تثير ضحكاتنا حتى إنها لا تنقطع، أنت، الدموع تنهمر، الجو ماطر، أنا، يأخذ الصوت عيني المبللتين، وجهينا المضيئين، جسمينا المتداعيين في بهجة لقائنا، أن نكون معا، نمزح، النكتة[1]...

ضحكاتنا كانت توحدنا، كنا نحن الإثنان في الحميمية هذه، وحيدين في هذه اللحظة الدقيقة، وحيدين في العالم. ضحكاتنا كانت تجعلنا نستقل السفينة من جديد لكن...

في الاتجاه الآخر، من مارسيليا إلى الإسكندرية، من الإسكندرية إلى القاهرة، من القاهرة إلى مغاغة في مصر العليا، إلى المنصورة ربما، في كل الحدائق، على متن عوامتك ذات الدواسات أخيرا، في العربات

---

1 - النكتة على الطريقة المصرية.

المجرورة، الأراجيح الحديدية، في فسحة ببلد طفولتنا، على شاطئ البحر والأرض، الأرض-الأم، «دنيا»[2]، دنيانا، مصر.

راشيل، الإسم الذي اخترت لي يا أبي، اسم أمك.

ريتا، الإسم الذي وهبتني يا أمي.

ريتا الإفريقية، الإيطالية، الأمريكية الجنوبية، الهندية. ريتا لم تنصت إلى راشيل بمصر.

راشيل، بالعبرية، الشاة الصغيرة، راشيل المصرية لم تكن تعلم أن راشيل هي ريتا. بمصر، بفرنسا، بسويسرا، بفرنسا، هي ريتا، حتى اللحظة التي، بفرنسا، ريتا ستقرر أن تفهم راشيل، سنها الآن ستة عشر عاما.

ريتا يعني ريتا هايوورث، الأمر عادي. 1952، السينما. سينماك أمي. تلك التي صنعتها بمصر بعض الشيء، سينماك المصرية على متن مركبك، مسرحك — غمزة صغيرة لراشيل، الأخرى — بالقدر على رأسك، الفستان التقليدي، الخلخال.

أسمعك أمي :

— رررريتا، روحي، كُلي...

ريتا مع ثلاث «راءات» على الأقل.

«روحي» !

أسمع غناءك، باليونانية، بالإيطالية، بالمصرية، بالفرنسية، في مصر، لا أذكر ذلك.

وهيا ! يشرع جسمك في الحركة. رقص. رقص. شرقي.

وضحك. و...

— كُلِي !

---

2 - العالم، الكون، الحياة. مثالان : دنيا طيبة ؛ دنيا حلوة.

لم أرد أن آكل. كانت الأواني على الشاطئ بالإسكندرية. أنا كنت بالشاطبي[3]. كان هذا «شاطئي». كنت أريد أن أكون داخل الماء، هذا كل شيء.

• عدت إلى الشاطئ سنة 1993. دون أواني.

الآن لم يعد هناك شاطبي. لكن ما زالت الصورة. جو وريتا. وإن الدموع، الضحكات بالتحديد هي التي صنعت حياتنا، التي كانت حمامات طفولتنا الطقوسية. في «اللغة/اللغات»، لغة/لغات متعددة/متعددات. بالفرنسية، أفهمها على الطريقة المصرية، اللهجة المصرية. المقطوعة الموسيقية، أكتبها فرنسية.

— إنه شيء رائع!

من فمك، أخي، أسمع «رائع»، أي: «إفتح يا سمسم.»

إنني أراك. لك العينان البراقتان التي للطفل الصغير الذي يندهش، مأخوذا بحب الاستطلاع، لكل شيء، للاشيء مهما كان تافها. العينان البراقتان. المصريتان. اللتان تشبهان العينين البراقتين. الهنديتين.

وفي الجملة نفسها، هناك ذلك الـ«رائع» وذلك الـ«الكارثي». يهود مصر يتحدثون هكذا بالفرنسية: «رائع. كارثة.»

أخي، بفرنسا، مرارا، كنت أسمعك تقول: «يا للكارثة!» لماذا؟ بسبب المغادرة؟ أو أننا أكرهنا على الذهاب؟

أنا، منذ أن عدت إلى البلد، انبعثت طفولتي. انفتح غطاء إبريق الشاي. مصباح علاء الدين[4].

---

3 – أحد أحياء الإسكندرية على شاطئ البحر.

4 – حركة مد على «دين»، لهذا السبب وضعت حرف e في آخر الكلمة بالفرنسية ؛ إذن «علاء الدين» وليس «*Aladim*» (ألادان)، كما في الفرنسية.

الضوء يا أخي. الروائح. الفول[5]. تلك الحبات التي نأكلها بالخبز. في الشارع، أكلة الفقير، الطبق المقدس بالقاهرة، المطبوخ في أواني من حديد. «الباميا»، بالمنصورة، المدينة التي رأيت النور بها يا أبي.

زهرة البرتقال، الكنكة[6]، آلة تحضير القهوة التركية بحب الهيل الأخضر وزهر البرتقال. على الطريقة المصرية. «البخور»[7]، اللبناني، المصري، الذي كنت تحرقينه بـ«الكانون»[8] الصغير، المبخرة الطينية الصغيرة، كنت تمرين بكل الغرف محركة دوائر الدخان المعطرة فوق رؤوسنا، مع همهمات : «ههمم... فليتطهر المكان»، «ههمم... فليتعطر»، «ههمم... فلنوهب الحماية»، «ههمم... فلنوهب الحماية من العين السيئة». العين السيئة باستطاعتها أن تكون في كل مكان. إنه بمغادرتي، بعودتي وجدت من جديد، وبطريقة أخرى، خلفية البلد الذي رأيت النور به. بلد طفولتي، طفولة بلدي الذي ألف مقطوعة موسيقى لغتي الأم، المصرية، التي ترقصني، تجعلني أحلم، تفتح قلبي، تبهجني، تحركني، بربع المسافة المتميز والخاص بالموسيقى الشرقية سنقول.

مقطوعتي قصيرة لكنها مكثفة. إنها تكتب بنوطات قليلة، تخرج الكلمات من فمي كما كانت تفعل حين كنت في الرابعة تارة جيدة وأخرى غريبة، الجمل الموسيقية لا تكتب داخل رأسي، الكلمة تؤلف كل الموسيقى.

ثم إنه بمصر سمعت أذناي موسيقى اللغة الفرنسية المحكية، المنطوقة بتلك الطريقة في الإلقاء الخاصة بالمصريين وهم يتكلمون الفرنسية بشيء

5 - بمصر، في الشارع، يؤكل الفول مع الخبز الشرقي المسمى «الشامي»، خبز سوري شبيه بال «بيتا» الإغريقي.

6 - آنية تحضير القهوة وتكون إما من نحاس أو حديد أبيض.

7 - بخور على شكل صمغ.

8 - مبخرة جوفاء يوضع فيها الفحم المشتعل ويحرق فيها الصمغ.

من التشويق، شيئا ما كربع المسافة أكثر أو أقل والذي يهب شيئا من الحرية، من الفانطازيا، من الانفتاح، وهذه الطريقة التي يتميز بها يهود مصر الذين يلوون «الراءات» (حرف الراء) كما كان يُشَم الهواء على كورنيش الإسكندرية، وهؤلاء الذين يلوونها اليوم لكن لم يعد هناك كورنيش.

والكلمات الشعائرية يا أبي بالعبرية في الأعياد، الصلاة. «هاكَ سميح» (الكلمة بالعبرية، عيد سعيد)، فليكن العيد بهجة دون تنقيط آخر لا نقطة ولا تعجب.

إن سفري في ذاكرة الطفولة اليهودية هذه بمصر لهي من صميم الذاكرة.

كان والداي يتحدثان باللغة المحكية المصرية، بالفرنسية و — أو على الخصوص — لغة أخرى، المصرية، المشوبة بكلمات، بأسماء فرنسية، بتعابير كـ «إنها الساعة الخامسة والنصف وخمسة». كان والداي يحبان لقاء العائلة، المعارف، الجيران أحيانا، لتبادل الحديث في فرح، في حزن، بالمصرية وباللغة الأخرى. أما والدي فكان يقرأ بالعبرية في الأعياد. وأما أخي فكان يحكي لي قصصا بلغة أخرى. حين كان والدي يستقبل أحدا ما بالبيت، كانت النكت، الشعر العامي بالمصرية، الرقة باللغة الفرنسية، ما تحت اللغات على شكل لجينة وفي جرعة صغيرة بالآرامية مع قشرة لبنانية-سورية، كلمة تركية. وبالهاتف، مع زملائه بالمكتب، كان يتحدث أحيانا بالإنجليزية.

استمعت إلى أغاني، صوت والدتي بالمصرية، بالإيطالية، اليونانية، مع شيء من الأرمينية. سجلت صوت والدتي وهي تغني بالمصرية، بالإيطالية وبنية هذه اللغات تحرك نفسي. بالنسبة إلى اليونانية، فإنني أحتفظ في ذاكرتي لها بخاصية تعدد الأصوات، الموسيقى. أما مصر العليا، فإن أذنيَّ سمعتا من هذه المنطقة لغجر النيل، هؤلاء النسوة اللائي يغنين

بصوت حاد كما في الهند، كما في كورسيكا، مغلقات آذانهن اليسرى بأيديهن اليسرى ليبقين فقط على صوت الأذن اليمنى وحده، أي صوتهن الخاص، راسمات بأيديهن اليمنى حركة الصوت، رافعات له من السرة حتى الصدر وأكثر. ولي بمصر، بفرنسا كذلك، غائبة قديمة، مزدوجة، منطمرة تحت الضفاف، والتي هي ربما حافة النقيشة، الإسبانية، وانعكاس النقيشة، البرتغالية.

أنا، لا أسمع نفسي، لا أسمع رنة صوتي، لا بالمصرية، لا بالفرنسية، ولا بلغة أخرى. وعلى الرغم من ذلك فإنني أعرف أنه بمصر، سبق للصبية التي كنتها أن تحدثت المصرية. حملت في جعبتي بضع كلمات وحركة اللسان. وقد تحدثت بالفرنسية لأنني حين وصلت إلى مارسيليا في الثاني والعشرين من دجنبر 1956، لم تكن اللغة الفرنسية بالنسبة إلي شيئا أجهله. كنت أتحدثها. بمصر، كانت اللغتان تسافران معا. واللغة الأخرى، كانت هي الراهن آنذاك. المصرية كانت للقول، للحكي، للرضى أو عدمه، للحلم، للحديث في الموسيقى، للقاء، لمشاهدة الرسوم المتحركة، للشعر، لمتعة الحواس، للرقص، للغناء، للعب، للإبداع. «قمر الدين»[9]. الرقة السورية. عجين المشمش. لا، ورقة عجين المشمش التي كان «سيدي أفندي»[10] يلفها، أقول بالتأكيد — إنها الصبية ذات الأربع سنوات التي تقول ذلك — إنه كان يلفها دائما مشفوعة بابتسامة تجعل أسنانه كقطعة جبص بفمه ومع تلك الطريقة الأنيقة في القول والتي أعيد اختراعها اليوم: «لتكن حياتك دائما كبساط المشمش[11]» هذا، أي أن لا تكف عن الانبساط أبدا، أن تكون بطعم السكر ذي اللون البرتقالي

9 - «قمر الدين»، ورقة من عجين المشمش من أصل سوري.

10 - أفندي هو صفة تشريفية من أصل تركي لا تناسب تاجرا، لكنها كذلك في عيني الصبية الصغيرة التي تتحدث.

11 - مشمش، الفاكهة المعروفة.

كالفاكهة، كالزهرة، أن تكون لها رائحة المشمش الزكية...» وأما أنا فكنت أقرأ بالبيت كتاب «المشمش» حين كانت والدتي تبسط الورقة وكان بالمستطاع تمزيق طرف صفحة. كان ذلك «كتاب المشمش».

بمجرد ما كنت أسمع «مشمش» يندلق لساني حتى الأرض، يسيل ريقي من الفرح، أكون لحظتها في حالة استثارة، أحكي لنفسي كل قصص العالم، أقرأ الكتاب المفتوح لقصة كتاب عجين «المشمش». وكان ذلك هو «الكتاب». «الكتاب المقدس» لأنه كان بمقدوري أن آخذ قطعة، فآكلها، وأتذوق طعمها، ثم أقص على نفسي كل الحكايا. وبعد ذلك كانت هناك الورقة الأخرى من كتاب «المشمش»، كاملة، فأقول لنفسي إن «كتاب المشمش» ما زال موجودا، وإنني أستطيع أن أنظر فيه، أتحسسه، أتناول منه قطعة فآكلها. كنت آكل «كتاب المشمش»، كنت آكل «كتابة المشمش» التي غذتني طعما وكلمات.

وأصبح بمقدوري أن أحكي كل القصص التي لكل حبات المشمش.

«قمر الدين»، الذي أجده اليوم من جديد في لفائف صغيرة في فترة رمضان[12]، بخان الخليلي[13] في القاهرة، كان فيما يخصني، في فترة رأس السنة (روش ها شانا)[14]، بمغاغة، بالقاهرة، بالإسكندرية.

إذن، من يريد أن يأخذ مني قصة «كتاب المشمش» لم يولد بعد. لا أحد يجرؤ حتى يستطيع أن ينتزع مني قصة «كتاب المشمش». لأنه «بكرة في المشمش»، ما يعني: أبدا !

---

12 – تناول «قمر الدين» في وجبة إفطار رمضان هي عادة عند المسلمين ؛ بالبيت، كنا نأكل منها أساسا في عيد رأس السنة اليهودية.

13 – سوق شهير بالقاهرة.

14 – السنة الجديدة اليهودية.

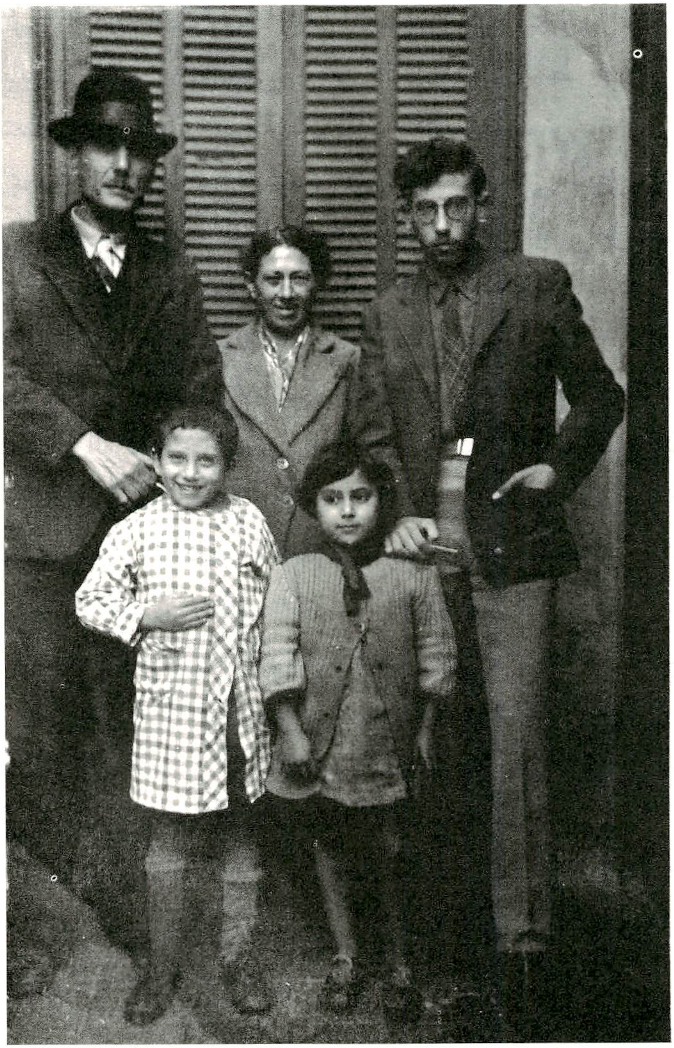

العائلة دادون حوالي 1943.
من اليسار إلى اليمين، في الأعلى : الأب، يهودا، الأم، كميليا، وروجي،
ثم في الأسفل: الأخ الأصغر، جورج، والأخت الصغرى، أندري.

قاديش من أجل طفولة فقيرة

وهران، شارع فيينا

روجي دادون

يمينا، يسارا؟ انبعاثات بحر، غربي، أو نسمة أرض جدباء، عربية سيدة صحراء؟ من جهة الفناء، باب الجحيم المغلق، أو من جهة الحديقة، المسماة عدن؟ النزول، الصعود؟ عبور البوابة العليا للبيت الأدنى مع «باحة» ليست إلا فناء بؤس صغير، الطفل، المتروك لنفسه، يتردد. تذبذب ضئيل وساكن - «أين المفر؟». هل هنا، في هذا التشويق، في هذه البرهة، يقيم، بما هو تجذر البدء الطفولي، محور — نقطة عمياء — المدينة كلها، «وهران»؟ هذا، ببساطة لأن الشارع حيث سيغامر الطفل والذي سيتشربه ويتوجس منه وينتشي — أنت أيها «البوراتشو!» (السكير) — هو شارع عادي بزاوية ميل بالكاد نستشعرها، لكنها تكفي لتتدحرج بها الكرات والكلل التي تضل طريقها مرارا فتسرع إلى حتفها، مدفوعة بالميل، نحو أفواه المجاري، شارع يفضي إلى «الكاريكوس»، تلك الألواح العريضة المثبتة من نهاياتها على قضيبين من خشب مجهزين بمدارج كريات، هكذا يكون شرف الهبوط حتى محطة عربات الأجرة المصطفة في الأسفل على امتداد «الساحة الصغيرة» - لو لم تتم مصادرة المركبات الهشة والجريئة التي كانت تجوب الطريق الحجرية من طرف التجار الغاضبين والآباء القلقين.

كل شيء إذن هنا في الأعلى هو مسألة جزء من الثانية - رنات طفولية لا نهائية تتقاطع في المكان. في هذه النقطة الوسطى للمكان والزمان، مركز العالم، تُعرِّف نفسها، ترابطيا، على شكل موجات متراكزة: بوابة، شارع، فسيفساء، أحياء، مدينة أخطبوطية، محيط قريب وأرض متعالية - ألق مزدوج لا محدود. فيما هو يستعد لتملكها، لامتصاصها، ذابت المدينة عليه، هي في رأسه - هذه الرأس الثقيلة والمستخفة والملأى بالاتجاهات المسهمة. وهران هي قرص دوار، لوحة تكتونية مثيرة للمشاعر بشذراتها المتزحزحة الراقصة المتصادمة حوله في اهتزاز معقود بالقلق، المكسو بالرقة - مربكة كل جزء فيها، رغم كونه مألوفا، يختزن لغزا، ينطبع في الروح كانعكاس أغبش. عجيج الأشياء، نقش الكينونة-هنا، هذه الوهران، بهذه «الوَ» التي تشبه النباح، إنها الـ«أور» وهي ما تزال كلدانية مغطاة بالرسابة، إنها الـ«مدينة الرومانية» (*Urbs*) الخارجة عن المدار، المقطعة، المتعددة، المتمايلة بسبب انحراف (*clinamen*) لطيف فقط. كل ما يحدث هناك يُجمع ويُسمع نشيده ويجذِّف، هنا والآن (*hic et nunc*)، سيقول المتضلع من فرنسي الجزائر على طريقته، في هذه الرأس غير الناضجة - كل ذلك، مرفوعا إلى درجة المعجزة، قلت، بفعل «البركة» وحدها، بقوة الميلان الذي اقترفه تدمير مدني، عديم الإحساس، للمستوى، والذي يُعَلِّي كَسَهم خالد شريانا ميركانتيليا حقيرا («أنسجة محلية»، «سلع استعمارية»)، يهدهد، في لحظة التلاشي الخالصة هذه التي تستحوذ على روح طفل، ويا له من تمايل هش، نحو «شوية» على اليمين، «شوية» على اليسار، محاولا في الآن تصور نفسه محورا للعالم (*axis mundi*).

هبوط، أم، بحر...

كما لو أن صدى «*Chema Israël*» (اسمعي إسرائيل) المتلو على ضوء الفجر تحت الميزوزا يستمر في الدوي بداخله، نداء مزدوج، ثنائي

مبارزة، على الصبي ينقض، ينفخه: ضربة دفاعية صاعدة (أبوية)، ضربة نازلة (أمومية). هبوط: إنها تأتي من الأم، هي من أجل الأم، تغوص في «الأحياء السفلى»، تنفتح على البحر، كلها إيثار - على اليمين، أيها الصغير. الصعود، إنه قضية الأب، من أجل الأب، إنه يرتقي، يلج القرية الزنجية، يمشي ضالا على حقل المناورة والمقبرة اليهودية - إلى اليسار بكل قوة، أيها الصبي. في نقطة القسمة الدقيقة هذه، الخاصة بالطرق، هناك نوع من التباين الكبير، *«urbi et orbi»* (في كل مكان)، يشق النظرة الطفولية: كل أعراق الأرض، كل قطع المركبة تندفع نحوه وتقيس نفسها عليه - ذاك الموعد السحيق. حين لا يرافق الوالدة يوم الجمعة ما قبل الشباطي التقليدي والمضطرب والذي يفترض سلة ملأى، يطير الطفل بجناحيه الخاصين، يتطاير هناك وهناك. ينزل في شارع فيينا على يمينه، يمر سريعا أمام الشارع العريض المسمى «ماجنتا» (عند النظر من أعلى إلى أسفل: الكنيس الكبير، المحطة الطرقية، بيت المعمر)، ليأخذ في الحال على اليسار، الزقاق المبلط القصير، المظلم والسوريالي تقريبا الذي يفضي إلى شارع الثورة (*la Révolution*) المزدحم، الموازي للشريان الكبر الآخر، شارع أوستيرليتز (*Austerlitz*)، «زقاق اليهود» النادر الشمس. ها هو على نفس مستوى الحي اليهودي، الذي لا يشبه الملاح أو الگيطو، والذي يطلق عليه بعضهم، بلكنة يهودية-عربية اسم «رابوليون»، تحريفا لـ«نابوليون»، في تكريم لنابوليون الثالث، الذي تفضل فوضع قدمه الإمبراطورية به خلال مرور سنة 1865 - في طريقه إلى المسرح المجاور لمشاهدة مسرحية باللغة الإسبانية، كانت له منة التصفيق عليها.

هل أراح جو الحي، بروعته الـ«متعددة الثقافات»، الإمبراطور ذا اللحية القصيرة في سياسته الليبرالية، المؤسسة على مبدأ «مساواة كاملة بين السكان الأصليين والأوروبيين» - والتي تمت تصفيتها تدريجيا ثم

إبادتها من قبل المعمرين والعسكريين؟ «رابوليون»، عند الطفل، إنه هذا الزاحف اللانهائي، المتموج والمرقش بحراشفه المأكولات والذي يخترق الحي ذا المساكن البئيسة في الغالب (الغوربي، تقول الوالدة)، المواتي للحركات الدائرية الباروكية التي تجعله يزحف في منعرجات عبر الأكياس وصناديق الفاكهة، الخضار والتوابل، على إيقاع الصرخات، النداءات المغرية بالشراء وتحذيرات الباعة اليهود، العرب والإسبان وهم يمدحون في فرنسية متبلة بلغاتهم المتقاطعة، أو العكس، ما يعرضونه من بضاعة غذائية. أوديسا ذات رأس صغير على طريقة جويس، «گانا» رقيقة (الحظ، بالإسبانية، الذي هو ضد الكلمة العربية «كرز»، *guigne* - قطبا الحياة، بالنسبة إلى الطفل: التمتع بـ«الگانا»، أو الكرز؟) لـ«الأخدود» الذي يتجمل، في الأسفل، بالأنفاس البحرية المنعشة لسوق السمك، حيث يتأمل الطفل، مسحورا، الصيادين الإسبان أو العرب، وهم يمسمسون بيد حميمة ورشيقة الحصص الدبقة للأسماك المكدسة في صناديق وسلال.

بعد اجتياز المسمكة، وهران الصفيحة التكتونية تميل بغتة جهة الميناء والبحر الذي يفضي رأسا إلى حوض ما حيث تنتظرهم «ضربة حمام» في ماء مشوب بزيت المحركات المستعمل ومفروش بصفائح المازوت، فإن الطفل يصادف في طريقه حتما طواف عمال المرسى العرب المنهكين والمعفرين بالأغبرة التي يبعث بها من العالم بأسره ريح الأعالي، والذين يصعدون ببطء نحو أكواخهم المبعثرة أو بيوتهم التي تستقر بالقرية الزنجية.

صعود، أب، أراضٍ

صعود نحو القرية الزنجية - تغيير الوجهة والديكور. تيكتونيكا المدينة: انقلاب بطيء باتجاه الأعلى. تتوارى هكذا الآن، محولة المجرى، ما

وراء مكسر الأمواج، ما وراء الـ «فارو» (*pharo*)، في انحراف الأرخبيل المتمايل عن الميناء، الأحلام الصيادة بالشباك، الأحلام السفن البخارية للطفل. أروقة تبشر بالحي العربي: باعة البطيخ الأصفر والأحمر نصبوا خيامهم المكعبة الحبلى بالأشكال الكروية، والتي أمامها سيتوقف الأب العائد ليزن، يلمس، يشم ما سيكون فخر الوجبة. يصعد شارع جوزيف — أندريوه الذي تؤثثه من كل جانب التكنتان الكبريان حيث يتدرب وينفخ في البوق «القناصة» — السينغاليون ربما. متسولون، أغلبهم كفيفون، جالسون جلسة الخياط مستندين إلى جدران الحصن، يمدون إلى مارة قليلين علب مصبرات فارغة، مرددين نفس اللازمة الوخازة بالعربية، والتي يحملها معه الطفل، المأخوذ بالإيقاع والقافية («آولدي/آالواليد»)، حتى «المتجر» الأبوي، عند زاوية شارع تاگدمبت (*Tagdempt*) - مقطعان حربيان يرنان بفخامة الأمير عبد القادر الذي جعل من مدينة الغرب الجزائري هذه عاصمة له، رنات قوية تطمئن الطفل حين يصادف، وهو يمر على صالونه، ذلك الكوخ البئيس، النظرة الثاقبة للحلاق العربي المريب ذي اللحية الصغيرة الذي يزرع المحاجم في قفا زبنائه ليمتص دمهم ويخفف ألمهم.

على دكانه المتواضع يسود الأب: واحة، جزيرة كنز، مغارة للاكتشاف، سعادة اللعب، طفو اليوتوبيا، الجو يفوح جلدا، زفتا، غراء. حيث يتقدم الطفل، الأصغر المنتصر. حين يصل زبون عربي، مقدما التحية للأب بتلك العبارة الرنانة «السلام عليكم»، ينتاب الطفل شعور أن البرنس الهائل يبتلع الفضاء بكامله - سرعان ما يتكوم على كرسي صغير. يضع الرجل حذاءه، المتهالك حتى الأربطة. يقدر الأب، بنظرة سريعة، قياس الزائر الغريب؛ يخرج من الدولاب الكبير الزجاجي أزواج أحذية رائعة بإمكانها أن تثير حسد صناع الأحذية الإيطاليين بشارع الكورسو

(*Via del Corso*). تجريب حذر: تتوالى الأحذية المعروضة، الأب يراقب ويكتشف الطابع الدقيق الذي يوافق مزاج المشتري. يحاجج: صلابة نعل لا تبلى، مرونة وجه الحذاء غاية في النعومة، ويعرض كمسك ختام، في نور النهار القوي، الصنيع الذي أنجبته يداه الخبيرتان الشريفتان - تحفة بلا مثيل.

عملية البيع تتقدم، دون أن تعرف النتيجة مسبقا، مشفوعة بالشاي المنعنع وآيات من القرآن مقروءة في عربية مرتلة. اسم الله ينتقل كالمكوك بين المتعاملين - الواحد لتخفيض السعر، الآخر لتبريره. حين يطول النقاش، يخرج الطفل ليبتاع حصة من «الشامية»، حلوى بالسميد مسقية بالعسل، كان يسيل لعابه للذتها. يتجول عبر الحي العربي - خليط هدوء ومجهول، عالم أليف ومختلف في نفس الآن: إيقاع آخر، أكثر بطئا وصمتا؛ أشكال أخرى تعبر الفضاء، برانس جلابات، حياك، سراويل، أجواخ رحبة بلون أبيض لا شائبة فيه، أثواب ببريق حريري ولبدي مرقش، وجوه محجبة ورؤوس معممة؛ استماعات أخرى (عربية، قبايلية، مرصعة بعبارات شعبية بالفرنسية، موسيقى شرقية، يهودية-عربية، تشوبها لازمات أغان فرنسية أو إسبانية من الموضة)؛ طرق نظر أخرى (مضيافة أو معادية، مرتابة أو صديقة، ملحة أو هاربة، متجاهلة أو مهتمة).

عالم ذو غرابة مقلقة (*unheimlich*)، والذي لا يتركك، في الحركة نفسها، تكون «خادما» أليفا (*heimlich*)، مع الزيارات اليومية للعرب إلى البيت العائلي: بائع أواني مطبخ يأتي لمبادلة بضاعته مقابل ألبسة مستعملة؛ باعة ماء عذب، بيض، عسل، دجاج؛ مكلف بالمبخرة، مارا كهبة ريح لتعطير الغرف؛ و«عربي الشباط» المنادى عليه لـ «إيقاد النار» (حرام شباطي) الضرورية لقهوة الصباح؛ وكل شغيلة الحمام العائلية العربية، والتي تتكلف بالطهي المثالي للخبز والحلوى و«دفينة»

السبت - دون حتى أن نحسب صانع الحروز (*khliyez*) وصارع الجن الذي يأتي إلى البيت ليقوم بالمطلوب.

في أقصى الحي العربي، الذي يتسع ويتبعثر، هدوء تام. تنفتح المدينة، في الأسفل، على أفق بحري بلا حدود - إنها تنتهي هناك، إلى الأعلى، كما في التماثل، في نوع من الهضبة الشاسعة الخالية أكثر الأوقات: أرض خلاء لميدان العمليات، مقبرة يهودية. قريبته زاري حارستها. مغلقة يوم السبت، راحة شباطية. إنه يوم استقبال: يذهب الطفل إليها، على عربة مجرورة، برفقة أمه. شاي، «طورنوس» (حلوى القالب المستديرة)، فونوغراف (الشباب) وأحاديث لاتنتهي (الأمهات). الذهاب إلى حيث «الحشر» (*schéol*)، الوافر، الثابت والحجري للقبور، إنه يتأمل المقبرة التي تمتد هناك بعيدا، كما لو كانت قفلا هائلا يغلق المدينة بكاملها. بالنسبة إليه، «وهران» تنتهي هنا. ما وراءها: المجهول، العدم. رقعة البلاطات اللانهائية الموضوعة للأبد ترتد نحو الأزرق اللازوردي الصافي لإيقاعات «الباصو دوبلي» (*Paso Doble*) والطانغو (*Tango*).

آني دايان روزنمان في سنتها التاسعة عند المصور (استوديو مارتي) بالدار البيضاء.

بقع ذاكرة

الدار البيضاء، شارع أنفا

أني دايان روزنمان

الطفولة بالدار البيضاء فيلم بالألوان الطبيعية. إنها إنتاج مشترك بألوان تيكنيكولور وبصوت مجسم، مع الكثير من المشخصين. كل شيء فيها ملون، مموسق. كل شيء فيها مزدوج، منقسم إلى شطرين، متعدد، متصدع، الفضاءات، الأعياد، الأسماء الشخصية، اللغات وحتى الأحلام.

هناك عالم الوالدين.

إنه عالم الخارج. نهبهم اليد، ثم نعود مشيا على الأقدام عبر الشوارع الكبرى على إيقاع الدخيل الذي يخترق المدينة. نسمع فحيح السعفات عند مهب الريح، وحين نرفع الرأس، نرى رأسه المجرد من الشعر يتمايل. نتجول في شارع بليز باسكال، يوم السبت بعد الظهر، حين تحج العائلات اليهودية في هدوء إلى متاجر الموضة وحين تقف لتقدم إلى بعضها البعض من حصل على الباكلوريا من أبنائها ومن ينتظر الزواج من بناتها. شتاء، نذهب على متن السيارة لتناول قهوة على الكورنيش ولتأمل البحر، في انتظار الصيف. صيفا، نقضي نهارات طويلة بمدينة فضالة على الشاطئ، ولا نعود إلا عند حلول الليل، منتشين بالشمس وجلدنا محترق بالملح.

يوم السبت مساء، وبشكل طقوسي، تذهب العائلة جماعة إلى السينما. حين نكون صعدنا أو نزلنا في سلم المعبد الكبير، حين تتباعد الستائر

المخملية الحمراء ذات الأهداب الذهبية ببطء، يزأر أسد الميترو گولدوين ماير، ثم يعيد الكرة مرة تلو الأخرى، كي يلقي علينا التحية، لأنه يتعرف علينا، هو كذلك.

الزمن له إيقاع الأعياد العائلية. لزواج ما هناك دائما تقريبا عيدان. في أول أمسية، ترتدي العروس كسوة مخملية، مطرزة بالذهب، بأكام من الموسلين (الثوب الموصلي)، إنها «الكسوة الكبيرة» التي تملكها، كما يقال لنا، العائلة بكاملها، والتي أتت من إسبانيا، والتي سنرتديها أيضا، بنات أعمامي وأنا، بعد حين. يضع النسوة الحناء على راحة أيديهن وهن يغنين، فيما يرافق طقوسهن موسيقيون يعزفون على إيقاع أندلسي. لهن أصوات جشاء لا نكاد نتعرف عليها.

في كنيس الجزائريين، هناك أراغن (ج. أرغن) كما في الكنائس. المحافظ، الذي هو كذلك حارس وسيد حفل، يضع قبعة ثلاثية القرون على رأسه، وبذلة تزينها سلاسل ذهبية، ويمشي الأطفال أسرابا من خلفه وهم يتصايحون: « نابليون». حين يبارك العرس، تسمع زغاريد لكنها خجولة، ثم تخر أم العروس باكية من التأثر ورأسها مغطى بقبعة شمسية من ثوب الأورگانزا. وتلبس الفتيات الصغيرات أحذية بيضاء مبرنقة بأزرار من قشر صدف اللؤلؤ وتنانير بصفيحات ترفع على شكل تويجات أزهار فساتينهن المطرزة على النمط الإنجليزي. أبناء عمومتهن يضعون هم الآخرون بذل بطاريق صغارا.

بعد ذلك، ترقص العروس مع والدها، فيما يعزف موسيقيون بسترات حمراء أنغام طانغو وباصو دوبلي. حولهم، يرقص أزواج العائلة على الإيقاع. يجد الأطفال المشهد مثيرا. يحاصرون حلبة الرقص، يطاردون بعضهم البعض متصايحين بأصوات حادة، ينسلون بين الأزواج وحتى الموائد المليئة بأصناف الأطباق فيندسون تحتها. تقتنصهم نساء مسنات

في سباقهم فيلصقنهم بهن، الوقت الكافي كي يباركنهم، بالعبرية، بالعربية او الإسبانية، والتنبؤ لهم بزواج لا يقل جمالا عن الذي يحضرونه. إنهن قريبات متقدمات في السن، يجب تسميتهن كلهن «سينيورات».

إذا لم تكن المناسبة زواجا، فقد تكون «بار ميتزفا». عندنا، لا نقول «بار ميتزفا» إنما نقول «اتحاد في الإيمان»، وحتى «أول اتحاد في الإيمان». نفس الموسيقيين، نفس الراقصين، المباركات، الدموع الرقيقة.

بالبيت، هناك عالم الجدة، عالم مغلق، حدوده جدران الفيلا. إيقاعه الأعياد اليهودية التي تأتي دورتها لا كي تنافس التقويم الآخر، لكن لمضاعفته ولمزاوجته. هذا الزمن الذي تتولى أمره وتحرسه، يحترمه أبناؤها وأحفادها، واضعة إياه في توافق مع ما تسميه «زمن الفرنسيين».

في نويل، يكون لنا الحق في الهدايا وأخذ صورة مع شيخ ذي لحية من قطن. لنا أحلام ثلجية، ثلج لم يره أي واحد منا أبدا، وكأنه يتساقط بندف كبيرة، كا في السينما. لكن في نفس الوقت تقريبا، بالبيت، «هانوكا»، عيد الأنوار الحركي، يجمعنا عند هبوط الليل، حول نشيد يستعاد المساء تلو المساء وأمام المصباح الذي هيأت له الجدة فتائل طويلة مغموسة في الزيت. وتقريبا في نفس الوقت الذي يحتفل فيه بالكرنفال، حيث نحصل على أقنعة وتنانير داخلية صغيرة من متجر لألبسة التسلية في ملك إيطالي خلف ساحة فرنسا، كان عيد «بوريم» الذي يجمع كل أحفادها وحفيداتها حول مائدة أطفال هائلة. كانت تصنع للمناسبة خبزا عجيبا على شكل وجه، بعينين مستديرتين وبيضاوين، بيضتين محبوستين داخل صلبان صغيرة من العجين، كانتا تنظران إلينا بعيون فارغة ومرعبة. هاتان العينان، كانت تقول لنا، هما عينا «همان». وللتحلية، كانت تقدم لنا أذنا «همان»، حلويات على شكل أزهار مغموسة في العسل. قبل هذا العشاء، حيث نتناول «لحم البشر»، كانت تحكي لنا عن جمال

«إستير»، شجاعة «موردخاي» وخبث «همان» الذي كان يريد أن يستأصل الشعب اليهودي كله. كان الأطفال يتأثرون بهذه الحكايات أكثر من الصلوات المبهمة التي كانت تؤدى وقت الوجبة، وإنه لعن اقتناع ضربهم على وجه المائدة بملاعقهم كلما ذكر اسم « همان». لم ينس أحد الأقارب أن يقول إن «همان» الأزمنة المعاصرة: هو هتلر، أو عبد الناصر الذي كان يهدد إسرائيل، أو أي جار عنيف، أو حتى أي قريب نزق.

كل شيء كان مزدوجا، احتفاليا، مطبوعا بسمة الخلط. نعم كان الأمر كذلك. أن نكون طفلة يهودية، في ذلك الزمان وذلك المكان، يعني ربما أن يكون لنا ذلك الإدراك السعيد أن عوالم، طقوسا، طبقات ذاكرة يمكنها أن تتراكب، تتطابق، تتشابك في تفكك بهيج. لكن أيضا أن نسمع صوتا سريا وأنثويا يتحدث عن زمن آخر بلغة يتيمة وجدت ملجأها في بيت الجدة. ذلك أن الجدة كانت تتحدث باللغة الأخرى، الأقل حميمية، ولم تقتسم كلمات وأحلام اللغة المنفية إلا مع الطفلة الصغرى. تلك التي لم تذهب إلى المدرسة بعد. الآخران، الأخ والأخت، لم يعيشا إلا في عالم الخارج، عالم بالفرنسية. كانا يحسنان القراءة فيشتري لهما «سبيرو»، «لا سومين دو سوزيت» و«ميكي». لكن حالما تغزو ظلال الشفق البنفسجية العظيمة الفيلا، تجلس الجدةُ الطفلةَ الصغيرة إلى جانبها، على كرسي خشبي صغير، ودون أن تشعل الضوء أبدا، كانت تحكي. كانت الطفلة تنتظر دون أن تنطق بكلمة، كي لا تنفر الكلمات منها.

«كان يا ما كان». كل شيء كان يبدأ هكذا. فتشعر الصغيرة بقشعريرة البدايات في قفاها. تجري أحداث الحكايات في مدينة، نفس المدينة دائما، بأسطح ومنابع ماء، يحرسها مائة عبد أسود. بحجاب أزرق، خنجره بخاصرته، يتجول هارون الرشيد بالمدينة دون حرس. يتوقف عند نوافذ رعاياه ليستمع إلى بوحهم، شكاواهم وأحلامهم. يحقق أمنيات بعضهم

ويعاقب البعض الآخر. في اللغة الأخرى، يكتسب الصوت رشاقة لوصف الطريقة التي كانت تتعطر بها زوجات الملك، وكيف كُنَّ يستمتعن تدليكا بروح الصندل، العنبر والمسك ويأخذ طابعا ملغزا ليذكر العذابات المحكوم على المذنبين بها. كانوا يقتلونهم، تقول في صيغة غريبة، «شعرة بشعرة».

لكن الأغلب أننا كنا نحتفل بالكرامات المعجزة الكبرى للقديسين. كانت الصغيرة تفهم كيف أن هؤلاء القديسين أقاموا ما يشبه الاتصال المباشر بالله. كان ذلك كالهاتف. لكن لم يكن يقع إلا ليلا، في رؤاهم. ما إن يغمضوا أعينهم فيناموا حتى يروا المكان حيث تختفي الكنوز أو تدفن الضحايا، يروا المجرمين الذين اقترفوا جرائم مجهولة. كانوا يطلعون على الأخطار المحدقة غيبا فيحذرون أحيانا الجدة بإشارات تتقن التعرف عليها وتأويلها. حين لا يحلمون، فإنهم يداوون بنات الملوك، وهؤلاء كانوا يكرمون اليهود بسخاء بعد ذلك. كانوا يركبون الأسود، يختبؤون في المغارات ولا يتغذون إلا على التمر لسنوات، أحيانا أخرى يصنعون عمالقة من الفخار وعلى جباههم يكتبون كلمة «إيميت» التي تعني «حقيقة».

بعد قليل، قبل الأوان، نسمع صوت البوابة الكبرى والمفتاح في القفل، وتشعر الطفلة بشيء كالتمزق. حالما تصل، تشعل والدتها كل أضواء الفيلا. تتحدث بصوت عال، تضرب في الأرض بكعبها العالي، فتطرد الظلال، الإشارات والأحلام. حينها ترمش الطفلة بعينيها، منبهرة، قد صمت أذنيها أصداء الصوت، قبل أن تركض، متخلصة، مستريحة، نحو أمها، كما لو نجت من خطر ما. جاحدة، دون أدنى نظرة باتجاه الجدة، كانت تبتعد عن هذا العالم الغسقي. لم تكن تعرف أنه حفر فيها مسالك، نسج لحمة عميقة، وضع أصواتا ستناديها ليلا في نومها، تناديها عبر المكان، المنفى والنسيان نحو لغة الرحم ونحو ذلك الزمن الذي وجد قبل زمن «البيضاء كالثلج» و«ذات الرداء الأحمر».

لكنها لا تستطيع أن تسارع لتلبي نداءها — الأصوات — إنها لا تقدر أن تدركها أبدا. حتى في أحلامها، فيلم الطفولة صار منذ الآن صامتا، بالأبيض والأسود، واختفى منه المشخصون، تخترقه خدشات فضية كبيرة، هناك حيث أُصيبَ شريطُ الذاكرة بالضرر وتآكل.

صورة عيد ميلاد للوسيان إيليا في السابعة.
أخذت له في دجنبر 1944 بالاستوديو الأرميني للسيد *Hratch*، الذي كان حذاؤه يحدث
صوت احتكاك أثناء حركة ذهابه وإيابه بين قطع الديكور.

الطريق المسدود
بيروت، شارع جورج-بيكو

لوسيان إيليا

هناك قبل كل شيء، في طريق مسدود، هذا البيت على حدود الحي اليهودي، انحراف هندسي، مكعب قبيح، من الخرسانة المسلحة، جليدي في الشتاء، خانق في الصيف.

على عتبة الربيع، كنا نستأجر خدمات عامل شيعي ليطلي لنا السطح جيرا، درع ضد الأشعة المتوحشة لشمس الصيف. عند انتهاء عمله، ينزل الرجل من الجحيم الأبيض، عيناه مجنونتان، شارد النظرة كأنه في حالة سكر. كانت والدتي تمكنه من مستحقاته ثم تفسح له الطريق بسرعة — كان يفوح عرقا — فتقول له: «اذهب على بركة الله وعد في الربيع القادم.» الآخر يغادر البيت وسط ضجيج الأسطل والصفائح، نادما على عدم طلب أجرة أفضل. كان البيت الكئيب يطل على حديقة غناء، تحيط بها شباك حديدية صدئة تحرس المسكن من المُلاّك المسلمين.

المجموعة — غنى الخضرة، حيث يختلط النخيل، أشجار الليمون، البرتقال، السماق، والبيت العالي المكسو بالرخام للمُلاّك، مع سطحه المزين بالحجر المنحوت ولون سقفه القرميدي الأحمر اللامع — تتناقض بعنف مع تلك الكتلة الرمادية التي كنا نرتعش داخلها من شدة البرد مغمورين بهواء من 80 % رطوبة.

جمعتنا حرب مُقنَّعة خلال ثلاثة عقود بثلاثي المالكين، جماعة من الأفيال تتصادم فيما بينها: الأكبر، رشيد بايهوم، الذي يضع دائما طربوشا أحمر رمانيا على رأسه مائلا بدافع الوقاحة، والأختان، خديجة وعيشة، بفساتينهما المهلهلة الدكناء التي تخفي ركام لحمهما. كان رشيد يملك عدة عمارات بمركز المدينة، قطع أرض، مواقف سيارات في الهواء الطلق. فوق هذا، كان كل الحي في ملكه، بما في ذلك الزقاق المنغلق على نفسه والعفن الذي تسكنه دزينة عائلات يهودية جهورية. صيحات أطفال، مذياعات لا تنطفئ - بشكل عام بسبب برنامج أغاني فرنسية: «مهداة من ميمو إلى رينا، ومن الفرسان الثلاثة إلى ابن عمهم ريرو، إليكم العظيم أندري كلافو في أغنيته «بلا إحساس»، ضجيج أواني المطبخ، حوارات من شرفة إلى شرفة — «ريبيكا! ماذا تطبخين للغذاء؟» — كان ذلك يشكل سمفونية تنافرية، على إيقاع هذيل يمامات حديقة آل بيهوم. هؤلاء الثلاثة كانوا لغزا غذائيا، لم يسبق لنا أبدا أن رأيناهم يعودون من السوق بمواد غذائية. وإذا ما حصل ذلك فإننا لا نرى إلا ما يشبه ورقة كرفس تطل من كيس الكرافت الذي كان يحمله رشيد عند عودته من جولة جمع الأكرية. كان يقال إن البيت يتوفر على ممر تحت أرضي يخترق الزقاق ويفضي إلى الشارع الكبير للمدينة الذي يوصل إلى الأسواق. وكان يقال كذلك إن عزوبيتهم هم الثلاثة غريبة، خارقة للعادة، وإنهم يمارسون الرذيلة عند الحاجة في التفافات متوحشة تتشابك فيها الأجساد. من يدري؟ لم يكونوا يستقبلون أحدا أبدا، ولا يحيون أي عيد، ولا أي حدث، على عكس الزقاق الذي كانت تسمع جلبته لأتفه مبرر: حفلات ختان، «بار ميتزفا»، أعياد ميلاد، أعياد دينية. لكن الأكيد أنهم كانوا يسمنون، هذا نعم، من سنة إلى أخرى.

الثلاثي السني، الذي له غنى قارون، كان من اللاتسامح والبخل بحيث لا يستطيع عقل أن يستوعب ذلك، ويحشرون أنفسهم في أقل حدث

يقع بالزقاق. هكذا نحن، الأطفال، لم نكن نجرؤ على اللعب بجنبات الممر المليء بالحصى والذي يؤدي إلى بيتنا، وإلا فاجأنا «العمالقة»، من على شرفتهم، آمريننا بعنف بمغادرة «أرضهم»، هذه القطعة العمومية مع ذلك. كان لعبنا بالكرة، الغميضة، «عالي شوط وط»، خلف حطام سور لم يُعد بناؤه أبدا، ينقطع تحت حدة الشتائم التي كنا نجدها غريبة: «لقطاء! قوادون أبناء قوادين! الحقوا بأمكم النتنة! يهود، أيها اليهود!». غالبا ما كانت الكرة، في رمزية مدهشة، تطير من فوق السياج. ضربة القدم تكون عن سبق إصرار. والهدف، جمع أكبر عدد ممكن من البرتقالات والليمونات عند قدم الأشجار. إن ذلك بالنسبة إلى «أفيال البحر الثلاثة»، هو اعتداء بلا إسم. إنها فاكهتهم! إنتاج أشجارهم! مجانا؟ وبأي حق؟

مرة كل سنة، يصعد عندنا سيد القطيع ليستخلص قيمة الكراء. كان يدخل مختالا، مع تقطيبة احتقار على طرف الفم، يجلس على كرسي بالصالون كما لو كان ببيته، ساقاه منفرجتان، بطنه متدلية أمامه، الجبين عريض والأذنان تشعان خبثا. الطربوش الذي كان ينزعه ويضعه على الأرض يبرز بقمة الجمجمة الصلعاء جزءا شاحبا يتباين مع الوجه المسفوع. عرة عصبية تحرك كاحله من اليمين إلى اليسار وتجعل جلد حذائه المبرنق يَصر. والدتي، التي كانت ملامحها تعبر عن امتعاض مطلق، لم تكن تجد حرجا في أن تقدم له قهوة تركية مع قليل من «المعمول» — هذه الحلوى، على شكل أهرامات الآزتيك، المحشوة بالفستق — والتي ينفر منها الخنزير الذكر، خاشيا بدون شك أن تكون قد دست سما ما آتيا من العصور التوراتية فيها. هو ووالدي يتبادلان في كسل حديثا عن الطقس، السياسة المحلية، سعر كيلو غرام من الليمون الحامض الذي ارتفع مرة أخرى قبل أن يلمح جامع الأكرية الطماع — فيما كاحله يرتج

بشدة في هذه اللحظة — بشكل مكشوف إلى تصرفات إسرائيل بخصوص موضوع الحدود مع لبنان.

وفعلا، في ماي 1948، تاريخ إعلان قيام الدولة العبرية، هاجمت حشود متفرقة زقاقنا، ناهقة نشيدا حربيا، لكن مدروسا مع ذلك، والذي كان «ذوو الوزن الزائد الثلاثة» يرددونه جماعيا من أعلى السطح بقافية قوية المعنى في البيتين: « فلسطين بلادنا / واليهود كلابنا.»

عشر سنوات بعد ذلك، ظهر شخص غريب ببيت «الغلاظ الثلاثة» الرخامي، وتبين بعد ذلك أنه الأخ الأصغر. أتى طالبا مأوى ومسدا للرمق بعد إفلاسه في تجارة أواني المطبخ بالعربية السعودية، بعد سنوات من الصمت البريدي. ربما كان قد تلقى تعليما ما لأنه، في الليالي الحارة لنهاية الربيع، حين يجلس بالسطح مصطحبا قيثارته، كان يترنم بأغاني حب باللغة الفرنسية في اتجاه السماء المزينة بالنجوم. كان أخوه الأكبر يأتي حينها ليقطع الأغنية بخشونة، آمرا إياه بالدخول إلى البيت: «آلتك اللعينة، سأحرقها وأتدفأ من جمرها، إذا أصررت على عنادك.» وفي بعض الأمسيات، كانت جارة لنا، «فيفي البشعة»، غير المتزوجة رغم سنواتها الخمس والعشرين، والشغوفة بإيديث بياف، تجيب كما لو كانت صدى الموسيقى السيء الحظ بزغرودات موسيقية حادة موقعة بلهاث، تسترجع به أنفاسها. والدتها: «أدخلي فورا، أيتها البائرة، وازفري على سريرك كما ترغبين!»

في شهر يونيو، تصير الحرارة لا تطاق داخل المكعب. فيظهر أن الجير الذي عولج به السطح لا يؤدي المنتظر منه على الرغم من تأكيدات والدتي على الحرفي الشيعي: «ضع ثلاث طبقات بثمن واحدة، والله يعوض...» هكذا كنا نهرب إلى الجبل. تأتي شاحنة مرقشة لتقف عند سلم بيتنا رغم منع «كتل الشحم الثلاث». ثم كان يحاول الحمالون المسلمون الأربعة،

بما في ذلك السائق، والذين تم اكتراؤهم للرحيل، أن يجدوا حججا جيدة لتهدئة «الهائجين» : ثم يعقد اتفاق سني بسرعة يقضي بتحديد الوقوف في ساعتين فقط — ولا دقيقة واحدة أكثر، بحق الله! — تحت العيون المتهكمة لـ«المترهلين الثلاثة» الذين كانوا يتفرجون على حيمياتنا تمر؛ كنا نشحن بسرعة المفارش، الأسِرَّة، المقالي، صرر الألبسة التي كانت تتثاءب أمامنا. وكنا نذهب، والدانا منكبسان على مقعد الراكب، أختي، أخي وأنا، المرفق على المرفق مع مفتولي العضلات مترجرجين على قمة هرم الأثاث. أما «السمينين الثلاثة» فإنهم كانوا يتمنون لنا رحلة سعيدة على طريقتهم: «هيا، هيا، ولتكن طريقكم ملأى بالحواجز التي لا تقهر.» كان استجماما لثلاثة أشهر بالجبل الرطب. يصير الزقاق حينها مجرد ذكرى ملتبسة، لكن ذلك لم يكن يمنعنا من تخيل المالكين، سادة الحي المهجور، الراسين على رخامهم والقيظ اللبناني... لأنه لا مجال بالنسبة إليهم — الأمر باهض الثمن، بحق الرسول محمد! — للذهاب إلى الأعالي كما كان يفعل ذلك ثلثا ساكنة المدينة. كنا نعود في شتنبر/أيلول، حين تظهر بوادر موسم الأمطار - ومن جديد الثرثرة بخصوص مدة التوقف، ضجيج الزقاق، أهازيج تاجر أواني المطبخ و«الصبية بياف» المتحمسة، المطالبة بزوج مهما كلف الأمر من ثمن.

حين كان سني ثماني عشرة سنة، اتفق الجميع على إرسالي إلى فرنسا كيفما كانت التضحيات المحتملة، لمتابعة دراستي، بعد مجلس عائلة صاخب جمع إثني عشرة من أقرباء والدي، «ماذا سيفعل هناك؟ سيتغيب عن المدرسة، سيقضي وقته في المقاهي، سيعود إليكم بـ«گوي» (امرأة غير يهودية) بملابس قصيرة، تسخر من طبخنا وأعرافنا...» سافرت مع ذلك. كانت الرحلة في يوم من أيام شهر أكتوبر، وكانت أمطار غزيرة تغرق الزقاق. من سطحهم كان «أصحاب البطون المتدلية الثلاثة»،

بمظلات سوداء كبيرة، واقفين كما لو أنهم طواطم نحس، يتمنون بصوت عال وواضح غرق السفينة التي ستقلني قبل حتى أن تجتاز شرم بيروت.

عدت ثلاثين سنة بعد ذلك، فقط لأرى.

سبعة عشر عاما من الحرب بين الطوائف كانت كافية لتدمير الزقاق. لم يبق أي أثر لـ «المكعب» والبيت الرخامي. وحدها شجرة ليمون كانت تكابر لتعطي فاكهتها تحت الظل السميك لعمارات مغرورة، ملتصقة الواحدة بالأخرى، بيضاء، تحت السماء الزرقاء للمتوسط.

موريس فارحي في سن الثالثة أو الرابعة (1938 أو 1939) بأنقرة.

ماما سلطانة وأفراسها القرناء

أنقرة

موريس فارحي

أنتمي إلى ناد خاص... مصغر وفي الحقيقة، بعيد جدا عن دوائر السلطة. لكن نجد فيه خليطا إثنيا كافيا لنزعم أننا كنا نجسد الفسيفساء الثقافية، العرقية والدينية لتركيا. في فاتح يناير 2012، لم يبق بالنادي إلا ثمانية رجال وأربع عشرة امرأة سنهم يتراوح بين ثلاث وأربعين وإحدى وسبعين سنة. فيما كنا زمن مجدنا، سنة 1981، مائة وثلاث وعشرين، ستة وستين رجلا وسبع وستين امرأة، دون احتساب الأعضاء الثمانية والعشرين الآخرين الذين كانوا قد توفوا آنذاك، للأسف.

هذا النادي، كنا قد أطلقنا عليه اسم «ماما سلطانة وأفراسها القرناء». أنا جاك، أدين باليهودية، وواحد من مؤسسي النادي، الآخرون هم أبناء «المملوك» الثلاثة : دفنة، رمزي وبريهان، ثم أكوب الأرمني، يورگو اليوناني، أوميت الكردي ونيكولاي الروسي الأبيض.

تم التدشين بأنقرة سنة 1962 بمناسبة المأدبة التي أقيمت للذكرى الثانية عشرة لرمزي وختانه. بينما تعود فكرة تأسيس هذا النادي إلى مراد باشا الأب، «المملوك»، حفيد قبرولو، الصدر الأعظم العثماني الذي عاش في القرن السابع عشر. ولم يكن يستطيع الانتساب لهذا النادي إلا الذين كانت لهم كمرضعة ساباتينا، الـ«ماما» التي تخصنا.

لكل ناد خاص اسم خاص، في البداية كنا قد اخترنا له كإسم «ميمي» (ثدي، باللغة التركية)، الكلمة المثالية للاحتفاء بساباتينا، لكن العامية شحنتها مع الأسف بمعاني البذاءة. حينها قررنا أن نطلق عليه اسم «ماما» في اليوم الذي توسل فيه المختون المسكين رمزي أن ترفع الآلام التي أنزلت بقضيبه، لا من الله أو زينب، والدته، كما كان منتظرا، لكن من ساباتينا، مرضعته، التي كان يسميها «ماما»، تماما كما كان يفعل ذلك أبناؤها الطبيعيون.

بعد كل شيء، كنا نحن كذلك، بما أننا إخوة حليب، أبناء ساباتينا. من جهة أخرى، كنا نسلم بأن المسلمين يعتبرون المرضعات من العائلة، وفي الأغلب أكثر إخلاصا من أقرباء الدم.

«الأفراس القرناء»، كانت هذه فكرتي. في ظني، الفرس الأقرن له جلال الحصان، الذي نعظمه نحن الأتراك كما لو كان أخانا الروحي، لكن وفوق هذا يجسد صفاء الروح الذي فقدته البشرية مع المحرقة وقنبلة هيروشيما والذي نتطلع إلى استعادته. كان بإمكان حليب ساباتينا أن يمنحنا شجاعة تحقيق ذلك. (كنا مثاليين وقتئذ، لا خائبي أمل كما نحن اليوم.)

وأخيرا، فإننا ندين لمراد باشا بهذا الإسم المجيد «سلطانة»، أجمل ما في الذكرى التي أسترجعها الآن.

في سنة 1946، قبل مراد باشا، الذي صار أرملا منذ ثلاث سنوات، أن يتزوج من جديد، حتى لا ينشغل أبناؤه بحاله أكثر من اللازم. هكذا تزوج زينب، البنت الوحيدة لوكيله، في فرحة عارمة شهدتها مدينة أنقرة، التي كانت في تلك المرحلة عاصمة يطبعها التحول وحيث كل الناس يعرفون بعضهم البعض الآخر. عرفت إذن زينب الوديعة، الذكية والمتواضعة، الفاتنة كزهرة برتقال، كيف تغزو سريعا قلب الجميع.

مراد باشا، الموثر على نفسه وملاك الأراضي النموذجي، الداعم الحقيقي لأصدقائه وعائلته، كان رجلا محبوبا جدا، على غرار، كما كان يشاع عنه، أتاتورك. لقد تم الإنعام عليه بلقب باشا، كما لو سبق له أن كان ماريشالا بالجيش العثماني، ما يترجم الاحترام الذي كان موضوعا له. كان يجد صعوبة في الاحتجاج أنه، إذا شارك فعلا في حرب الاستقلال، فقد كان مساره العسكري ككومندان شاب سينتهي مع معركة سقاريا حيث أصيب بجروح خطيرة كادت تودي بحياته، لكن أحدا لم يصغ إليه. كانت لمراد باشا واحدة من القناعات الأكثر شذوذا: إيمانه بقوة بنقاء العرق التركي. هذا العيب لم يكن يحدث مع ذلك عنده أي حكم جاهز تجاه كل من كان ينحدر من الأقليات: أفضل أصدقائه ورفاق الكأس كانوا أساسا أرمينيين، يونانيين ويهودا، كفيتالي، والدي. بيد أنه كان يتعصب لفكرة أن دم ذرية ما يجب أن يكون خالصا، وأنه لا يوجد هناك دم أكثر نقاء من ذاك الذي يملأ الأوردة التركية.

كانت السنة التي تلت زواج مراد باشا وزينب مباركة، إذ توجت بميلاد بنت، دفنة. لكن سعادتهما انقلبت مع الأسف إلى قلق مزعج حين وجدت زينب نفسها تعاني من التهاب في الثدي. وسرعان ما صار إرضاع وليدتها جلسة تعذيب حقيقية بالنسبة إليها. ولم يستطع لا الأطباء ولا المعالجون التقليديون المعروفون بقدراتهم السحرية أن يفعلوا شيئا لها. هكذا نصحها بعضهم أن تفطم دفنة وترضعها من الحليب المبستر فرفضت بصراحة: «طفلتي تحتاج إلى ثدي أمها، لا إلى ضرع بقرة! يجب أن نجد لها مرضعة بأي ثمن».

لم يتأخر القدر في الدخول على الخط. بعد أيام متتالية من المحاولات اليائسة للحصول على الحليب الطبيعي من ثديي الأم السقيمين، توقفت دفنة عن الرضاعة. هكذا وجدت زينب، التي ازدادت قلقا، نفسها

تتوسل، تستعطف، تبكي، تسقط صريعة أزمات عصبية، لكن دفنة استمرت ليس فقط في رفض ثدي أمها بل صارت بدورها، تحت وطأة الجوع، ضحية أزمات بكاء تمزق القلب. وحين تناهت المصيبة التي اشتدت بزينب إلى أسماع والديَّ، هرعوا إليها عارضين ما استطاعوا من مساعدة عليها. انفردت بها بالوما، والدتي، فيما رافق والدي السيد مراد باشا لشرب، هذه المرة، فقط شرب الشاي، عوض، كما كانت عادتهما، كؤوس «الراقي»*.

باح مراد باشا لوالدي بما في صدره من مخاوف : وليدته المهددة بالموت جراء سوء التغذية ؛ وإذا قدر على دفنة أن تموت، إذن زينب، مفطورة القلب، ستموت أيضا ؛ وإذا كتب على زينب أن تموت، إذن لم يكن ليستمر هو على قيد الحياة، حتى لو كان من أجل أطفاله الآخرين وعلى الرغم من كل الحب الذي يكنه لهم. أمسك بيدي والدي وقال :

— معجزة، يا فيتالي ! إنها أملنا الوحيد.

حاول والدي أن يهدئ من روعه :

— إنها تحدث كل يوم، لمن يعرف كيف يمسك بها...

— كفى سخرية مني، يا فيتالي !

— لن أجرؤ على ذلك، مراد باشا، يشهد الله : قد صلينا أنا وبالوما لتحدث هذه المعجزة، ولم ننتظر طويلا...

أجهش مراد باشا بالبكاء :

— الرحمة، لا أحب الكذب بين الأصدقاء، حتى لو كان للمواساة !

مسح والدي دموع مراد باشا.

---

* العرق، مشروب كحولي معروف في منطقة الشرق الأوسط، الشام وتركيا وهو يصنع من العنب وتضاف إليه نكهة الأنيسون (المترجم).

— إسمعني، أرجوك... حين ولد ابني جاك، لم تكن بالوما، تماما كزينب، تستطيع أن تعطيه ثديها، لقد كانت تعاني من دمامل مؤلمة. هل رأيت جاك، الآن؟ ثلاث سنوات، وكأنه مصارع بقامته تلك!

تفرس مراد باشا والدي.

— لم أكن أعرف... كيف... ماذا فعلتم؟

— طلبنا المساعدة... نصحنا بعض الأصدقاء بالبحث عن مرضعة.

— نعم، مرضعة، هذا شيء جيد... لكن...؟

— ليس هناك أفضل من ساباتينا. ذهبنا للبحث عنها.

— زوجة النجار إيطالو؟ الشرقية؟

— نعم.

— هل هي مسيحية... من دم آخر. أنت اليهودي، كيف استطعت ذلك؟...

— ما الفرق؟

— لا، لن أستطيع فعل ذلك! حتى لو أن زينب... لكن لا، لن أتحمل الأمر! إذا وجدت هناك مرضعات تركيات، في المقابل...

— ربما وجدن. لكن ليس في حارتنا، ولا بمستعدات للإرضاع فورا. ساباتينا، هي فعلا من الحارة. إنها امرأة قوية، في صحة جيدة، بروح تضاهي الماء صفاء. والأهم أن بالوما تحققت من أنها ولدت مؤخرا وإذن الحليب يملأ ثدييها. في الواقع، لم يسبق أن انقطع عنها الحليب، ذلك لكثرة إرضاعها الأطفال. إنها هي معجزتك، يا مراد باشا.

— لكنها ليست تركية!

— الشرقيون أصلهم من البندقية منذ الفترة البيزنطية. إنهم يعيشون هنا منذ قرون ولا يقلون انتماء لتركيا من أي واحد آخر!

استوى مراد باشا واقفا:

— ليس تركيا مائة بالمائة، يا فيتالي! لن يكون حليب ساباتينا من أصل تركي!

لخرج مندفعا، يتبعه والدي.

— الدم هو الدم، يا مراد باشا. المهم أن يكون صحيحا، أما أصله فلا يهم!

أمسك والدي بمراد باشا من ذراعه، حركة غير مقبولة تجاه كبير بتركيا.

عذرا على ما سأقوله لك، لكن هل تفضل أن ترى دفنة تموت بسبب انعدام دم تركي مائة بالمائة أو أن تعيش بدم عادي؟

منعت اللياقة مراد باشا من الرد على والدي، فأقفل عائدا إلى بيته.

أما والدتي فوفقت في سعيها أفضل. أكثر حيوية في حججها وكالعادة، أكثر رهافة، نصحت والدتي زينب بالاعتماد على مرضعة، الطريقة الوحيدة لضمان راحة دفنة.

في البداية، ترددت زينب. لم تكن ضد فكرة اللجوء إلى مرضعة كما كانت العادة في مسقط رأسها. لكن ألم تكن المرضعات تصلحن إلا للإرضاع؟ هل يستطعن أن يمنحن نفس الحب الذي تمنحه الأمهات؟ وفوق ذلك، باعتبار وسواس النقاء العرقي الذي كان مستحوذا على مراد باشا، هل كان ممكنا إيجاد واحدة مناسبة؟ في محاولة من والدتي لتطمين زينب، استبعدت مسألة النقاء العرقي وقالت: حين ترضع امرأة طفلا، فإنها تصير أمه المرضعة، أم الأطفال كلهم، تماما كساباتينا ذات الحليب المغذي الذي جعل من «الكنوز الصغيرة» التي أرضعتها، بما في ذلك جاك، أشبالا تنط كما تريد الآن.

كان للحجة الوقع المطلوب: انتزعت زينب دفنة من مهدها وطلبت من والدتي أن ترافقهما عند ساباتينا.

في ذلك المساء، وقع سوء التفاهم الأول والوحيد كما يقال، بين مراد باشا وزينب. عند عودته إلى البيت بعد لقائه بوالدي، وجد مراد باشا البيت فارغا. حتى فاطمة، الخادمة الوفية، اختفت. ولظنه أن شيئا ما خطيرا وقع لزينب ودفنة، بدأ ينادي في حالة جنونية كل من يعرف من أصدقاء، جيران ومصالح مستعجلات، لكن أحدا لم يستطع أن يمده بمعلومات في الأمر. كان يهم بالذهاب للبحث في الأزقة عن نصفه الثاني وفلذة كبده حين ظهرت زينب، مع دفنة الغارقة في نوم عميق بين ذراعيها، متبوعة عن قرب بفاطمة.

دون أن يلاحظ شيئا ما من ملامح السرور على وجه زينب، يصيح مراد باشا :

— هل أنت مجنونة أو ماذا ؟ أين ذهبت ؟

— ومتجاهلة غضبه، فضلت إثارة انتباهه :

— أنظر ! أنظر إلى دفنة...

اختلس مراد باشا نظرة إلى ابنته.

— لم تجيبيني : أين ذهبت ؟

— ألا ترى شيئا ؟ أنظر جيدا ! ماذا تلاحظ ؟

تأخذ مراد باشا حالة من الرقة :

— إنها نائمة.

— نعم، ودون بكاء !

— هل خدرتها ؟

— لا، بل إنها أرضعت. وبنهم !

هنا اغرورقت عينا مراد باشا من دموع الفرح.

— تريدين أن تقولي إن... ثدييك... الآن، يمكنك أن ترضعيها ؟

— لقد عرضتها على مرضعة. على ساباتينا.

فانقلبت أسارير مراد باشا من البهجة إلى الغضب :

لم يكن لك أن تفعلي ذلك ! لم يكن يجب عليك ! إنها... إنها مسيحية! كيف تجرأت ؟

تلى ذلك خصام حاد. كان مراد باشا يؤكد عاليا وبقوة أن الحليب التركي وحده يتمتع بنقاء الدم التركي، حين كانت زينب في المقابل تدافع عن فكرة أنها، لإنقاذ حياة دفنة، تستطيع أن تسعفها بأي ثدي كيفما كان، مسيحيا، صينيا أو لامرأة من الإسكيمو، وحتى بثدي ذئبة كتلك التي أرضعت الأخوين رومولوس وروموس. بقي مراد باشا على حاله المتشنج. فقدمت زينب حجة أخرى : بما أن تركيا امتصت منذ آلاف السنين دماء شعوب متعددة، من الحيثيين إلى الإغريق، مرورا بالأرمينيين واليهود، هي، زينب، لابد أن تكون خلاسية اختلطت أعراقها مئات المرات. هكذا لم يكن لها أن تدعي أنها تركية مائة بالمائة... ولا حتى دفنة بنفس المناسبة. لكن مراد باشا لم يستسلم لهذا المنطق الذي يبقى، حسبه، مفتقدا إلى دليل.

حينها استحضرت زينب جد مراد باشا، قبرولو، الوزير الكبير : لم تمنعه شهرته من أن تكون له أصول ألبانية، مع أنه أخفى الحقيقة بسبب رهاب الأجنبي التافه مدى حياته. ليس هناك من شك : هو أيضا خلاسي وغير تركي مائة بالمائة!

هذه الحقيقة غير القابلة للدحض انتهت بإعادة مراد باشا إلى عقله، فانهار على كرسيه. غارقا في خجله، ربما أعاد النظر في أفكاره نادما، بمعنى الاعتراف بأن الاعتقاد في نقاء العرق يشكل ضلالا.

مثال الطِّيبة، أخذته زينب بين ذراعيها وقالت له :

— تعال انظر، سترضع ساباتينا دفنة من جديد خلال ساعة.

ذهب مراد باشا لإلقاء نظرة. فيما كان يراقب الطفلة في غمرة سعادتها وهي تمتص وفق قوانين الطبيعة حليب ساباتينا، فلفها سلام الأصول في شرنقته.

وبمجرد ما شبعت دفنة نامت. تناولتها زينب حينها من بين ذراعي مرضعتها، فيما كانت تنزل الدموع رقراقة على خدي مراد باشا الذي جلس على ركبتيه وقبل قدمي ساباتينا :

— يا لك من سلطانة فعلا ! سلطانتنا ! أدعو الله وإلهك وكل الآلهة التي في السماء أن تحفظك !

كلمة أخيرة :

«ماما سلطانة» لم تعد تعرف كم من الأطفال أرضعت، لكن كانت هناك حقيقة جلية : كان صدرها لا يزال يحمل حليبا، هي المرأة التي تعدت الستين سنة! أي أربعين سنة من الرضاعة والكثير من الرضع بمتوسط خمسة في السنة... دون احتساب الآخرين، وقد كانوا بعدد كبير، حيث إثر الكوارث الطبيعية، كالزلازل والحرائق، كانت دائما مستعدة، على غرار المرضعات الأسطوريات، أن تمنح صدرها للرضع اليتامى (من المستحيل، مع الأسف، العثور على إخوة الحليب هؤلاء لتسجيلهم بالنادي!)

وما يثير الاستغراب، أن تم التخلي عن «ماما سلطانة» قليلا، حين صارت البورجوازية الظمأى لـ«الحداثة الغربية»، تفضل الحليب الاصطناعي على حليب المرضعات، المرتبطات بفترة بائدة. لكن الآباء المتبصرين انتهوا مع ذلك بفهم أن المرضعات العظيمات لا يمكن لأي بديل أن يأخذ مكانهن وأن الحليب النابع من الثدي، سواء كان للأم أو لغيرها، لا علاقة له بالبديل الاصطناعي، وأنه منحة من الطبيعة إلى الإنسان. عند هؤلاء الآباء، كما بالنسبة إلى أمهات كثيرات تعانين من مرض ما أو من

سوء التغذية واللائي لم يكن لهن حظ التمتع بما يكفي من الحليب، كانت «ماما سلطانة» ومثيلاتها هدايا من السماء.

أنا على يقين أن آباء كثيرين عظموا، هم كذلك، مرضعات أطفالهم، وبدون شك بنفس المتعة التي كانت لي. لأنني يجب أن أعترف أنه، حين كنت أنظر إلى «ماما سلطانة»، التي كانت في حوالي الخمسين من عمرها، وهي تهدهد صغيرتي أليگرا، كنت أود لو أدفن رأسي في صدرها الذي كان لا يزال بنفس العظمة الأسطورية والعطاء.

أسلمت «ماما سلطانة» الروح إلى باريها سنة 2002 عن عمر يناهز السادسة والسبعين. كانت والدتي ومراد باشا، الذي قارب سنه القرن، بجانبها وهي على فراش الموت منذ أسابيع. وقد أقسم الإثنان أنه عند نفَسِها الأخير كانت حلمتاها ترغيان بنفس الطريقة التي كانت لهما حين منحتهما إلى «أفراسها القرناء» وهي في زهرة العمر.

آني طيب-گولدمان في السنة الخامسة أو السادسة من عمرها بماطر.

تعايش ثلاثي
ماطر

آني گولدمان

إنه يوم سوق بماطر، المدينة الصغيرة بشمال تونس حيث قضيت طفولتي. منذ خيوط الفجر الأولى، أسمع احتكاك العربات الصغيرة بأرض الزقاق الرئيسي المليئة بالحصى. نباح الكلاب الضالة، التي تثيرها قطعان الغنم والماعز، ألفاظ الأمر بالعربية التي تصدر عن الفلاحين، المزارعين، عمال الحقول بالوكالة، زراع الخضار والبقول الذين يسارعون للظفر بمكان داخل المضمار المخصص للجمال (في الواقع، الجمال وحيدة السنام) لا مبالين ومستخفين.

ماطر بلدة شاسعة تقع وسط منطقة زراعة الحبوب الرئيسية بتونس. كل الزراع، الفلاحين الصغار، المزارعين العرب، الإيطاليين، المستوطنين الفرنسيين الصغار، هم في انتظار لحظة الحصاد بقلق إذا كان موسم الأمطار، شتنبر وأكتوبر، سيئا. من نافذتي، أستطيع أن أرى مخزن واحد من التاجرين الإثنين اللذين يشتريان القمح المحصود ويقدمان التسبيقات لاقتناء بذور المزروعات المقبلة. يتم هناك تقييم جودة البذور، مقارنتها، ثم تلي ذلك مناقشة. أذهب إليها معظم الأحيان، مسلوب العقل بالموازين الضخمة على الطريقة القديمة والتي توزن عليها أكياس الجوت. يفسر العم راوول وأخوه إيميل بلطف الفرق بين الأنواع الجيدة من القمح. هما ليسا

عميّ في الحقيقة، لكنني كنت دائمًا أناديهما بهذه الطريقة، بدافع الألفة. إنه عندهما، كل سنة، كنت أتابع مراسيم عيد الفصح اليهودي.

والدي، العلماني المكرس، لا يمارس شعائر الدين. داخل عائلتنا، لا تتميز الأعياد اليهودية إلا بظهور أطباق خاصة تحضرها والدتي : ال «مسوكي» بالفطائر لعيد الفصح، حلويات «بوريم» و«روش هاشانا»، الدجاجة المحشوة في «كيبور». إنه فقط خلال سهرة الفصح تفسر لي دلالة تفردي كيهودي، وفي وقار وجلال يترجم لي العم راوول النصوص ويردد بلا توقف : «كنا جميعا بجبل سيناء حين تلقى موسى التوراة عن الله. جميعا، هل سمعت ؟»

«أنا أيضا ؟»

«نعم، أنت أيضا.»

يا له من أمر عجيب، حدث شيء ما لا مثيل له على جبل مجهول، ولا أذكره. ومع ذلك فهذا الـ«شيء ما» يشكل جزءا مني، دون أن أعلم بأمره أو أستطيع تفسيره. لأن كلمة «يهودي» لا ينطق بها أبدا أمامي، ليس أكثر من كلمتي «مسلم» أو «مسيحي»، إنها كلمات مضمرة. باستنتاج ضمني، عرفت أنني يهودية، لكن تربيتي «على الطريقة الفرنسية»، ثقافة والدَيَّ اللذين لم يكونا يتحدثان بالعربية، سنوات دراسة والدي للصيدلة بفرنسا، باكلوريا والدتي بالثانوية الفرنسية سنة 1920 وبالأخص الوضع الاعتباري لأختها جولييت كأول محامية بإفريقيا الشمالية، كان كل ذلك يضعني بجانب اللغة الفرنسية.

بماطر، حيث يتعايش العرب، الإيطاليون، الفرنسيون، المالطيون، اليهود وحتى عائلتان روسيتان هاربتان من ثورة 1917، الناس يعرفون بعضهم البعض ويمرون في لحظة من لحظات اليوم على صيدلية والدي طالبين نصيحة، رأيا أو مساعدة. هناك كل شيء معلوم : القصص العائلية،

المشاكل المالية، الأوضاع الاجتماعية الصعبة للبعض، اليسر النسبي للبعض الآخر، موظفون فرنسيون لكن كذلك التجار الصغار والصناع التقليديون، الرصاصون، الخياطون، الصاغة اليهود، الميكانيكيون الإيطاليون... وأيضا هناك المهندسون والتقنيون المتخصصون الآتون من فرنسا لتفتيش وتسيير المناجم المجاورة، الذين كان والدي يدعوهم على حين غرة إلى وجبة غذاء والذين كانوا يأتون لوالدتي بما اصطادوه من الطرائد، دون مراعاة لقواعد الدين اليهودي.

كانت رفيقتي العربية الوحيدة هي باية، ابنة البقال المقيم بالطابق الأرضي لعمارتنا. تكبرني بسنتين أو ثلاث، كنا نلعب الـ «كاري» (*la marelle* أو *le carré*، لعبة شعبية على شكل مربعات أو مستطيلات ترسم على الأرض) على الرصيف، وكانت تتكلم فرنسية متوسطة. ذات يوم اختفت. فيما كنت أسأل والدها عن حالتها الصحية، أجابني وملامح الجدية ترتسم على وجهه: «لن تأتي باية هنا مرة أخرى، لقد أصبحت فتاة كبيرة الآن، يجب عليها أن تبقى بالبيت.» من قلقي، استفسرت والديّ. لكن والدي لم يعلق على ذلك بما يشفي غليلي. في قرارة نفسي فهمت أن باية لن تذهب أبدا إلى المدرسة، وأن هذه هي طريقة عيش العائلات العربية، نقطة إلى السطر. من المفهوم أن لكل واحد الحق في أن يعيش على طريقته.

ليس لي علاقة بالساكنة النسوية العربية خارج السوق، المكان الوحيد الذي تخرج إليه النساء المحجبات، وحتى لمن هن كذلك في حذر. وإذا كان الولوج إلى البيوت الفرنسية واليهودية مفتوحا بالنسبة إلي، فإن الأمر مستحيل بخصوص العائلات العربية. إلا استثناء. لقد حدث ذلك في سابقة بفضل مستخدم والدي الذي تكوّن على يديه منذ سن الخامسة عشرة، الطاهر، الذي يستمتع أحيانا وهو يعلمني كيف أكتب

اسمي واسمي والديَّ بالحروف العربية و — يا للمفاجأة — من اليمين إلى اليسار (في نفس الاتجاه الذي تكتب فيه هذه اللغة التي أجهل وجودها، العبرية). دعانا الطاهر، إذن، يوما إلى العرس المنظم بمناسبة زواج اخته. وكانت دوافع الدهشة الأولى : النساء والرجال منفصلون، والعروس غائبة. تسللت داخل غرفة مجاورة، لأكتشف في نصف ظلام، جالسة على أريكة، معزولة عن الضجيج والضيوف، العروس التي، في استكانة، كانت تنتظر. ينفتح الباب أخيرا، ويقترب رجل، يرتدي سترة وسروالا مع شاشية كما يفعل عرب المدينة، ببطء يقترب، يرفع الحجاب، يتأمل لبضع ثوان وجه المرأة ذات العينين المخفضتين ثم يخرج. إنه العريس. أيقظ فيَّ هذا المشهد، غير المعهود طبعا أثناء حفلات الزفاف التي حضرتها داخل عائلتي المقيمة بتونس العاصمة، قلقا غير عادي. كيف ستستطيع هذه المرأة أن تعيش بجانب رجل تراه لأول مرة ؟ سؤال طابو أتجنب طرحه على الطاهر...

هناك تجربة أخرى ستقربني بنفس القدر من منظومات أخلاقية مختلفة جدا. حين يتوجه والديَّ نحو تونس العاصمة لحضور حفل أو زفاف ما ولا يعودان إلى ماطر إلا في يوم الغد بعد قضاء الليلة تحت سقف عائلي، يتركاني في عناية واحدة من فتيات الصيدلية. كلهن يهوديات أو إيطاليات بما أن الفتيات العربيات لا يعملن. إنها الفرصة بالنسبة إلي لأعيش يومين بين أحضان عائلة مختلفة، وإذن، لأتعلم التعرف على الآخرين واحترامهم، بما يتماشى مع المبادئ التربوية الأبوية. هكذا ذهبت مساء يوم للنوم في بيت ميريام. في العمارة البسيطة التي كانت تقطن بها، حيث يعيش يهود وعرب جنبا إلى جنب، تقتسم امرأتان شابتان السكن نفسه بين سديم من الأطفال. مبتسمتين يسألاننا عن مدى صحة ما يشاع من أنه، بـ«الخارج»، يرقص الرجال والنساء معا. فننطلق ميريام وأنا

في رقصة تانغو مفاجئة. ضاحكتين، تردد الامرأتان الشابتان، اللتان لا تصدقان ما تريان : «حقا، بهذه الحميمية، الواحد مع الآخر ؟»

إنهما تعيشان معا منقطعتين تقريبا، مع نفس الزوج. حين أحكي لوالديَّ ما جرى خلال السهرة، يبقى والدي مرة أخرى بلا تعبير.

نتعايش في سلام تحكمه قواعد ضمنية : تفادي النزاعات، الامتناع عن التلميحات الدينية (لكن هناك شتائم تنفلت من بعض الأفواه مع ذلك)، احترام بعض خطوط التقسيم الجغرافي (وإلا فهي لسانية، بما أننا نتحدث نفس اللغة، العربية، في الأحياء العربية والحي اليهودي)، الحياة في وئام، بعضنا مع البعض، بعضنا إلى جانب البعض. هكذا، أنا التي أحضر احتفالات الفصح اليهودي، أنتظر بشكل طبيعي جدا صديقتي الكاثوليكية على مقعد بينما هي تعترف بخطاياها في الكنيسة. لكن حذار، حتى وإن كنا أطفالا، من ارتكاب ميزما. وحتى بدافع من الطيش كما سأتعلم على حسابي. ها هي ذي القصة.

محمود، حارس عمارتنا المسن، الرجل الذي يقوم بكل شيء في خدمة سكان العمارة، كانت له عادة مضايقتي في السلم. لكن ذات صباح، حين كنت ذاهبة إلى المدرسة متأخرة وهو يعود مرة أخرى إلى فعلته ضاحكا، دفعته بشكل غير لائق. وحين عدت إلى البيت، أربع ساعات بعد ذلك، استقبلتني والدتي ببرود : «تعالي إلى هنا، أنت، قالت لي بملامح قاسية، هل صحيح أنك وصفت محمود بالبلادة ؟». «أوه... لا أعرف.» «نعم أم لا ؟»، «لا أتذكر.»، «لكنه، هو، لم ينس، وستذهبين لطلب الصفح منه، إنه ينتظر بالباب.» فعلا، كان محمود واقفا هناك، وهو في حالة من الهوان. «أطلبي الصفح، أطلبي الصفح !» أمرتني والدتي بنبرة حادة. وفي حالة من عدم الاكتراث لبكائي، ألحت : «على ركبتيك !» ثم بكيت بدموع أحر. حينها نطق محمود، متأثرا أكثر ومتأسفا على الحجم

الذي أخذه المشهد، بهذه الكلمات : «لا بأس، سيدتي، لا بأس...» بعد مغادرته للمكان، قالت لي والدتي : «لن أخبر والدك بالأمر، لكن تذكري أنك من الناس الذين ينعمون بامتياز، وأنك لا تفوقين أحدا بأي شيء واحترام الناس على قدم المساواة واجب عليك». درس لم يُنس أبدا...

بعد فترة وجيزة، بدأت فعلا أعي هذه البديهية : بالنسبة إلى الآخرين، أنا يهودية. الحرب تقترب. رأيت للمرة الأولى والدي في حالة تعبئة، مرتديا لباسه العسكري. ثم تجعل نهاية التعبئة الحياة أكثر قلقا من المعهود. أثارت التعابير المعادية للسامية لشخص ما غضب والدي الذي طالب، خلال مكالمة هاتفية عاصفة مع المراقب المدني لبنزرت (المحافظ، في كلمة واحدة) الذي تقع ماطر تحت إمرته، باعتذار علني من الشخص المعني —كان فرنسيا— المطالب أيضا بالقيام بذلك داخل الصيدلية وأمام المستخدمين. تسببت زيارة المقيم العام إلى ماطر في حادث آخر. نحن، أطفال المدارس، دُعينا للاصطفاف على طول الطريق حاملين شارات عليها صورة بيتان (*Pétain*). حين أعلمت والدتي بذلك، رفضت بقوة، وهكذا حرمت مما اعتبرناه تسلية : «لكن ماذا سأقول للمعلمة ؟»، «ستفهم»، قالت. وفعلا، حين توقفت المديرة، في يوم الغد، وهي تفتش صف البنات، أمامي وقلت لها إنني لن أذهب، أجابت بهدوء : «أعرف ذلك.» ماذا كانت تعرف ؟ لكن هذا ليس شيئا مهما، إذا قورن بما سيأتي : كيف يمكننا أن نفهم، أن الولوج إلى الثانوية ممنوع علي لأنني يهودية، بينما كنت مقبولة في مدرسة دينية كاثوليكية ؟

في نوفمبر 1942، دخلت المدرعات الألمانية إلى المدينة الصغيرة، المذهولة. ثم وقع حجز شقتنا، إغلاق المدرسة وخاصة التزام والدي في مخيمات العاملين اليهود المقيمين بنواحي ماطر وبنزرت لإقامة تنظيم صحي مناسب وتموين منتظم تحت القصف الأمريكي، كل ذلك كان يشهد على تصدعات

معينة ويقوي الشعور بالانتماء إلى طائفة متميزة، بين فرنسيين يدعوننا للاستماع إلى راديو لندن وساكنة عربية بقيت محايدة - في أن ننتمي إليها ونقتسم المصير معا.

«الأرض تقتات على البصمات، السماء، على الأجنحة»

ميكيل أنخيل أستورياس

هوبير حداد، ثلاث سنوات تقريبا، بحلق الواد (تونس).

أجنحة وبصمات

تونس العاصمة

هوبير حداد

مفتاح الريح، الريح يضيعه. ليس هناك هوية متجذرة فعلا ؛ نولد مسيحيين، يهودا أو مسلمين كما ماء السماء في النهر أو البحر. الصورة الوحيدة التي تبقى بالنسبة إلي، إنها هامة جبل بوقرنين بين الأبخرة الزرقاء لخليج قرطاج - ذلك الذي يشبه فيزوف في شرم نابولي. بركان هي الطفولة، يغمرك شيئا فشيئا بالرماد المرتج للنسيان. لا أتذكر إلا العناصر الأربعة، التراب الأحمر، الموجة ذات المائة طبقة من اللازورد، الهواء المدوخ من فرط الروائح وهذه النار الشمسية القاهرة فوق الأشياء. لا الهواء، لا الموجة أو النار يمكن أن يمسك بها : عالم الجن والأرواح لا يتكئ على أي أرض. السطح هو حصتنا، نحن البشر المساكين الذين نمر كما تمر الأزهار والمدائن.

طفل من حلق الواد عن طريق والدتي، گدج اسمها العائلي، وعن طريق والدي من الحارة، الحي اليهودي بمدينة تونس العتيقة، لا أتذكر لذلك اختلافات محددة بين هذه الأمكنة التي احتضنت عائلتي والجيران المسلمين، في هذا المتصل الحي للغة وهذا المشترك في الأذواق والإيقاعات، وسط العطور المسكرة للتوابل، الزيتون الناضج، الياسمين والبرتقال، في الظل الأزرق لأشجار الأوكاليبتوس المضاءة في الحديقة البلدية حيث كنا نتجول، على شاطئ الخليج أو في التل الملائكي لسيدي بوسعيد. من

جهة الحارة، كان الجد يعتمر شاشية والجدة الكسوة الطويلة المزركشة والمنديل الذي كانت تعض على أحد أطرافه. أي طفل كان باستطاعته أن يميز هذه الظاهرة الغريبة التي كانت تكثف الناس في عائلات وقبائل - وعند الرحيل، تبعدهم البعض عن البعض الآخر؟ كديانة إبراهيمية، أدخل الإسلام الفاتح الأمازيغ الوثنيين، المسيحيين واليهود في أحضانه ؛ وعربهم أيضا. على مر القرون، لن يكف بعد عن الاختلاط العرقي السكان الأصليون الذميون، السفارديم الآتون من إسبانيا إثر الـ«ريكونكيستا» (*Reconquista*) والمسلمون أبا عن جد الذين أجبرتهم الحروب السلالية على التمازج بين إفريقية والمغرب، بلاد المشرق البعيدة، وربما موريطانيا — في انتظار القضاء على الإمبراطورية العثمانية والغزوات الاستعمارية — تمازج طوعا أو كرها من خلال الفنون والعادات، إعادة تركيب لهذه الفسيفساء الأخلاقية والمعتقدات المشتركة، اقتسام، أخيرا، لنفس الذخيرة من المذاقات والتناغمات، من المعتقدات السحرية والخرافات.

في هذا المزيج المولد للتحضر الذي يفتخر به فعلا حوض المتوسط، لا يشكل يهود إفريقيا الشمالية إثنية قائمة بذاتها (إذا كان لهذه الكلمة، التي تقوم مقام عرق دون كلفة تذكر، أي معنى). هكذا، ليس هناك أدنى من القرابة المعربة منذ تاريخ طويل للحارة الأبوية وآل گدج الآتين من قسنطينة، مدينة القناطر المعلقة حيث تَفَتَّح قديما، الأندلس اليهودي-العربي، المجتث من حدائقه الذهنية وهندساته السماوية. جدتي من الأم، باية، حرار اسمها من الأب، هذه الامرأة القوية كانت من أولى النساء اللائي طالبن بالحق في الطلاق بالجزائر، مخاطرة في ذلك بحياتها، وقد كانت أمية مع ذلك وحاكية مزدوجة اللهجة لحسن الحظ. كان ميلادها في أحضان اللغة العربية، وقد كانت تتحدث الفرنسية من أجلنا، نحن

الأبناء، الذين كنا نرشحها للهجرة. ثم تزوجت موظفا بالسكك الحديدية تعرض للقصف بالغاز السام بفيرداد (*Verdun*) ومات في الثلاثينيات بصفاقس حيث عينته الشركة، بعد تونس وگابص (*Gabès*). حاولت باية بعد ذلك الهجرة نحو العاصمة برفقة أبنائها كلهم، بما في ذلك والدتي، الإبنة البكر، التي كانت حينها مراهقة. كان ذلك سنة 1939. حين غزا النازيون باريس، وُجد هناك أناس طيبون دلوها على طريق الهجرة. بعد إقامة خلاص بين عائلة فلاحين كاثوليك من اليون (*l'Yonne*)، نجحت باية في إيجاد الوسائل للعودة إلى تونس العاصمة، عبر مارسيليا، وفتح تجارة صغيرة لتوفير لقمة العيش لـ«نسلها» (*smala*). وفي بداية الأربعينيات التقى شاب، مشاغب شيئا ما، من المدينة القديمة، نحات حجر حينها، حمال أو بائع مأكولات شعبية رخيصة، الآنسة الرقيقة جدا أليس والتي كانت تلقب بالباريسية بسبب شعرها الكستنائي الفاتح الأبدي. ويبدو أنه سقط في حبها بجنون فخطفها ليتزوج بها في ما بعد. ثم سرعان ما فقدت الباريسية من رونقها هي التي أثر فيها عميقا موت والدها. في هذا الوقت، غزا الألمان تونس وشرعوا في بناء معسكر للمتهمين من كل نوع واليهود. خموس، زوج أليس، كان أيضا معتقلا به بضعة شهور. ثم سيطلق الأمريكيون سراحه. سيسمي الزوجان طفلهما البكر جيمي عرفانا بالجميل. في سياق من الفقر المدقع، قبل حتى تلك الأحداث التي دفعت بالطائفة اليهودية التاريخية إلى مغادرة تونس المشمسة التي أحبها الجميع، سنجد أنفسنا، والديَّ، أخي الأكبر جيمي-مايكل وأنا — دون احتساب الطفل الميت — في عمق المنفى الداخلي، كما لو كان ذلك عبورا وجوديا، في الحيرة المضاعفة بالاختلاف التي تخيم أحيانا على الزيجات المعقودة سريعا والتي ستأخذ شكل شقوق لجمية عند الذرية. في الشرق الأدنى أو الأقصى، تقرب التقاليد بين الآباء والأبناء تحت النير الإبراهيمي:

القربان المتقارب لإسحاق أو إسماعيل، ذلك يتحمل الأقدمون تبعاته بل ويلطفونه على طريقتهم، آخذين بيد المضحي المسلحة، ينير طريقهم في ذلك تقليد عريق من الاعتدال ومن استبطان العنف التلقيني، الذي ليس الختان إلا أحد مظاهره. لم يكن لدينا بالبيت أجداد حاملون للرمز، يهود أو مسلمون، فقط والد ضال يشهر سكين الانفصال الذي بلا شفرة ولا مقبض ووالدة فقدت عقلها بفقدان حلمها. كان ربما حتميا بالنسبة إلى كل هذه الساكنة المعرضة للخطر بسبب المفاجآت المرتبطة بتصفية الاستعمار وحمى الهوية المترتبة عن النزعات القومية، يأتي المنفى لينقذ من التفكك عائلة تغرق بسبب عجز بنيوي. لأن عالم الأم الموروث عن باية كان بعيدا عن عالم الأب المتأثر ببطريرك يعتمر شاشية؛ وكانت اللغة العربية الحاملة لنبراتها الخاصة تسمع بشكل متنوع داخل سياق تزيده حروب الاستقلال والغزو مأساوية.

نحلم اليوم بعودة إلى عصر ذهبي والذي لم يكن أبدا إلا ابن خيال وانفعال: يهودا أو مسلمين، سنكون جميعا تونسيين في أرض تونسية، منذ اللحظة التي سندافع فيها ديموقراطيا عن وحدة تراب ما، ذاكرته، أبنائه، الوحدة السخية لثرواته المادية والروحية. هذه الأرض، نعرف ذلك جميعا، كانت تحت حكم فينيقي، روماني، عربي، عثماني، فرنسي-عثماني، قبل أن تستعيد سيادتها مع بورقيبة الذي أعلن بذلك العزم الجمهوري: «من غبار أفراد، من ماكا قبائل، وعشائر، كلها تنحني تحت نير الاستسلام والقدرية، صنعت شعبا من المواطنين.»

فقراء بين الفقراء إذن، مع نسلهم الذي تستوعبه جهات العالم الأربع، كان يهود المدينة العتيقة الأقدمون سينتمون اليوم وبحق لهذا الشعب. في أرض مسلمة، تحت الحماية الفرنسية، كنا أطفالا كالآخرين، قلقين قليلا من النزاعات الملتوية للراشدين لا أكثر. باية لم تنس شيئا من المظاهرات

المعادية لليهود، هي التي ولدت في القرن التاسع عشر، قبل أعمال الشغب العنيفة ضد اليهود لسنة 1934 (*Pogrom*) بكثير، تلك المظاهرات التي حرضت عليها فرنسا الكارهة للسامية تحت الجمهوريتين الثانية والثالثة، مرورا بالإمبراطورية الثانية، التي حاول خلالها أدولف كريميوه (*Adolphe Crémieux*)، حفيد يهود البابا، القضاء على هذه النزعة مع مرسوم 1870 الذي يحمل اسمه. وبمصادفة سيئة، سيعزل هذا المرسوم نهائيا الجزائريين اليهود عن مواطنيهم المسلمين، على خلفية الأزمة الاقتصادية والهوياتية.

من جانب الوالد، نحتفظ بذكرى فعل ثورة قام بها الجد الذي تعرض لانتقادات جارحة من قبل جندي للداي، فأسقطه عن فرسه - ما يفسر بدون شك تلك الصعوبة التي وجدها أبناؤه وأحفاده في الحصول على الجنسية بعد الحرب. وفي 20 ماي 1941، كانت العائلة من جهة الوالدة تقيم على الأرجح بكابس، حيث تم ارتكاب مجزرة في حق سبعة مؤمنين بساحة الكنيس (*Place de la Synagogue*).

نحن الأبناء لم نكن نعلم شيئا عن الذاكرة القلقة للوالد والوالدة. كيف تحققت فكرة المنفى هكذا بغتة وإلى الأبد؟ أتذكر عربية السنوات الأولى المتحدث بها والمغناة. كان يجب علينا أن نفهم ذلك، أن نعيش في نبراتها. بين عشية وضحاها، في فجر الخمسينيات، لم يعد أحد يتحدث إلينا بهذه اللغة. الحظر بدأ التأريخ له منذ هذا الممنوع. قطع الناس البسطاء أهم روابطهم الحية مع ذريتهم بكفهم عن التحدث بالعربية، بتواريهم لتجاذب أطراف الحديث فيما بينهم باللغة الأم، في ما يشبه مؤامرة الأصول، فيما لم تبق لنا إلا الفرنسية للاقتسام. هكذا ولدت في اللغة الفرنسية داخل النسيان المبرمج للعربية.

لكن بقيت الموسيقى منذ ذلك الحين كجسر، رابط الزمن الغابر. الموسيقى بشكل ما هي شيء بدئي لأننا نولد جميعا عميا. منذ الحياة

داخل الرحم، تسبق الأصوات الصورة. هناك أيضا الكون الصوتي الذي ننمو داخله في سنواتنا الأولى؛ بالنسبة إلي، هي الموسيقى العربية قبل كل شيء، فريد الأطرش، محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ الذي كنا نستمع إليه في المقاهي، في الشارع، بتونس العاصمة كما ببيلفيل (*Belleville*) - وكذلك الأهازيج القدسية التي كان الناس ينشدونها ويترنمون بها بنفس الصوت العتيق في المساجد والمعابد اليهودية. لم تترك جدتي باية أبدا حاكيها ذي المدورة القديم. كانت أجواق الأحياء الشعبية بتونس العاصمة تؤدي الألحان المشهورة لأم كلثوم واسمهان، وتتجاوب الموسيقى المصرية الكلاسيكية مع الموسيقى العالمة العربية الأندلسية حتى في أنغام الشعبي الآتي من الجزائر والرومبا الأثيرة لدى ليلي بونيش. وكان لليهود كما للمسلمين نفس الشغف بالمقام العربي التركي، حيث نسق المسافات بين النوطات الخاصة بكل لحن ما يولد الإحساس بأن الارتجال مكون شبه عضوي بهذه الموسيقى. اللحن الشرقي، إنه عمق الزمن، اهتزاز ذاكرة، حنين جارف يبتكر في حاضر الاستماع نفسه.

اليوم، كيف يمكنني أن ألملم أكثر من ذكريين أو ثلاث من طفولتي التونسية حين يتشابك كل شيء بين الأروقة البيضاء والسوداء للمدينة العتيقة وأزقة «منيلمونتان» حيث هبطنا بشكل طبيعي في حي أعيد تركيبه بالكامل تقريبا على نفس النمط مع محلات أكلاته الشعبية البئيسة وأكواخه؟ احتفظت في دواخلي بالوجه الحميمي للنساء المسلمات واليهوديات، جدات وخالات، جارات، رفيقات التبادل الرفيع في دفء القرب اللائي كن يعرفن بارتباطهن بعضهن ببعض أكثر من اختلافاتهن. بفضلهن، دون أن يعلمنني ذلك حقيقة، أتقنت تحضير الكسكس الأمازيغي الحقيقي مع أطباقه وسَلَطاته العشرين، الملوخية اللذيذة، حلويات الحفلات، المقروط باللوز أو بالتمر والزلابية التي تقطر عسلا.

تعلمت بالخصوص أن أخمن الرحمة العريقة للشرق في ابتسامة. تأثرت الطفولة الأولى بهذا البحث عن الوجه المنحني للنساء، شابات كن أم مسنات. أي سر يخفينه عنا في لامبالاتهن الوقورة هذه؟ التشابك الثمين بين الميلاد والموت يراد الإيمان، هناك كما هنا، من ضفة متوسطية إلى أخرى بالنسيان المتعدد للأصول.

لم يمر زمن طويل حين عدت إلى شاطئ حلق الواد، بملامح ضلال، لألقي بنظرة على الكازينو القديم الرث الذي ينتظر التدمير. يناديني شيخ هرم، بشاشية وجلابة، يبدو أنه مؤذن، وعلى شفتيه ظل سخرية. «يا حسرة!» قال لي وهو يمر، كما لو أنه تعرف علي بين الجميع في هذا المكان الأبدي. كما لو أنه فيزوف (*Vésuve*) فوق بومبي، يرمي جبل بوقرنين بدخانه بلا توقف على خليج تونس العاصمة - لكنها أبخرة البحر هي التي ترتفع نحو قمته في خضم الضوء المهتز.

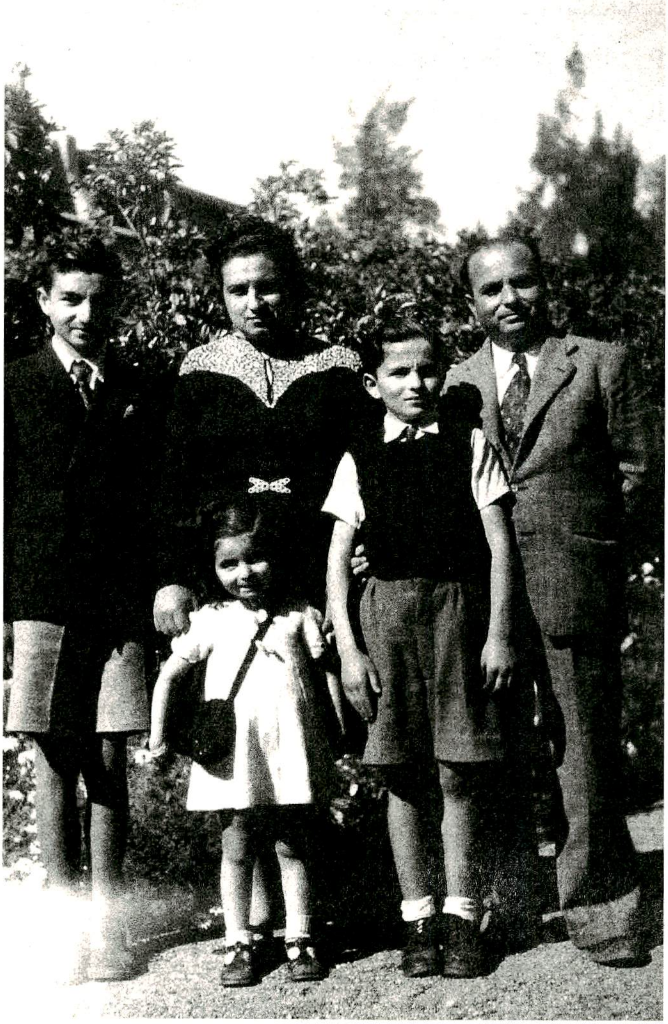

لوسيت، الطفلة الواقفة في الأمام، محاطة بالعائلة،
بحدائق المامونية في مراكش سنة 1946.

ماما دا

مراكش، زنقة «القزادرية»

لوسيت هيلير-گولدينبيرغ

ولدت سنة 1942، بمراكش. مسقط رأسي حماني. لو قدر علي أن أرى النور بأوروبا، لكانت نهايتي ربما كجدتي، ليزا گولدينبيرغ-گولدينزفيغ، بأوشفيتز.

من جانب الوالد، كنا بدون جنسية، على شاكلة يهود كثيرين كانت رومانيا ترفض أن تعترف لهم بجنسية ومن ثم أن تمنحهم أوراق هوية. لم نعد فرنسيين إلا في 1947. من جانب الوالدة، كنت يهودية مغربية، أصلها من سلالة أمازيغية انحدرت من إفران، التي غادرها أجدادي للعيش أولا بموگادور (الصويرة)، كتجار مقربين من الملك، ثم إلى مراكش.

على هذه الأرض المتموقعة بشمال إفريقيا، كان لاسمي العائلي رنين من الغرابة بحيث إنه لم ينادني أحد قط دون أن يسلخ جلد هذا الإسم. لم نكن آل گولدينبيرغ لكن گودامبر، گوطومبر، گولدينبيرج، گولدامبيرجي، أحيانا آل گوتنبرغ. مشكل نطق ؟ رفض، على الخصوص، لهوية أجنبية. لم يقم أحد بجهد لإدماجنا بالعالم الموسوم لآل دوبون ودوران، آل ليفي وكوهين أو فاطمة ومحمد. أين يمكن تصنيفنا ؟

كان المغرب حقا، خلال فترة الحماية، يعيش في ظل فصل محكم جدا. رأى الماريشال ليوطي أنه من الحكمة، لحماية خصوصيات كل طائفة من الطوائف التي كانت تعيش جنبا إلى جنب في المدن المغربية، أن تترك مفصولة الواحدة عن الأخرى. هذا القرار النبيل في الظاهر سيؤدي إلى انعزال مريب. لم يترك أدنى جسر بين المدينة العتيقة حيث يقيم المسلمون، ملاح اليهود ومدينة الأوروبيين الجديدة، حلقات جحيم دانتي الثلاث.

هكذا، كمثال معبر، كان مسبح مراكش مخصصا للمسلمين يوم الجمعة، لليهود يوم السبت ويوم الأحد للأوروبيين، الذين كانوا يسبحون في ماء يتم تجديده فترة قصيرة قبل الافتتاح. لم أكن أذهب إلى المسبح بمراكش. أي يوم كان سيعتبر يومي؟ وأبدا خلال سنواتي الثمانية عشرة الأولى التي قضيتها بالمغرب لم أجتز عتبة بيت فرنسي أو مسلم، مع أنه كان لي رفاق دراسة مسيحيون ومسلمون.

كنت يهودية، لكننا لم نكن ملتزمين، إضافة إلى أن والدي كان أشكينازيا، فيما كان اليهود المغاربة شديدي الالتزام دينيا وعلى مذهب السفارديم. كانوا يكنون احتراما كبيرا لوالدي الذي كان مدرسا بمدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية. لكن، مع هيئته الباريسية وعينيه الفاتحتي اللون أيضا، لم يكن والدي يعتبر واحدا منهم، ولا أنا، بالتالي، التي كان الجميع يظنني فرنسية والتي لم أقترب أبدا من بيت يهودي، بينما كنت في عيون الفرنسيين يهودية لأنني لم أكن أذهب إلى فصول التعليم المسيحي التقليدي ولا إلى القداس وكنت أحمل اسما لا علاقة له بالأسماء الكاثوليكية...

على الرغم من أنني كنت على حافة العالم اليهودي المغربي فإنني أقدم شهادة عنه هنا. هذا العالم، الذي اختفى فعليا منذ أن اختار ما يقرب من أربع مائة ألف نسمة التي كانت تكونه، المنفى بإسرائيل، فرنسا، كندا أو الولايات المتحدة الأمريكية، كان أيضا عالمي من جهة جدتي من

الأم، مامادا. فوق أنه يمثل بالنسبة إلي سحر العصور الغابرة، فإن عندي همّ الحفاظ على ذاكرته، صيانة الإرث الغني الذي يمثله والذي أشعر أنه وديعة عندي.

كانت جدتي مؤمنة ملتزمة، تقضي ساعات طويلة في المطبخ لتحضير أطباق شهية في طواجين طينية تنضج على «مجامر» أو «كوانين» تغذيها نار من الفحم.

لقد رفضت عصرنة مطبخها. أما الطريقة البطيئة جدا في الطهي فقد كانت تمنح مذاقا خاصا لهذه الأطباق التي كونت ذاكرتي الذوقية. رفضت أيضا الثلاجة، فماؤها البارد بإمكانه أن يتسبب لها في المرض. لا شيء كان سيضاهي ماء قُلّتِها الطينية، التي كانت تغلقها بكمشة من الحشائش اليابسة لتفادي الذباب. إن هذا الماء فقط هو ما كان ينعشها، ماء صحي وطبيعي. كانت مامادا خبيرة في كل ما يتعلق بخليط التوابل والمكونات الغذائية، الكل في معرفة تامة بالحلال. كان طبخها فنا من أسرار الآلهة، حين كنت أطلب منها أن تعطيني وصفة سلطة بسيطة من البرتقال بالثوم، الزيتون الأسود والفلفل الأحمر، مسقية بزيت الأرگان، أو معلومات دقيقة حول طريقتها في تحضير الفلفل المشوي (لم أكن أجرؤ أن أسألها عن أسرار أطباق غامضة كـ «القوق» (الأرضي شوكي) المحشو، الخروف بالترفاس، الكرفس بالكويرات، البسطيلة المثلثة باللحم...)، كانت تقدم لي نصائح لأتمكن من إتقان أطباقها الخاصة، لكن النتيجة كانت دائما أقل لذة مما تصنع هي. كنت أعود إليها دائما. هل نسيت مكونا ما ؟ «لا، كانت تجيبني، لكنك لا تملكين يدي!»

عند مامادا، كل شيء كان قد بقي متصلا بسلسلة تعود إلى الأزمنة التوراتية. موشي، رجل ثقتها ذي الوجه الذي يشبه وجه حكيم هرم على طريقة رامبراندت، كما يسجل ذلك إلياس كانيتي في «أصوات مراكش»،

كان يحكي لجدتي قصص راحيل، إستير، إبراهيم كما لو أنه التقاهم بالسوق للتو. كان اليهود يعيشون برفقتهم في حياتهم اليومية. وكانت الحياة بكاملها تنتظم حسب طقوس ألفية. أما أنا فكنت أظن بسذاجة أن كل شيء سيبقى على حاله ثابتا حتى نهاية العالم، بما أن الأمر دام هكذا حتى وقتنا الحاضر. كان التقويم السنوي يسير على إيقاع الأعياد. وكنا نذهب عند مامادا لنحتفل بها ؛ هي الحارسة الوفية لها، في احترام للتقاليد الخالصة. بروش هاشانا كان يرتبط مذاق الشوربة بالخضار السبع، بسوكوت، الأكلة التي يتم تناولها في الخيمة المصنوعة من القصب المجدول. من سيمحا توراة (*Simha Thora*)، أحتفظ بذكرى ابتهاج اليهود المسنين الذين ترتسم عادة على وجوههم ملامح حزينة، لكنهم في هذا اليوم يرقصون بالكنيس حاملين السفر (*Sefer*) بين أيديهم، التي يغطيها التاليت (*talet*). في يوم هانوكا، كان يتم إشعال الهانوكيا المصنوعة من قصدير علب السردين والمزينة بزجاج ملون. وتبقى صورة بوريم (*Pourim*) محفورة في ذاكرتي كصلاة ميگيلا (*méguila*) لا تنتهي. كنت كذلك أنبهر لرؤية جمال كسوة العروس اليهودية التي كانت الفتيات يرتدينها مشخصين دور إيستير في الحفلات المنظمة بمدرسة والدي. أرى نفسي بنفس القدر وأنا ذاهبة لأستجلب الخبز الذي عجنته مامادا لحفيدتيها الصغريين. خبز باليانسون والخرقوم حيث تضع بيضة داخل مربع من العجين، عين «أمان» (*Aman*) التي كنت أفقؤها بعنف انتقاما من هذا الخائن.

في مساء عيد الفصح، تجمع مائدة العائلة بكاملها عند خالتي للاحتفال بالهاگادا (*Haggada*). حين كان خالي يسرد الجوائح العشر التي أرسلت على المصريين لعقابهم بسبب أنهم أرادوا إبادة اليهود، كنا نضرب بقوة على المائدة بظهر ملاعقنا صائحين في كل مرة «داينو» (*Dayenou*)، «كان هذا سيكفينا». أذكر أيضا أكواب الخمر العذب

الصغيرة بدمنات، «الماتسوت» (*Matsoth*)، الحلوى بلا ملح ولا خميرة، المرافقة لـ«المارور» (*Maror*)، تلك الأعشاب المرة المغموسة في «الهاروسيت» (*Harosset*)، تحلية مصنوعة من التمر، التين، الجوز ووريقات الورد. كنت أبقى حائرا، حين تقدم الوجبة، أمام المكان الفارغ والملغز للنبي إيليا الذي توضع لوازمه على مائدة الـ«سيدير» (*Seder*). وفي النهاية تأتي المكافأة بعد كل هذه الصلوات الطويلة جدا، شوربة رائعة بالفول الطازج وطاجين لذيذ من لحم الخروف بالترفاس. وبمناسبة الميمونة (*Mimouna*)، كانت هناك الزيارات المقامة للعائلة والجيران الذين نتذوق عندهم «البركوكش»، كسكس بحبات كبيرة مسقي باللبن الرائب، والموفليتات (*Moufletas*). كنا نلتقي من جديد وبكل فرح مع متعة هذه الأطباق المحضرة بالخميرة والتي كنا محرومين منها مدة ثمانية أيام.

في زوال السبت، كنا نذهب عند مامادا لتذوق «السخينة» والتي كانت ترسل من يأتي بها من الفرن البلدي بعد أن تكون قد قضت به أربعا وعشرين ساعة. كان يشكل ذلك في كل مرة نفس المتعة الأكيدة. كنا أيضا نتلذذ بالبيض والبطاطس التي تصير بنية بعد نضج بطيء داخل شوربة خاثرة من الحمص. كيف لا أذكر مذاق الحشوة باللحم الطري والمتبلة كما ينبغي التي كانت تصنعها مامادا.

كنا نأخذ وقتنا الكافي بعد ذلك لتذوق كوب شاي بالنعناع أو الشيبة. وعبر نافذة الصالون كنا ننظر إلى البهلوان القادم من جامع الفنا لتسلية اليهود الذين يهبونه بالمناسبة بضع قطع من المال. كان يأمر قرده ليقلد اليهودي الذي يهضم أكلة «السخينة». يتمدد الحيوان، واضعا يده تحت رأسه موحيا بقيلولة طويلة.

كل هذه المذاقات اختفت إلى الأبد، كذلك لحظات الفرح العائلي، المزاح، الضحكات والانفعالات العميقة، المتقاسمة بالعربية وبالفرنسية،

مع بضع كلمات عبرية لضرورة الـ «گفن» (*Gefen*)، الصلاة على الخبز والمشروب الروحي التي كانت تفتتح الوجبة. دون أن نكون حريصين على إقامة طقوس السبت (الشباط)، كنا سعداء باقتسام حرارة هذه الوجبة التي كانت مقدسة بالنسبة لمامادا. كانت تتفهم أن يكون لنا نمط حياة آخر، باعتبارات أخرى. هكذا كان العالمان يسيران جنبا إلى جنب، يلتقيان، يتباعدان ليتلاقيا دون كسور، على صورة اليهودية المغربية خلال سنوات الخمسين، خليط من الغرب والشرق، التقليد والحداثة، على صورة اليهود المرتدين للجلابات أو البدلات العصرية التي كانت تتم العناية بها بالعربية وبالفرنسية.

حين بلغت سن الثامنة عشرة، غادرت مراكش بعد حصولي على الباكلوريا لمتابعة دراستي بفرنسا. كنت أحب أن أزور في شهر يناير المدينة التي عرفت مسقط رأسي، الأطلس المكسو بالثلج الذي ترتسم معالمه على السماء اللازوردية، الغروبات التي كانت للشمس ذات اللون الأحمر الناري التي تبرز على امتدادها الهامة الرقيقة للنخيل. كان لي وعي أن أعيش بسرعتين، قدم في دوامة الاكتشافات الفكرية التي كانت تنحت شخصيتي؛ ثم وأنا أجوب العالم بحثا عن أجوبة لتساؤلاتي الوجودية، قدم أخرى في اليهودية المغربية التي انفصلت عنها، هذا صحيح، لكنها كانت حميمية بالنسبة إلي.

مغادرتي لمراكش نهاية 1965، لم أتوقع أبدا أنها ستكون دون عودة. كما اللقالق، كنت أظن أن عشا دافئا سيكون دائما متوفرا هناك، لا يبرح مكانه، ليستقبلني بعد رحلاتي الطويلة. لكن، لم تعد هناك حياة يهودية بالمغرب، كما بالبلدان الإسلامية التي أفرغت نفسها من يهودها. لم تبق أبدا إلا الذاكرة.

إيدا في غرفتها بفيلا زيراح سنة 1956 بتونس العاصمة.

الصفقة الخاسرة

تونس العاصمة، بيلفيدير

إيدا كومر

كنت دائما أعرف أنني يهودية في تونس طفولتي ؛ ومع ذلك فعائلتي التي لم تكن متدينة كثيرا كانت تعيش داخل عالم يتميز بإمكان أن تتعايش فيه الأديان والثقافات. عند جدِّيَّ من الأم، الحياة المنطوية على الذات كانت منعدمة وفي الجلسات الموسيقية لمساء الجمعة تجلس جنبا إلى جنب، تزيدها قنينات الـ «بوخا»[1] (*boukha*) حرارة، كل الفسيفساء الثقافية لتونس ذلك الوقت. الكلمة «مسلم» لم تكن تظهر في قاموس طفولتي، على الأقل ليس بالفرنسية، المفهوم الذي تداولته الألسن كان «عربي». بقايا المعجم الاستعماري أو علامة زمن لم تكن توضع فيه النبرة على الديني إلا قليلا ؟

من أين جاء إذن هذا الوعي المبكر بالاختلاف ؟ لم يكن لي وقتها أي بلد إلا تونس ؛ مع أن ذكرياتي البعيدة مصنوعة من هذا الشعور الملتبس بالانتماء دون انخراط كامل، كما لو كان هناك انزياح يشوش على حركة الهوية. ألم أكن أسمع «الكبار» يخفضون صوتهم حين ينطقون بكلمة «إسرائيلي» (*Israélite*) ؟ (يهودي كانت ستعتبر من الجرأة !) هل كان

1 - كحول التين الذي يرافق السَّلطات الصغيرة للكميا (مز).

اليهود على حق حين كانوا يهمسون بعضهم إلى بعض بذلك أو كانت فقط عادة متوارثة عبر الهجرات العديدة المنقوشة في المنظومة الوراثية ؟ لماذا الحديث عن النفس بصوت خفيض، وكل واحد بتونس كان يعرف بالضبط، وهذا منذ الطفولة، من هي العائلات التي كانت يهودية، مسلمة أو مسيحية ؟

حتى في العائلات اللائيكية، بتونس الستينيات، كان الناس إما لائيكيين يهودا أو لائيكيين مسلمين !

وأنا محاصرة بين الأساطير العائلية والتاريخ السائر للمنطقة، فهمت، ليس دون قلق، أنه على الرغم من وداعة البطائق البريدية التي كانت تلصق غالبا بالمتوسط، فإن أمر كوني تونسية ويهودية يحمل حصته من السعادة، لكن أيضا من المأساة. والدتي، التي كانت تستعمل باستمرار تعابير مليئة بالصور، لخصت دائما وضعيتنا في الستينيات بالجملة «بيعة مقطعة»[2]، أي صفقة خاسرة.

أولى الصدوع تعود إلى حدث سابق على ذاكرتي، لأنني لا أملك أي ذكرى مباشرة عنه. ثم إن روايات أفراد عائلتي وتركيبي الشخصي للأحداث لاحقا، كل ذلك يختلط بالوقائع الحقيقية. في سنة 1957، كنت تعرضت للاختطاف مدة قصيرة بحديقة «فيلا زيراح» بشارع الحرية. يعتقد أنني، على ما يظهر، تبعت شخصا يستقل دراجة هوائية والذي حملني إلى حيث بوابة البيلفيدير. ويظن أن شابا أمريكيا كان يقطن بيتا مجاورا هو الذي «أنقذني» ؛ كان يركب هو كذلك دراجة وربما فهم أن الأمر ليس على ما يرام. من يا ترى كان الخاطف ؟ تم بناء عدة فرضيات : واحد من الفلاگة يبحث عن تمويل للقضية الجزائرية، حارس سراي،

2 – حرفيا، بيعة عزقة (وعد بالشراء غير موفى به ؟). يقال ذلك على العموم في سياق صفقة خاسرة.

لص كبير؟ على الرغم من أنني لا أحتفظ بذكرى هذا الرجل، فإنه يحضر ببالي مع ذلك أنه لا جدي ولا والدي رغبا في تقديم شكاية في الموضوع، لم تكن المحاولة لتفيد في شيء... هذا الحدث، الغامض والخصب في نفس الوقت، عشته من جديد في ذخيرة أفلامي الشخصية كما لو كنت أرى عناوينه الكبرى مكتوبة على صفحات الجرائد أو حتى على شكل رواية مصورة: أسقط في حب خاطفي مثلا، أو ربما أصير بطلة محاربة، كالكاهنة، مدافعة عن واحدة من القضايا الخاسرة لهذا العالم. هذا الشاب الأمريكي الذي يعتقد أنه أعادني إلى بيتي سالمة، أية حصة لا إرادية آتية منه كانت لتؤثر في اختيارات حياتي، عقودا بعد ذلك؟

كان كفاح تونس ضد فرنسا يرى بوضوح على شاشات تلك الفترة، لكن بالنسبة إلى التونسيين غير المسلمين، أي الذين كانت غالبيتهم يهودية، كان الظرف مناسبا لفحص الذات في التباس ملحوظ. لم تخصص الجمهورية، رغم محاولات معينة في بداياتها، إلا حيزا ضيقا لأقليتها الأكثر عددا.

أما والدي الذي كان بجنسية تونسية لكن بموروث إيطالي، ذلك الجراح الرئيسي الذي كون أطباء شبابا عديدين، فقد وجد نفسه مُزاحا من طرف واحد من تلامذته بمستشفى التحرير والذي كان تلميذه المفضل مع ذلك. هذا الأخير، الذي أحرج كثيرا بسبب هذه الترقية المدوخة غير المنصفة، سيدير المصلحة، معتذرا يوميا له. منذ هذا اليوم، سيبدأ والدي التفكير في مشروع مغادرة البلاد. أرادت الإشاعة أن لا يكون لنا «مستقبل» بها. عند الطفلة التي كنتها، كانت العبارة فاقدة لأي معنى: إذا كان لنا ماض وحاضر بتونس، كيف لا يكون لنا مستقبل؟ لم أكن أعرف بعد أن الغد كان قد كُتب أمس.

كان شبح المغادرة مخيما على الوضع، وتفاصيلها التطبيقية يهمس بها البعض للبعض الآخر. كنت أشعر أن هناك استعجالا في الأمر؛ لكن

مع ذلك فلم تتغير حياتي اليومية إلا قليلا. رخصت الحكومة بسحب الأرصدة المالية لكنها كانت تمنع تحويلها إلى خارج البلاد، كما شهد بذلك الاسم الجديد لشاطئ أبي نواس الشهير بگمرت (*Gammarth*)، والذي أعيدت تسميته بـ «شاطئ الحسابات المجمدة». كانت الكلمة «إطار»[3] تتردد بصوت منخفض في أحاديث العائلة. وقد فهمت أن الطريقة الوحيدة لحمل أثاثنا كانت بوضعه في إطار شخص فرنسي، كورسيكي أو إيطالي ؛ هكذا ستغمض سلطات الميناء العين، مع فتح الجيوب، على واحد من الأسرار الأكثر صخبا : اليهود التونسيون يغادرون!

كما لو أنها جاءت لتضع حدا لهذه الموجة العاتية المحدقة في الأفق، توطدت صداقتي مع لطيفة، الجارة التي تكبرني بخمس سنوات والتي كنت أعرفها دائما. كان ثقل السر يضايقني لكنني احترمت التعليمات الموجهة من طرف والدي في أن لا أتحدث أبدا عن هجرتنا. عند لطيفة، كانت الأطباق تبدو لي لذيذة، تشبه كثيرا أطباقنا لكن مع لذة، كثافة وفحولة أكثر. الكسكس-كويرات[4]، الذي كانت جدتي تحقق فيه البطولة، بدا لي عجينيا ومفرط الدهنية بجانب كسكسهم، بالصلصة المتبلة. هكذا كان تفضيلي للمذاقات القوية لا يفارقني، لكن جذوره تعود إلى طبخ لطيفة بالفلفل المقلي، المطلي بالهريسة والذي نتذوقه خلسة.

وجدت نفسي متواطئة معها بالمقارنة. وكان تواصلنا دائما بالعربية، اللغة التي كنت أتباهى بإتقان الحديث بها. في حين كانت لطيفة تتحدث فرنسية ممتازة. كل واحدة منا كانت تنفذ إلى الأخرى بواسطة لعبة اللغة. في يوم من الأيام، ولكي أعبر لها عن عدم رغبتي في القيام بشيء ما، قلت

3 - كادر (إطار) كانت الكلمة المستعملة للإشارة إلى حاوية.

4 - بتونس، يتميز الكسكس اليهودي عن العربي بكونه تضاف إليه خضار محشوة والتي تسمى أيضا «كويرات».

لها : «ما عنديش الگانة»، تلك العبارة التي كانت تتردد على فم جدتي (التي ربما لم تكن ترغب دائما في فعل شيء ما !). كانت صديقتي تفهم جيدا الشق الأول من الجملة، لكن «الگانة»[5] لم تكن بالنسبة إليها كلمة عربية. سأتمكن لاحقا، مع تعلم اللغة الإسبانية، من تفكيك رموز هذه التعابير الخلاسية التي تنحدر شذراتها من لغات مختلفة والتي كانت تحدد خصوصية لغتنا. كان هذا قبل أن تصير اليهودية-العربية موضوع بحوث جامعية. ولن تكون إلا هذا قريبا، بما أن الطوائف التي كانت تتحدث بها قد تعرضت للضمور.

كانت لطيفة تحب أن تحكي. وكنت أنا أنصت، منبهرة، إلى القصص الغريبة التي تأتي بها من الحمام، كقصة العذارى اللائي كن يحملن بوضعهن بكل بساطة أدبارهن على بلاطات الحمام التركي (لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل الفتيان حين يكون يوم حمامهم، طالما تساءلت لطيفة) أو هذا المثل الذي مفاده أن الفتيات، عند ميلادهن، يشبهن حمواتهن... كنت أحب هذه اللحظات لعلمي بأنها ستكون نادرة. في هذه الصداقة التي كان يظللها السر، كنت أشعر أنني أخون لطيفة، كما تونس بكاملها، حتى لو كانت تتظاهر بأنها تحرسنا. كانت لطيفة هي التي أعادت التوازن دون علم منها، بيننا، بكشفها لي ذات يوم أن والديها كانا قد زوجاها برجل شاب لم تكن تعرفه... كانت تبدو راضية. وكنا نبدو أنا وهي مطرودتين من الطفولة في نفس الوقت، هي بسبب الزوابع وأنا بسبب المغادرة.

لا جدال في أن حديثي بالعربية يحقق لي الكثير من المتعة. كنت، بهذه الطريقة، في قطيعة مع كثير من الشباب اليهودي التونسي من جيلي الذين كانوا ينحدرون من عائلات بورجوازية، والذين لم يكونوا ينطقون

5- دون شك مقتبسة عن اللادينو، عن الإسبانية (ليس لي رغبة : *no tengo ganas*).

إلا بكلمات عربية ذات طبيعة نفعية. وكانت السمات اللسانية تجعل، في الأوساط الأكثر شعبية كتلك التي كان يعيش بين ظهرانيها جداي من والدتي، من الحديث بالعربية ميزة يهودية أكثر من اللازم، فيما داخل عائلة والدي، كان الكلام بالعربية ميزة عربية فوق الحدود...

كانت اللغة العربية تشكل بالنسبة إلي سلاحا ودرعا في نفس الوقت. وفي فصل الشتاء كان جداي من الأم يقيمان بزنقة زرقون، على طرف المدينة حيث كنت أنا ووالدتي نشتري غير ما مرة أثوابا. وكنت شغوفة بأن أتجول تحت القباب، مربض القلب النابض، حسب رأيي، لتونس العاصمة. عالم عجيب الثراء لكن، أيضا غير مريح بالنسبة إلى النساء «الفاتحات اللون»[6]. ولظنهم أننا سائحات أو، في جميع الأحوال، غير مسلمات، فإن الشباب كانوا لا يترددون في إصدار صفير أو تعليق، أو حتى الاحتكاك بنا. كنت قد فهمت مبكرا أن النطق بعبارة «احشم على روحك»[7]، بنبرة عربية لا يهودية (هذا أيضا يجب تعلمه!)، ليس فقط يبعدهم توا لكن يرغمهم على أن يتقدموا إلينا باعتذار من نوع «سامحيني يا أختي».

هذا الاختراق، مع منحه لي انطباعا بسلطة ما على العالم، كان يزعجني: فقد سمحت لي اللغة بقلب الوضعية لصالحي، لكن ذلك كان يعني رفضا معينا للذات. وكي أخرج من هذه الوضعية المربكة، كان يجب أن أكون شخصا آخر غيري أنا...

على مستوى آخر، كانت هذه الأحداث تمثل بالنسبة إلي طريقة للتميز عن والدتي التي طالما ادعت أنها لم يحصل أن سمعت من قبل شيئا ولا سمعت. كما كانت عادة نساء جيلها. وبالمرة، وهذا انقلاب آخر، كنت

---

6 - كان ذلك بالفعل اللفظ المستعمل.

7 - حرفيا: «ألا تخجل من نفسك ؟».

أفرض عليها، أي على والدتي، أشياء كثيرة، هي التي كانت جرأتي تزعجها أيما إزعاج.

على «شاطئ الحسابات المجمدة»، حيث التجميد لم يكن فقط ماليا، كانت هناك قصة أخرى يتم لعبها : إنها قصة الممنوعات المسكوت عنها بين الشباب من الطائفتين. كيف يمكن تجاهل الفتية الأنيقين على الشاطئ ؟ خصوصا أولئك الذين كانت لهم تلك البشرة السمراء التي لم أتمكن من الحصول عليها، حتى بعد دهن هذا الخليط من زيت الزيتون و «الميركوروكروم» الذي اشتهر بمنحه للجلد هالة نحاسية خطيرة. هكذا كان باليه الفتية-الدلافين، المتقافزين، المتنططين، لا ينقطع، في حين كانت فتيات «شاطئ الحسابات المجمدة»، وهن يحاولن أن لا يضيعن شيئا من الفرجة، يشاهدن من بعيد، وملامحهن تدل على أنهن مأخوذات بالشوق إلى عرض البحر. هناك، كان بمستطاع كل واحد أن يكتب روايته كما يشاء. في ما بيننا، كل شيء كان ممكنا بما أن لا شيء كان كذلك.

وعلى الرغم من تمزق المغادرة وعلى عكس الأجيال الحاضرة، فإنني قد عرفت تلك الثروة العظيمة التي كانت لتونس المتعددة، تلك التي كونتني، والتي أحملها وأنقلها بداخلي.

تونسية سأبقى.

إسطنبول، 1960. روني مارگوليس على اليمين، حاملا بالونة مع جده،
وأبناء عمومته، ومن خلفه، بنظارتين سوداوين، أمه.

يهودي من تركيا ليس يهوديا
إسطنبول

روني ماركوليس

لم تكن طفولتي اليهودية بإسطنبول طفولة يهودية كثيرا. على الأقل من وجهة نظري. كانت مرحلة بهيجة ودون هموم، فترة براءة وسعادة، لكن القليل من ألوانها البراقة كان مصطبغا باليهودية، القليل من أصواتها العجيبة، الحادة والمتنوعة، كان له رنين يهودي.

كنا يهودا، هذا معلوم. لم يكن أحد يشك في ذلك. وكل شيء شاهد على هذه الحقيقة : فرع من نسب متصل من الربيين وأطباء الأسنان الآتين من أوروبا الشرقية هم يرتبطون بالجانب الأشكينازي للعائلة. وقائمة لا تقل طولا من الأطباء والتجار المنحدرين من شرق إيجة يرتبطون بجانب السفرديم، توالٍ لا نهائي من أشخاص يحملون اسمي أهارون وبوهورس، سيسيلياس وإيسميرالداس، ومساقط رأس بعيدة كبعد گرودنو، تاتنيس، إزمير وتيرا.

لاحقا، في فترات أقل براءة وسعادة، كان يروقني أن أستفز الأتراك الشوفينيين في موضوع محقق، لكنه بلا معنى في رأيي، أنه في هذا البلد المبني على أنقاض إمبراطورية متعددة الإثنيات، حيث أبدعت أعراق وديانات معا وبحرية طيلة قرون عدة، كنت واحدا من الأشخاص النادرين الذين استطاعوا أن يقولوا لأنفسهم بيقين إنهم «من دم نقي» !

هكذا، كنا يهودا، لكن كان لي حظ أن أتلقى تربية دون أن يثقلني أحد بيهوديتي أكثر من اللازم. لسببين اثنين، أعتقد ذلك، يتعلقان بأبطال هذا التاريخ، والداي وجداي، والفترة والمكان حيث يندرج التاريخ.

في مرقد العظماء الخاص بشبابي كان ينتصب جدَّان.

يوسف ماركوليس، يوزك عند زوجته، دييدا بالنسبة إلي، وصل إلى الديار التركية في سنة 1925، في سن السابعة والعشرين، بصدفة كبيرة. فعند تخرجه من جامعة فيينا بشهادة مهندس، حارب كملازم شاب في صفوف الجيش النمساوي المجري، ثم وجد له عمه وولف عملا بشركة برلينية تنتج آليات الأشغال العمومية. حين كانت تعقد صفقات تهم دولا أجنبية، تبعث بواحد من مهندسيها إلى حيث الزبون فتكون مهمته، خلال سنة كاملة، المساعدة في تركيب الآليات. هكذا كان على يوسف الاختيار بين التوجه إلى اليابان، المجر أو تركيا. ولعلمه بأن زلزالا قد حدث باليابان ولعدم ارتياحه للمستوردين المجريين، اختار تركيا. بصحبة جدتي التي تزوجها حديثا بگرودنو، استقل القطار إلى كونستانزا ومن هناك، الباخرة في اتجاه اسطنبول، حيث من سنة واحدة استطال مقامهما إلى استقرار مدى الحياة. ومن هنا واقع أنني رأيت النور يهوديا تركيا.

كان يوسف من بولونيا، لكن بالبيت كان يتكلم لغة جدتي، الروسية، اللغة التي بدأ تعلمها منذ لقائهما الأول ليتمكن من التغزل فيها بإتقان. إلى جانب الكلمات الروسية كـ «طفاريش»، «إيسكرا» و«رابوشنيك» التي سأتعلمها حين سأصير اشتراكيا، ما زلت أذكر عبارة «دايمي كلوتش» التي تعني «أعطني المفاتيح»، لأن جدتي كانت تطلب منه ذلك عدة مرات في اليوم خلال عطل الشتاء التي كنا نقضيها مع العائلة بالفندق، على ضفاف بحيرة جبلية بشمال تركيا غير بعيد من سواحل البحر الأسود. وفي فترة ما بعد الزوال، كنا نذهب نحن الستة — جداي والأحفاد

الأربعة— للفسحة حول مياه البحيرة التي لها زرقة الفولاذ أو عبر الطرق المكسوة بأشجار الصنوبر تحت الأغصان المحملة بالثلج. لا أعرف إن كانت هناك جنة يهودية — هذا السؤال لم يراود ذهني إلى الحد الذي يدفعني للقيام بتحقيق في الموضوع— لكن إذا وُجدت فإنني لن أقترب منها أكثر إلا خلال واحدة من هذه الفسحات.

من ناحية والدتي، كان جدَّاي يتحدثان اللادينو، تلك اللغة التي نقلها اليهود الذين تم طردهم من إسبانيا حتى أرض الإمبراطورية العثمانية قبل نصف ألفية. إنها اللغة التي كان يتحادث بها موسى وإلدا دانون والتي استوعبتها شيئا ما. أما معي فكانا يتكلمان، كما يفعل والداي، بالفرنسية، التي كنت أتقنها، لكن كنت أجيب الجميع بالتركية المتداولة في الشارع. مع إنجليزية المدرسة والروسية التي لم أتعلمها، شكلت كل هذه اللغات جزءا من عالمي الصوتي قبل حتى أن أتمكن من كتابة بيت شعري واحد بها.

من بين كل أولئك الذين لعبوا أدوارا في تنمية قدراتي الشخصية، أدوارا يصعب وصفها لكن تبقى حقيقية مع ذلك، لم يكن أحد متشددا في أمور الدين. بعضهم، نساء بشكل عام، كانوا أو كن يؤمنن بإله يهودي بدون شك لكنه بدون صفات محددة مع ذلك، فيما كان آخرون غير مؤمنين به بتاتا. ومن جهة أخرى، كان هناك من بينهم صهاينة، لكنهم لم يكونوا كذلك عن قناعة راسخة في القلب، ولم يزيدوا بالتزامهم عن ذلك. نفس الشيء بالنسبة إلى التعاطف مع إسرائيل فإنه كان سطحيا وأفلاطونيا عند الجميع، ولم يفض إلى أي فعل ملموس.

هكذا، وما أسعد الأمر! فإن القبيلة الغريبة التي تكونت بإسطنبول خلال العشرينيات من القرن الماضي كانت تتركب من أفراد لهم علاقة هادئة مع يهوديتهم. لم يعتبر أي واحد منهم أن اليهودية هي الألف والياء

لوجوده أو لهويته الشخصية. ولا حتى للعائلة، الشيء الذي شهدت عليه العشاءات التي جمعتها بمناسبة الأعياد اليهودية. لم تكن هذه العشاءات تختلف عن الأخرى إلا بحضور ما يسمى بـ «*gefilte fish*» (سمك الشبوط المحشو) والكبد المرقق الذي كانت تطبخه إحدى الجدات، أو «موتيل المتوسط» (*gaidropsarus mediterraneus, motelle*، نوع من الأسماك المفلطحة ذات الزعانف التي تعيش بالمتوسط)، ذلك النوع من السمك الذي كانت تحضره جدتي الأخرى والذي يجعله اليهود العثمانيون في مكانة شرف على موائد أعيادهم (لكن أشك أن تكون له نفس المكانة في كتاب «العهد القديم»). لم يكن هناك ما يدل على تدين واضح في تلك الأمسيات. وإنني لعاجز عن التمييز بين «الفصح» و«يوم كيبور»، إلى اليوم. ولا أعرف تاريخهما إلا حين تهاتفني والدتي لتبارك لي العيد، حتى وإن كانت تعلم جيدا أنني سأتهكم عليها بلطافة وأنها في الأخير ستلحق ضحكاتها بضحكاتي.

وهذا لايعني أنني، نعم، لم أخضع لـ«البارميتزفا». لا أعرف يهوديا واحدا لم يقم بذلك. وحين بدأ موعد عيد ميلادي الثالث عشر يقترب، تم توظيف رجل شاب كان يأتي مرة أو مرتين مساءا كل أسبوع لتعليمي العبرية، على الأقل تلك المبادئ الأولية التي تمكنني من إقامة الصلوات المرغوبة خلال المراسيم المرعية بالكنيس. لم ينتظروا كثيرا ليتأكدوا أنني لا أعير اهتماما للأمر وأنهم عبثا يحاولون استمالتي. وهكذا تم اتفاق بيننا : سأحاول فقط أن أحفظ الصلوات عن ظهر قلب. وسرعان ما تم الوصول إلى الهدف، فانتهت الدروس مبكرا. وبالنسبة إلى الشاب ذي الثلاثة عشر عاما الذي كنته، فإن الترنم بهذه الصلوات في لغة غامضة كان شيئا عويصا، لكن ما هون من الصعوبة كان هو تلك الهدايا بمناسبة الـ«بار ميتزفا». في عيد ميلادي الثاني عشر، لم أحصل ربما إلا على كرة قدم من

الجلد، بضعة كتب وملابس، هدية من أقاربي. وفي الثالث عشر كانت العادة أن تأخذ الهدايا حجما أكبر، وتمنحها العائلة والأصدقاء الكثيرون الذين دعاهم والدي إلى الكنيس. أما والدي، الذي لم يكن هذا «الطقس السري» ليدفعه للفخر أكثر مني، فقد قام بكتابة صلاة مزيفة، لا بالعبرية بل بالتركية، داعيا الضيوف أن يتركوا هداياهم في المدخل وطالبا بلباقة من أولئك الذين أتوا بيدين فارغتين أن يغادروا المكان... وقلم الحبر من نوع «مون بلان» (*Mont Blanc*) مع قاطع الورق الفضي الذي أحتفظ به بجانب حاسوبي على المكتب الخاص بي، ترجع كل هذه الأشياء إلى زمن تلك المراسيم التي لم أقرأ فيها الصلاة التي كتبها والدي، لكن «باروخ أتا أدوناي، إيلوهينو ميليخ ها-عُلام...»، هذه الكلمات التي ما زلت أجهل معناها إلى اليوم.

عدا عشاءات الأعياد والبار ميتزفا، لا أرى شيئا يهوديا خالصا حصل خلال فترة شبابي. وحين أعيد التفكير في ذلك، فإنني ألاحظ أنه، حتى بلوغي أربع عشرة سنة من عمري، وقبل دخولي مؤسسة روبيرت كوليدج، الثانوية الأمريكية على ضفاف البوسفور، فإن كل أصدقائي كانوا يهودا. لم يكن ذلك بسبب كونهم يهودا مثلي، ولا بسبب اختيار ما. فقط كان آباؤنا أصدقاء وهكذا كنا نتواجد في نفس الأمكنة وفي نفس الأوقات. بعضهم ما زال صديقا لي : دافوت كوهين، طبيب العيون، إيرفين شيك، عالم الرياضيات والمحاضر بمؤسسة الدراسات الثقافية (*Cultural Studies*) إيليو أنسيل، صانع المناديل. واليوم، فإننا نعرف أننا جميعا يهود. لكن في تلك الآونة لم نكن نعيش حياة مختلفة بأي شكل من الأشكال عن حياة الأطفال من حولنا، بالمدرسة، في الأزقة أو في أي مكان آخر ؛ في إسطنبول المدينة المتعددة الثقافات والإثنيات خلال ستينيات القرن الماضي، لا أذكر أنني وعيت ولو مرة واحدة أن دائرة أصدقائي تضم

على السواء يهودا وأرمينيين، يونانيين وأتراكا ؛ لم نكن إلا مجرد أطفال. لم أهتم إلا لاحقا جدا، لأسباب سياسية، ولكي أتمكن من مناهضة نزعة معاداة السامية وأشكال أخرى من العنصرية، بالطائفة اليهودية. وفي أحضانها اكتشفت صحفا، أندية رياضية، مدارس، دور شباب، مراكز تقاعد، باختصار، شبكة كاملة من المنظمات الناشطة منذ وقت طويل. لم يكن جهلي بهذه الشبكة إراديا في طفولتي أو شبابي. إن السبب آت من عند والديَّ وجدَّيَّ، وإنني لن أنسى جميلهم أبدا لكونهم لم يفرضوا علي روح الطائفة في سن كنت فيه قابلا للتطويع بسهولة.

يهودي لا يهودي، أنا كذلك ليس فقط بسبب فضيلة أبطال تاريخي الخاص، لكن أيضا لأسباب تتعلق بالمكان والمرحلة اللتين يندرج فيهما.

في سبتمبر 1955، بضعة أشهر فقط بعد ولادتي، تمت مهاجمة ونهب المتاجر، البيوت وأماكن العبادة الخاصة بالأقليات غير المسلمة القاطنة بإسطنبول وعلى مدار يومين ؛ وقد قامت بذلك حشود حرضتها الاستخبارات سرا. لم يكن هناك قتلى، لكن الصدمة كانت قاسية.

ثلاث عشرة سنة قبل ذلك، خلال فترة الحرب العالمية الثانية، سنت الدولة ضريبة استثنائية على الثروة كانت توجبها، في الواقع، على الأقليات. والذين لم يستطيعوا الأداء تم إرسالهم إلى معسكرات أشغال في أقاصي الأقاليم الشرقية للبلاد. وقد عرفوا هناك ظروفا رهيبة، حتى ألغيت هذه الضريبة بعد حوالي سنة كاملة.

هذه الوقائع المتسمة بالعنف وأخرى من نفس النوع، التي حدثت إبان المرحلة الجمهورية، أي بعد 1923، والتي لم تكن تستهدف فقط الأقليات غير المسلمة، لم تكن فعلا ذات علاقة بالدين أو بحركات شارع تلقائية. فقد تم التخطيط، التحضير والتنفيذ من قبل دولة قومية شاذة، هكذا تركت ندوبا لم تلتئم أبدا وخلقت صدمات لم يتسن تجاوزها بالكل.

في سياق كهذا، كان أفضل بالنسبة للمنتمين للأقليات، أن لا يظهروا يهودا أكثر من اللازم أو يونانيين أو أرمينيين. وقد آلت الطائفة اليهودية على نفسها، وعلى الخصوص، أن تبقى صامتة ولا مرئية، الشيء الذي لم يكن فيه ما يعني البداهة بما أن عددها كان يفوق عشرين ألف نسمة.

لم يقل لي أحد ذلك، لكن أظن أن هذا السياق يفسر أيضا لماذا لم تتم تربية أي طفل من أطفال عائلة ماركوليس أو دانون في بيئة مغرقة في التدين. لا أقول هذا ليفهم الناس أن كل اليهود الأتراك هم ملحدون تم استيعابهم فعليا. ليس الأمر هكذا! إن اللامؤمنين يعدون على رؤوس الأصابع، وفي كل الأحوال فإن حتى المدافعين الأكثر شراسة عن الاستيعاب اصطدموا بجدار الواقع.

ووجب هنا التأكيد على أنه في هذه الفترة بالذات التي كنت أكبر فيها بدأت الحواجز التي تفصل بين الإثنيات والطوائف الدينية المتعددة المتواجدة بإسطنبول، تصاب بالهشاشة لتصير أكثر نفاذية مما كانت عليه خلال فترة شباب والدَيَّ. ثم انهارت بالكامل طيلة السنوات التي أوصلتني إلى الرشد. بينما قضى جداي السفرديميين وعلى الأرجح حتى والدهما، الفترة الأكثر شفافية من حياتهم خلف هذه الجدران اللامرئية، فيما كانت لي أنا حرية التسكع.

بـ «روبيرت كوليدج»، كنت قد وصلت إلى سن اختيار أصدقائي. ولم يكن أحد منهم يهوديا. المشترك الوحيد بيننا كان الانتماء إلى الوسط نفسه، الطبقات الوسطى، والتمتع بحس فضول فكري لا حدود له، اهتمام بالثقافة بشكل عام، تلك الأنجلوساكسونية على الخصوص، أما التركية فنادرا، ثم شعور بالتفوق لا يوصف. لكن لم نكن نجرؤ على قراءة الروايات الفرنسية أو مناقشة قلقنا الوجودي بين درس وآخر. في المدرسة، قضيت أوقاتا طويلة في اللعب بكرة القدم، أو تأمل السفن وهي تنزلج على طول

البوسفور وأنا جالس على الكراسي الحجرية على حدود المركب الجامعي. كانت تلك أجمل أيام حياتنا بالتأكيد.

ثم تغير البلد، والعالم، ونحن، كل شيء تغير.

لكن كنا قد صرنا فعلا ما نحن الآن، ومن هم لا يزالون على قيد الحياة يبقون أقرب أصدقائي.

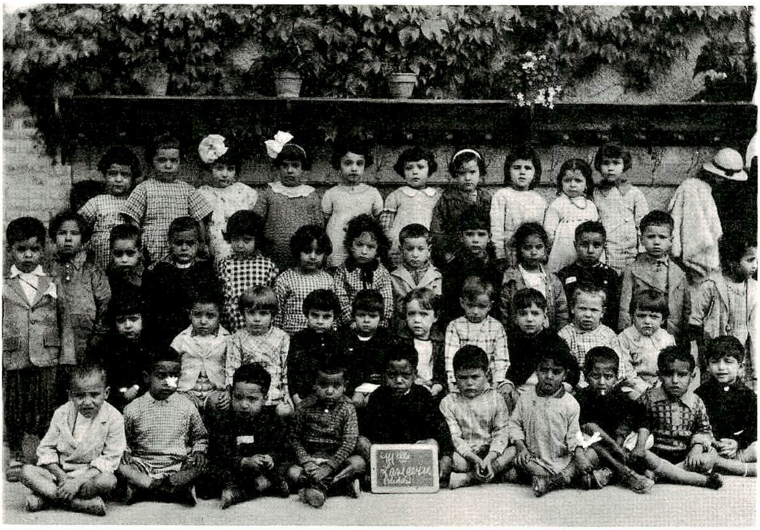

المدرسة الأولية «لا فيجري» بالبليدة، 1936-1937.
لين ميلير-سعيد هي الخامسة انطلاقا من اليسار، بالصف الأخير.

كالصفعة!

بليدة، زنقة الجزائر

لين ميلير-سعيد

كان ذلك مساء جمعة في فصل شتاء صقيعي، حين تنكمش بليدة خوفا من البرد كما العادة. كنت في التاسعة من عمري. بشارع كولوگلي (*Coulouglis*)، حشد صغير من الناس يتهافتون على ركام يفوح برائحة الفول السوداني المشوي والساخن. قفة في اليد، وشاح صوفي على الرأس والكتفين، كلي هشاشة وسط الكبار الذين كانوا يتدافعون، قذف بي بغتة باتجاه ظهر امرأة. فاستدارت، مغتاظة : «لكن، لا تدفعي الناس هكذا، يا فاطمة!»

كانت نبرة الاحتقار التي صاحبت هذه الكلمات شديدة التأثير على نفسيتي. لقد أُخِذتُ على حين غرة. بدءا، كيف أمكن الاعتقاد أنني، أنا الفأرة الصغيرة الطيعة، أستطيع دفع شخص ما لأؤمن لنفسي الولوج إلى البضائع المعروضة؟ أما كلمة «فاطمة» فقد وصلت إلى مسامعي كالصفعة. طالما أعدت التفكير في هذا المشهد وفي الإحساس بامتهان الكرامة الذي انتابني. لم أستطع أن أعطي معنى لغضبي لفترة طويلة. إن هذه المرأة، التي لم تميز بين شالي والحايك الجزائري، حسبتني عربية صغيرة. لم أكن عربية صغيرة. ولم أكن أتحدث بالعربية. ولم أكن أيضا فرنسية صغيرة. وبشكل غريب، تأتيني هذه الكلمات اليوم، في تضاد مع وضعي الاعتباري : كنت

فرنسية، نعم، وكنت أعبر بالفرنسية، لكنني لم أكن أعتبر نفسي «فرنسية صغيرة». وإذن، ماذا كنت؟ يظهر لي أنه لو كان علي أن أطرح على نفسي هذا السؤال في ذلك الوقت، لم أكن لأقدر على تعريف نفسي بطريقة أخرى غير تلك التي تتسم بالسلبية بالنسبة إلى الآخرين.

وبالفعل، كنت أعرف أنني أعيش في أحضان عائلة كانت تلتزم بالتقاليد اليهودية، حيث كان والدي يشارك بانتظام في مراسيم الشباط (عيد السبت اليهودي) برفقة جدي، فيما كانت النساء يحرصن على ضمان استمرارية الارتباط بالدين في البيت بتفضيلهن طبخ أطباق وصنع حلوى خاصة بأيام العيد. لكنني لا أظن أنني تجاوزت، في تلك الفترة، حد التعريف الاستبطاني الذي مكنني من أن أعتبر نفسي «يهودية صغيرة» : كان الأمر يتعلق أكثر بشعور غامض منه بهوية مصنفة.

ومع ذلك، فإنني عشت التجربة المحدودة في الزمن والصادمة في اليوم الذي صادفتني فيه فتاة مسلمة صغيرة، تسكن الحي، في زقاق أصغر ورمتني بنار الشتيمة : «يهودية قذرة!» ولقد تساءلت أكثر من مرة عن مصدر هذا الانفعال المشحون بالكراهية عندها. نعم. كانت هناك تعابير جارحة من التفشي جدا — مثلا حين يضرب صاحب الحمار بهيمته العنيدة صائحا بالعربية: «تحرك، أيها اليهودي!» أو حين يخاطب زبون غاضب تاجرا ما معتبرا إياه «يهوديا» — بحيث إنها تقريبا (ربما... «تقريبا») فقدت شحنة العنف فيها. لكن كيف لطفلة أن تتشبع بهذه الكراهية إذا لم يقع ذلك في حضن عائلتها؟ لقد أثر في الحادث عميقا.

فاطمة، كان ذلك اسم خادمتنا الشخصي. باعتبار سني الصغير، فإنها كانت ترافقني إلى المدرسة التي استهللت الذهاب إليها مبكرا حوالي سن العامين والنصف. كنت أحب أن أجلس إلى جانبها بالباحة لأستمتع بمشاهدتها وهي تصنع «الديول» التي تدخل في تحضير «البساطل»

المحشوة باللحم المفروم. كانت تغرف من صحن مقعر كمية صغيرة من عجين شبه سائل وبحركة مرنة على مستوى المعصم، كانت تضعها في ضربات خفيفة على الصفيحة المعدنية المحدبة التي تكون قد سخنت فوق الكانون. ثم، بحد سكين، كانت ترفع بدقة جوانب الورقة الرقيقة الجاهزة، تمسك بها معتمدة على رؤوس أصابعها وتضعها على الكومة المكونة من الوريقات الأخرى. كنت أتلذذ بالتهام الكسور المتساقطة. ثم هناك الطريقة التي كانت تشوي بها الفلفل الحلو على الفحم والتي طالما أدهشتني. آه ! تلك الرائحة المنبعثة من الفلفل المشوي...

ما وراء الحدود والسنين، تبقى هي طلسم ذاكرة طفولتي !

ذات يوم، سمعت بالجوار مدقا من النحاس يرن بشكل جنوني، ثم آخر، فآخر، وجوقة من المهارس، المألوفة بكل البيوت المسلمة واليهودية، تنطلق مدوية في توافق نادر ومقلق. أثارت فاطمة انتباهي إلى الشمس التي كانت محجوبة بدائرة غبشاء : «إنهم الجن. المدقات تطردهم.» ولم أفهم إلا بعد وقت طويل أن الأمر يتعلق بكسوف شمسي، تلك الظاهرة التي تخيف النفوس البسيطة.

بليدة، «المدينة الصغيرة»، بقيت كذلك. كان المرء يتجول بها بيسر. وحين كانت تدعو الحاجة فإن والدتي تبعث بإخوتي أو بي أنا «للقيام بالمهمة». كنا نخشى فوق كل شيء أن نسمع عند عودتنا الأمر المحتوم : «أعد إليه هذا !» لأن التاجر كان يتذمر جدا قبل أن يقبل بإعادة البضاعة المطعون في صلاحيتها. (عشر سنوات بعد ذلك، رأيت والدتي، بفرنسا، وهي تشتكي من أن واحدا من بقالي القرب رفض أن يسلمها ما اقتنت من بضائع بسبب نقص بضعة سنتيمات من المبلغ المطلوب لسداد مشترياتها.)

كانت عائلتي كلها تتركز داخل محيط محدود. خالتي رينيت، الممونة صاحبة الباع الطويل، كانت تضمن أناقة مشترياتها بالسوق العربي. وتلك

الخضار «النازلة من الجبل» مباشرة، سلال «كْريا» (*Chréa*) الملأى بالفطر والفائحة برائحة خشبية أخاذة، كانت تعرف كيف تميزها عن غيرها وتناقش ثمنها خلال مباريات خطابية منسمة :

«يا مدام، تي كزاجير، تي كوب لي بينيفيس.» (*Ya madame, ti xagères, ti coupes li binifice*). عند الطرفين، السيناريو تم التدرب عليه جيدا.

أتأسف كثيرا لكون فاطمة كانت تتحدث معي دائما بالفرنسية، والتجار أيضا. بدا لي الأمر طبيعيا ولم يكن يدفعني إلى التعبير بطريقة أخرى. ولم يعان والديَّ من صعوبات في التواصل عبر العامية، المزينة عند جَّديَّ بتعابير يهودية عربية والتي كانت بالنسبة إليهم شيئا أليفا كما كانت الفرنسية التي تعلموها خلال طفولتهما. وإخوتي الذكور، بلعبهم في الشارع، كانوا يتشبعون بشكل طبيعي جدا بالتعابير الشائعة، وبالأخص بالبذاءات التي كانت تؤثث جلسات مشاهدة مباريات كرة القدم. أتذكر الصفعة المدوية التي رسمتها والدتي على وجه أخي الأكبر يوم سب الأصغر قائلا «ولد القحبة»، شاتما في نفس الوقت من منحته الحياة...

خلال المؤتمرات المطولة التي كانت تقام بالشرفة بين خالاتي ووالدتي، بينما كانت أصابعهن تصنع «الرشتة»، «الكاوا» أو عجائن أخرى، يتم تبادل أسرار تجب حمايتها من الآذان الفضولية. وكانت اللغة العربية شيئا عمليا وقتها، وذلك لتفادي أن يباغت الأطفال القصص المسكوت عنها.

وخارج العائلة، كانت ثرثرات النساء تجد ميدانا مثاليا بالحمام. حيث تخنق حرارة مائعة الأصوات تحت بخار غير شفاف. ويؤمِّن كيس الحلْفاء الذي يتم حكه على قطعة صابون مارسيليا تنظيفا أمثل. وفي يوم، سألتني امرأة كانت جالسة بالقرب منا عن سني : «آه! إنك ما زلت صغيرة على ذلك، لا تنظري !» إذ كانت منهمكة في نتف شعر عانتها بدهن كبريتي

الرائحة، تلك العادة الشائعة بين المسلمات اللائي كن يأتين للتطهر بالحمام التركي بعد فترة حيضهن. وقد ذهلت لذلك.

ولكوني معتادة على تصنيف العالم في فئات مميزة، كنت أتساءل أيضا لماذا كانت النساء المسلمات تأتين للصلاة عند قبر أحد الربيين، بالمقبرة اليهودية للبليدة، راشات رؤوسهن بالماء. وقد علمت فيما بعد أنه كان من كرامات الرجل القديس أن يتوسط لهن ليجعلهن يحبلن ويصرن أمهات. ليس هناك حدود بالسماء !

أما تلك التي بالأرض فهي اعتباطية فعلا ! وكان عمي جورج ينادي العجوز أم الخير برقة «يما» (أمي) هذه المرأة التي بيع لها ببضعة قروش عند ولادته لغرض صد سوء الطالع الذي حل بمواليد جدتي الذكور !

كانت المدرسة الابتدائية «لا فيجري» سدا منيعا حيال الاعتبارات الخارجية، إذ لم تكن تركز اهتمامها إلا على استحقاقات التلاميذ. كان يحدث أن توضع قبعة الحمار على رأس «تلميذة سيئة» فيطاف بها معتمرة قبعتها الورقية من قسم إلى قسم تحت مراقبة «تلميذة نجيبة». كنت أحيانا أكلف بهذا الدور. كيف أمكنني أن أقبله ؟ لكن من كان يجرؤ حينها على عصيان أمر صدر بالبيت أو المدرسة ؟ كان ذلك مستحيلا.

على مستوى اللباس، لم يكن التميز هما أساسيا. حيث لم تعرف البنات السروال الذي يضمن حماية أفضل ضد البرد. ولم يكن البنون بمدللين في هذا الجانب وهم يرتدون سراويلهم القصيرة. أما بذخي، فإنه كان يتجلى في وضعي قفازا صوفيا لأتمكن من الإمساك المحكم بيد محفظتي الثقيلة، لكن كان الاحتفاظ بها في القسم ممنوعا، على الرغم من البرودة الجليدية التي تجتاح الشتاء بالبليدة مبددة الحرارة الضعيفة التي كانت توفرها مدفأة الفحم. ولتبرهن لنا على أن مصيرنا كان ما يحسد عليه، فإن معلمتنا بمستوى الدرجة الثانية من الدروس الابتدائية طالما ذكرتنا بأن

فتيان الجبل، يقطعون الكيلومترات، ليصلوا إلى المدرسة، لا يعينهم على ذلك إلا «صحن حمص في البطن»...

أربكت أحداث كثيرة مجرى تمدرسي الطبيعي. وقد تركت السنوات من 1940 إلى 1943 خلفها الآثار الحارقة للفظاعات المرتكبة من طرف الحكومة الفرنسية تحت أمر الماريشال بيتان. نعم، كنت أغني ببراءة: «أيها الماريشال، ها نحن هنا.» نعم، كنت أرفع الراية صباحا بساحة المدرسة، كلما سمحت لي درجتي في الترتيب بهذا الشرف. غير أنه كان هناك يوم، يوم غريب، يوم حزين في دجنبر 1941، اليوم الذي أوحي فيه إلى الأطفال اليهود بالجزائر أن لا يذهبوا إلى المدرسة في الغد (كانت هناك مبالغة في الأشياء بالجزائر: بفرنسا لم تهم الإجراءات السلك الابتدائي). لكن لا أنا ولا إخوتي لم يمسنا مكروه: كنا ننتمي إلى فئة المتمتعين النادرين بالامتياز إذ كان رب أسرتنا الحاصل على أوسمة عسكرية (أقل ما يمكن تمتيع والدنا به، هو المصاب بعاهة مستدامة) من الذين لم يحرموا من الجنسية الفرنسية بعد إلغاء «مرسوم كريميوه» لسنة 1870، في 7 أكتوبر 1940، ذلك المرسوم الذي حصل بموجبه عليها.

وقد جعلني «وضع اليهود الاعتباري»، أنا، على الضفة الهادئة للمدرسة العمومية. لكن المعلمة، مدافعة عن أهل حرفتها على ما أظن، لم تعد تُعَيّنني لـ «رفع الألوان» رغم معدلاتي. وتم طردي من «بالي المتزلجات» الذي كانت المدرسة تنظمه في عيد رابطة المحاربين. مع ذلك، كنت «أربط» بوعي، كا الأخريات، تلك الشرائط الورقية التي كان يجب لصقها على القلنسوة الأسطوانية الخاصة بالبنات الملتزمات بتنشيط الحفل. مرة أخرى يهمس روح السلم: «لماذا لم ترفضي فعل ذلك!» وكان دائما نفس الجواب يذكرني: «هل كان باستطاعة أي أحد، في هذه الفترات الحرجة، أن يعصى أمرا وُجّه إليه بالبيت أو المدرسة؟... لكن، ودون

أن أنتبه للعاقبة، ضاقت حدودي الداخلية وانكشفت اختلافاتي، هكذا صرت فعلا «صغيرة يهودية.»

على وقع الاضطرابات التاريخية، كانت تدور دائرة الفصول التي لا تتغير. خلال سنوات شبابي الأولى، كان يأتي رمضان في الصيف، ولدفء الأجواء به فقد ارتبطت عندي بالإحساس بالحرارة المفرطة التي تلفنا كوشاح حام. وكان الإفطار المعتق يحل بعد الإعلان عن ذلك بواسطة طلقة مدفع متبوعة بالأذان الذي يجهر به المؤذن من أعلى منارة المسجد. ثم تخلو المدينة من المارة في لحظة وعلى مدى أربعين دقيقة، ليعود الضجيج إليها من جديد بسبب حديث المتجولين الذين أشبعتهم معروضات الحلوانيين. كم كانت لذيذة هذه الحلويات المصنوعة من اللوز المخلوط بالسميد أو المغروس، كما لو كان خاتما مجيدا، في «قلب اللوز» ! وكانت أزقة البليدة تضوع برائحة زكية عسلية تبقى عالقة بجنبات الشوارع حتى ما بعد أيام العيد هذه. في نهاية رمضان، كنا نتلقى أطباق حلوى شهية جدا. وفي المقابل، تعاد هذه الأطباق ملأى بأخرى متنوعة لأنه «لا يمكننا أبدا أن نعيد صحنا فارغا» - مبدأ احترمته وخضعت له دائما. كانت التبادلات تتم في الاتجاه المعاكس حين يحل عيد الفصح اليهودي. قطع الخبز بلا خميرة كانت تحظى بتقدير من العائلات المسلمة. وقبل الاحتفال بفترة قصيرة، كان يحصل أن ينادى على سيسيل والدتي، وأحيانا تحت ألفاظ تشريفية غريبة : «يا مارابوتا، متى يحل عيد اليهود ؟» كان السؤال يحمل أمل مطر الموسم، «مطر الفصح» ومياهه النافعة الجارية فوق الحقول العطشى. وكان والدي، أفلان سعيد، والذي كان الجميع يناديه «مسيو أفلان» يبقي على عكازه مثبتا أفقيا تحت ذراعه اليسرى المشلولة. ما يجعل هامته ظاهرة للعيان. وحين كان الكثير من «أصدقائه»، من بين قدماء المحاربين الذين تقدمهم، يديرون ظهورهم له تحت فرنسا

البيتانية* فإنه وجد في بعض العائلات المسلمة ملاذا كله مواساة. وربما استمد منهم دعما معنويا في ذلك اليوم من أغسطس 1941 الذي عاد فيه من الجزائر العاصمة، منكسرا، يائسا، بعد الاستقبال المهين الذي خصصه كزافيي فالا للوفد المصغر الذي أتى ليترافع دعما لقضية المحاربين القدماء اليهود المحرومين من مواردهم.

كنت في الرابعة عشرة. إذ حللت ضيفا لمدة قصيرة بكريا (*Chréa*)، عدت إلى المنتجع عبر طريق هامشي، في صفاء جو الصيف بالجبال. كانت عصابة من الشباب الفرنسي الذي لا شغل له، فتيات وفتيان، تتخذ من قدم شجرة أرز كبيرة مجلسا لها، على ربوة بعيدة عن الطريق. كان أفراد العصابة هؤلاء يضحكون ويمزحون فيما بينهم، حين بدأوا جماعيا يتحرشون بي، وهم يرددون بلا توقف : «يهود! يهود! يهود!» في أفواههم كانت أسماء الجنس تفقد بعدها العادي لتتحول إلى شتيمة.

هكذا تملكني غضب أعمى. وكما لو كان بتأثير البومرانغ (*boomerang*)، فإن صدى هذه الجملة الغائرة في عمق الذاكرة بدا وكأنه يقول من خلالها : «لا تدفعي، يا فاطمة!» وإن الموجة نفسها الآتية من الأعماق قد غمرتني وتغمرني اليوم. في لحظة واحدة، بدأت تتلبس المعنى. قديما، كانت النساء توجهن كلامهن للعربية الصغيرة التي لم أكنها في يوم من الأيام : «لكن، لا تدفعي، يا فاطمة!» من هذه التسمية المبتذلة في ذاتها مع ذلك، كانت ترشح الأحقاد. بسببهم اليوم تلك اليهودية الصغيرة التي كنتها وبإهانتهم لأصلي الذي يعتقدون أنه منحط، كان الخارجون على القانون يشحنون الكلمة «يهودي» بكل العار المنقول في الأنساق العنصرية. من هذه التسمية، المحايدة في ذاتها، لكن التي بُصمت من قبلهم بالانحراف، كانت تقطر الكراهية.

---

* من بيتان، الماريشال الفرنسي الشهير (المترجم).

وتحت غضب مني شديد، كنت أدير رأسي وأكمل طريقي، تتبعني ولفترة طويلة تلك المسكوكات المقززة. كان الغليان الداخلي يمزج غضبي الأول بالثاني. في لحظة وجيزة، صارت اليهودية الصغيرة فاطمة. ثم، وفي مرة واحدة، شعرت بارتياح عظيم وأنا أضع كلمات حنقي الراهن على غيظي القديم. بل إنني كنت أملك مفتاح ذلك!

دانييل ميسگيش أمام البريد المركزي بالجزائر العاصمة سنة 1960، بصحبة والدته.

«لا، ليس يهوديا، بل إسرائيليا»
الجزائر العاصمة، شارع كلود دوبوسي

دانييل ميسگيش

«أم»، يا عزيزتي ليلى، هو اسم جنس. إذا قلت «أمي»، فإن العالم كله يفهم، أليس كذلك؟ بالمطابقة، لأن الناس جميعا لهم، أو كانت لهم، أم... لكن أنظر: والدتي ليس لها ما يربطها بوالدتك. إنهما شخصان مختلفان عن بعضهما البعض بشكل أساسي، وإذا قلت هنا «أمي» فستبقون غير فاهمين شيئا مما أقول. «أم»، إنه اسم جنس، لكن «والدتي» هو اسم شخصي — وكما هو، يبقى غير قابل للترجمة إلى لغة الآخر (جان، أليس كذلك، سينادى عليه دائما هكذا: جان، لا دجون ولا خوان أبدا) — ؛ هنا، ذاك الذي هو، على الخصوص، لهذه المرأة، هي وليس أخرى، والتي كانت أم(ي). «أمي» لا يمكن توريثها. أمام « أمي»، أبقى وحيدا. أمي، «أحتفظ» بها. هكذا، عزيزتي ليلى، يصدق الأمر نفسه، تقريبا، على طفولتي.

لأنه، حتى لو كانت ناعمة ورائعة، «ذكية»، فإن أية مطالبة بالانتماء إلى قبيلة ما (بلد، شعب، أمة، طائفة... يهود الجزائر، أو إيرلنديو نيويورك، أو حتى، ما أدراني، سكان حي من أحياء نانتير)، أن تكون موسومة بالنوسطالجيا أو الاعتزاز بالنفس (على الأرجح، عندما تكون، كما في غالب الأحيان، موسومة بالغطرسة، على الدوام مسموعة لمن يريد أن يسمع،

حتى حين تتقدم هذه الأخيرة مُقَنَّعة، ناعمة ومغوية تقريبا، تحت سلطة الكلمة الجميلة «ذاكرة»)، هذا ما أقلقني دائما. أولا بسبب عماها أمام ابتذالها الخاص (من، قولوا لي، لم يولد في مكان ما ؟) ؛ وبسبب استمتاعها البليد، كذلك، بقبول، مع الغرور الملازم لمن أمكنه تأسيسها، ما كان رغم ذلك أمرا مفروضا ؛ وأخيرا، أحيانا أكثر، بسبب السهولة التي تسارع بها لتعديل — وربما تبديل — «التفكير» بـ«انتماء الجزء إلى كل» (إنني أتيت من هناك، أنا هكذا). أما بالنسبة إلي، حتى وإن كنت أحب (وإنني فعلا أحب أكثر مما يمكن لأي شخص آخر أن يتخيل، صدقوني، ليلى ؛ وإن طفولتي كانت سعيدة، ولا مبالية ورائعة) أن أتدفأ على ذكرى هؤلاء المختفين الذين أحاطوا بي في تلك الفترة، وهذا المختفي، أيضا، الذي هو الطفل الذي كنته، فلا يمكنني، سواء جانبت الحق أم أصبته، أن أمنع نفسي من قراءة، داخل هذه الذاكرة، حين نعلنها أو فقط نؤكدها أمام الآخرين، شيء ما ينتهي، عاجلا أم آجلا، ببناء، مع وجوه محبوبة كأحجار، حيطان أحد الملاجئ، الذي كان له باب، يتعرض دائما لخطر أن لا ينفتح إلا ليقصي أفضل، ينكر، وربما يدمر هؤلاء الآخرين، الذين بمعنى أدق «لم يأتوا من هناك، وليسوا هكذا» باختصار، لا يمكنني أن أعرف ماذا أقول لك، عزيزتي ليلى، عن «طفولتي اليهودية بالجزائر».

ليس لأن، كما بالنسبة إلى سكان الجزائر الأوروبيي الأصل «*Pieds-noirs*» (كنت سأكتب «كما بالنسبة إلى أوروبيي الجزائر الآخرين»، على الرغم من أنني لم أكن يوما من ساكنة الجزائر الأوروبية، حتى وإن كنا نسمي أنفسنا كذلك بالجزائر، فإنني لم أستطع اكتشاف كل هذا إلا في وقت لاحق، بعد المراهقة في فرنسا)، ليس لأن، كما هؤلاء، لا تعود لي، بل ترمي بي حتى اليوم في حزن لذيذ، دقةُ عطر مفقود، مذاقٌ لم يسترجع أبدا، أو رهافة صوت عزيز، أو كإحساس بالخوف غامض وبعيد، أو

بالعار، أو بالحب (حب، على الخصوص)، وآلاف الوجوه: تلك التي هي لوالديّ، طبعا في زمن تألقهما، حين، مثلا، كانا يستصحباننا، أختي وأنا، إلى شاطئ مادراگ، إلى گويوفيل، أو إلى غابة إيكار (التي تكتب اليوم «دي كار»، *des Cars*)، أو حتى ببساطة إلى ميلكبار (انطقوا ميلكوبار) في قدم شارع ميشلي، لتذوق «حصان-خشب» (الإسم الذي يطلق على هذه الحلوى، هناك) أو أن نطفئ ظمأنا بقنينة «كروش»، «بشيت» (نوع من «أورانجينا») أو بـ«سيليكتو» (تلك الليمونادا السمراء من نوع حمود بوعلام، بمذاقات مضمونة 100 % اصطناعية، والتي كنا نفضلها)، هذه الوجوه المختلفة عن تلك التي لـ «لاجئي الجزائر» البؤساء الذين صاروا كذلك، بمرسيليا ؛ وجه مامي روني، جدتي من الأم، التي هي أول من يستيقظ بالبيت (باستثناء والدي الذي يكون قد ذهب إلى محل عمله منذ وقت مبكر فعلا)، فأهاتفها كل يوم على الساعة السابعة إلا عشرا، بعد قراءة مجموعتي القصص المصورة، على البطن مستلقيا في الممر (ثلاث صور في كل واحدة)، من توقيع «گي ليكلير» و«بيبيل وإيليكو» بـ«جريدة الجزائر» التي توضع تحت الباب، نعم، مامي روني التي كنت أعشق النوم في سريرها مساء يوم الأربعاء، بشارع ألفريد-لولوش، بمبرر أنها كانت تمتلك تلفازا وأن اليوم يوم عرض مسلسل «إيفانهوي» من بطولة الشاب روجي مور، مامي روني التي كانت دائما تسألني إذا ما وضعت «مسحوق أرز» أكثر من اللازم على أنفها قبل أن تخرج لملاقاة مسنات صديقات لها بحانة فندق أليتي (وكانت دائما تضع منه بإفراط) ؛ ذاك الذي كان يخص العامرية، تلك الخادمة ذات الرجلين المعوجتين (كانت قد أصيبت بمرض البوليومييليت، أي شلل الأطفال، في طفولتها) وهي تغسل «أرضية» البيت، الذي هو على الرغم من ذلك يشع نظافة، بضربات من قماش التجفيف وبكميات كبيرة من الماء الذي، من فرط حرارة العاصمة،

يتبخر بمجرد ما يصب فأرقبه وهو ينمحي، مندهشا، من على رسومات الأرابيسك ذات اللون الأحمر الغامق والأصفر التي تزين الزليج، أو كشريك متواطئ، أشتري لفائدة أختي تلك الشوكولاتة، مما وفرته من مال زهيد، ذلك أن والدينا كانا يمنعانها من الحصول على المزيد لأنها كانت تفرط في أكلها، أقصد تلك الشوكولاتة-الحلم التي كانت تباع بمتجر البازار والعقادة الكائن بشارع دوجانشي ؛ أو السيد تروكانوف، أيضا، صاحب الدكان الأحمر الوجه «الروسي الأبيض» العنصري، الذي كان يبيع، قبالة بيتنا بالرقم 13 محج كلود-دوبوسي، العلك ومسحوق السكر بطيب الفواكه «بيبرين» (*biberine*، كان يجب أن يرتشف بالأنبوب وكنا أنا وأختي الصغيرة نحبه بجنون)، إلى جانب مقلمات «سيرجان ماجور» المصنوعة من البلاستيك، باللون الأزرق للفتيان والوردي للفتيات، والتي بداخلها ثلاثة تجاويف مختلفة الأشكال لتعلم كيفية تصويب الأصابع عند الكتابة ؛ ثم السيد رووطولو، صاحب مجزرة الخنزير، وجاره الذي كان يشتكي دائما من عدم تمكنه من قراءة عداد الميزان عندما يزن نفسه بسبب حجم بطنه الذي يمنعه من ذلك ؛ أو السيدة ذات العقيصة (*chignon*) التي تشبه عقيصة دمية من دماها، صاحبة المحل المسمى «لا بوتيك»، أعلى قليلا على الرصيف المقابل، أمام سينما «لو دوبوسي» (*Le Debussy*) تقريبا (كنا نرتاد هذه القاعة لنشاهد كل أفلام رعاة البقر بالتيكنيكولور التي كانت تعرض)، حيث كان والدي يشتري لي عساكر رصاص أخرج بها فيلما أنا أيضا، مقابل مبلغ 50 فرنكا القديمة البخس والثمين في آن، لفائدة أختي الصغيرة التي كانت تبكي حتما لموت البطل المحتوم، ذلك المحل الذي تعرض غيرما مرة للتفجير ليلا بـ«البلاستيك» من طرف منظمة الجيش السري «*OAS*» (والذي، حين نمر من أمامه، صباح الغد، كانت والدتي، رغم عدم فهمي للأمر، بما أن أطفالا آخرين كانوا لا يترددون في فعل ذلك، تمنعني من التقاط لُعَبه

التي كانت تجلل الرصيف) ؛ أو ذلك الذي كان للسيد فيكتوري، آخر معلم مدرسة مررت به (بعد السيدة فيكس والسيد گودو)، والذي كان يصطفي، كل صباح، من يستحق أن يكون له شرف التعيين لملء المحابر المزروعة في طاولاتنا الصغيرة ؛ أو حتى عمار، صديقي في الجهة المقابلة (ابن محمود، الرجل الأنيق الذي اختفى ذات يوم، والذي قيل إن جبهة التحرير الوطني اختطفته، في الواقع الرجل التحق بها لأنه ظهر مرة أخرى يشع كرامة بعد الاستقلال)، صديقا كنت أدخل معه في نقاش مرارا (لكن في أي موضوع؟) حتى حلول رطوبة المساء، من شرفة إلى أخرى، أو حتى ذلك الذي كان لمامي روني، جدتي من الأب، التي كانت تجلس على عرش الملكة الأم، الأريكة الجلدية المغطاة بأثواب مزركشة، مع ساقها الذي غزته الدوالي المحمي في حشمة بجورب أسود يستريح على مسند صغير، والتي لم أرها في حياتي تغادر شقتها الكبيرة بالرقم 4، شارع لافيريير حيث، كل يوم في ساعة المقبلات، كنت أذهب لمشاهدة مسلسل «رانتانتان» («ذلك الكلب، لا ينقصه إلا الكلام»، كانت تقول جدتي باستمرار عند نهاية كل حلقة) ثم لألعب بكرة من القماش في الممر الطويل بصحبة أبناء عمي، فيما يكون أبناؤها، والدي وأعمامي، منهمكين في التعليق، وهم يرتشفون شراب اليانسون، على «الأحداث»، أي الحرب وبدون شك، «المغادرة» ؛ وجه محمد، كلودو اللطيف الذي، مقابل بضعة قطع نقدية، ينزل صناديق القمامة عبر المصعد، في اليوم الذي، ثوان فقط بعد مرور سيارة بوجو سوداء ببطء بشارع ميشلي، والتي على مسافة عشرة أمتار مني أنا الذي كنت أتبعها في طريقي إلى المدرسة، انفتحت نافذتها ليبرز مدفع رشاشة، كان ملقى على الرصيف وحول بطنه حزام من ثقوب صغيرة تنزف دما، وهو يحاول أن ينطق بصعوبة فقط دون أن يفهم شيئا، «آي يما، آي يما» ؛ ووجوه أخرى كثيرة، عزيزتي ليلى، وجوه أخرى لا تعد ولا تحصى...

وجوه، روائح، مذاقات أو أصوات لم تعد تُرى، تُشم، تُتذوق أو تُسمع، والتي عبرت إذاً معي المتوسط... بحر، جواني، مع ذلك، استعارة مطابقة لذلك الذي أسبح به في فصل الصيف (لكن منذ الآن دائمًا على الضفة الأخرى)، يفصلني عنها. لأنه، نعم، بحرٌ ذلك الذي يفصلني اليوم عن طفولتي. اليوم، وبخلاف آخرين كثر، أن أزور فضاءات هذه الطفولة، أرى من جديد الشوارع، البيوت، البساتين التي هي جزء من حميمياتي، التي كانت تأسيسية إلى حد بعيد بالنسبة إلي، معناه أن أطأ، كما تعرفون، أرض بلد «آخر»، أن أتوجه إلى «الخارج». كي أسافر إلى الطفولة، يجب أن أحصل على تأشيرة.

وفيما يخص طفولتي «اليهودية»، يجب علي أن أقول لك، عزيزتي ليلى، وللفرنسيين (كنت سأكتب «للفرنسيين الأقحاح») الذين بإمكانهم أن يقرأوا هذه الصفحات المعدودة، لفرنسيي فرنسا، يهودا أو لا، إنني، لا، لم تكن لدي بالجزائر، من طفولة «يهودية». ليس، في جميع الأحوال، بالطريقة التي يمكننا أن نتمثلها بها، وأنا أتخيل نفسي أسبح داخل تقليد توراتي معرب قليلا أو كثيرا، ووالدَيّ وأنا فيه نضحي داخل طقوس غريبة وطريفة في نفس الآن. ولا حتى إذا، من كلمة «يهودي»، فهمنا تماثلا مع صغار الكاثوليكيين الذين كانوا يذهبون يوم الأربعاء لتلقي التعليم الديني وإلى الكنيسة يوم الأحد، أو مع المسلمين الصغار المتفتحين في جو القراءة القرآنية والتقاليد الدينية العائلية. لم يسبق لي، بالجزائر أن دخلت إلى أبسط كنيس أبدا، ولا أذكر أن والديَّ عرفا به أي ربّي. وكان بيتنا — الذي لم يحتضن أي رمز للعبادة في أي مكان منه — يشبه بيوت كل الفرنسيين الكاثوليك، وكنا نأكل ما يأكلون. ذلك لأن مرسوم كريميوه، أليس كذلك، قد مر من هنا (الـ«الديكريميوه»، كما كانا يقولان وهما يبتسمان، إثنان من كبار يهود الجزائر، هيلين سيكسو وجاك دريدا) : في

زمن أجداد أجداد أجداد أجدادي، بعد حوالي خمسين سنة عن غزو فرنسا للجزائر، اقترح هذا المرسوم، الصادر في 10 أكتوبر 1870، والذي انتزع انتزاعا من أيادي الغرفة بمعرفة النائب «أدولف كريميوه»، على «اليهود الأصليين بالجزائر» أن يصيروا، بين عشية وضحاها، مواطنين فرنسيين، ما قبلوه كرجل واحد. وفي ثلاثة أجيال أو أقل، استطاعوا أن يغيروا جلابيبهم التقليدية ويتبنوا البدلة الكاملة، ويتحدثوا الفرنسية كما يتحدث بها فرنسيو فرنسا (ما أكثر المرات التي سمعت فيها والدي يصحح غاضبا خطأ لغويا ارتكبه منيع بالراديو أو التلفزة!)، هكذا بدأوا يفقدون تمكنهم من العربية تقريبا (بعد أن لم يعودوا يتكلمون العبرية منذ زمن): جداتي، هن الأخريات، إذا كن يتحدثن الفرنسية بشكل طبيعي، فإنهن كن لا يزلن يستطعن تجاذب أطراف الحديث بالعربية مع العرب؛ أما والدي الذي كان يكبر والدتي سنا، من جهته كان يفهم العربية لكنه لم يعد باستطاعته أن يتحدث بها إلا بشكل سيء (كان يعرف منها تعابير كثيرة لكنه لم يحاول مرة أن يركب جملا)؛ وأما والدتي، فإنها لم تكن تملك منها ولو كلمة واحدة، تماما مثلي أنا كذلك. وفي كثير من الأوقات يرفقون كلمة عربية بمقابلها الفرنسي، حين تأتي عفويا، كما يفعل، على أوراقهم الإدارية ولوحاتهم الإشهارية، البلجيكيون المتورطون في حرب اللغات الوالونية-الفلامانية: حيث لوصف امرأة تعيسة، كان يقال في نفس واحد «خايبة، لابوفر» (*khaïba la pauvre*)؛ وحيال حدث غير سعيد ممكن يلوح في الأفق، كانت عبارة (الله يسترنا، *Que Dieu préserve*). فيما القليل ما حافظوا عليه من تقاليدهم، كان بعض الأعياد النادرة والمتكتمة، التي ترجموا أسماءها، أشياءهم، أفكارهم، رغباتهم، كما الباقي إلى الفرنسية (أي إلى المسيحية): «الختان» أصبح «التعميد»، «بار ميتزفا»، «الاتحاد في الإيمان»، «كيبور»، «الصفح العظيم» (هذا العيد، الذي يقتضي

الصوم يوما كاملا، كان الوحيد، على حد علمي، الذي كنا نحتفل به، لكن الرجال كانوا يعتبرونه، بالأخص، كفرصة لتناول وجبة عشاء غنية مساءا بصحبة أزواج من المعارف، والنساء، للمحافظة على رشاقتهن، أما الأطفال الذين كنا، فللتصرف كالكبار). نعم، بمجرد ما كان يهود الجزائر يحصلون على بطاقة «الهوية»، فإنهم يفعلون كل شيء ليفقدوا هويتهم. من يهود «عرب»، صيروا أنفسهم، لا يهودا «فرنسيين»، بل «فرنسيين» يهودا : كي يكفوا عن الوجود كعرب، فإنهم أفقدوا أنفسهم كينونتهم كيهود تقريبا.

أخذوا اللغة، اللباس، نمط العيش وحتى التفكير الذي كان لـ«المحتل»، أمكننا أن نقول هكذا. لكن يمكن للأمر أن يقال بطريقة أخرى. بالنسبة إليهم، المحتل، كان دائما هو العربي. وأغلبهم كان يساكن الأمازيغ، حوالي سبع مائة سنة قبل المسيح، قبل حتى أن يغزو العرب أو الأتراك الجزائر بزمن طويل. التشبه بالفرنسيين، التحول إلى فرنسيين، كان ذلك، بمعجزة، نعمة التجرد من علامات الدونية. إذا كانوا يخفون هويتهم كيهود، أو على الأقل لا يظهرون أمام الملأ كذلك، فقد فعلوا لأنهم لم يعودوا يريدون أن يبقى شيئا يذكرهم بالمهانة. يهوديتهم، التي كانت في حدها الأدنى، بقيت مرموزة. لقد اخترعوا «مارانية» جديدة ؛ ليس، هذه المرة، لأن آخرين منعوهم من أن يكونوا يهودا، كما فعل المارانيون الأولون، لكن لأنهم منعوا أنفسهم من أن يكونوا كذلك، لقد أرادوا أن يذوبوا في الكوني. لم يقرروا أن يكونوا أطفال فرنسا المحتلة، لكن فرنسا وطن الإعلان «العالمي» لحقوق الإنسان. وقد كانوا يشبهون، إلى حد كبير، فعلا، فرنسيي الجزائر «الآخرين»، أحفاد المولودين بالجزائر (*pieds-noirs*)، الذين كانوا، في الغالب، من أصل إيطالي أو إسباني !). أما نحن فكنا يهودا من الجزائر العاصمة. «من الجزائر العاصمة نفسها»، كما كان يقال هناك. باستثناء يهود «شارع لا لير»، الذين كانوا يعتبرون، كيهود

قسنطينة، «متخلفين» (أي ليسوا بفرنسيين كفاية وعربا أكثر من اللازم). أما يهود الجزائر العاصمة فكانوا، في غالبيتهم، الأكثر «اندماجا»، كما يقال. لكن لاضطرارهم إلى ترجمة كل شيء، فقد حولوا أنفسهم بأنفسهم. غيّر فعل الترجمة الموضوع المعروض للترجمة. وفي نفس الوقت الذات المترجمة. هذا النوع من «سوء النية» الذي كان فيهم ليس بنفس الطالع الذي كان لهذه الأسرار المخجلة والخارقة التي يتم كتمانها بحرص شديد أحيانا عند بعض عائلات فرنسا وجهات أخرى. لا، سوء نيتهم هم كان «صادقا» : يهود العاصمة انتهوا فعليا بـ«نسيان» أنه تم تعريبهم. هكذا، باعتبارهم، «جزائريين»، عند بعضهم منذ 700 قبل الميلاد (عائلة والدي على الأرجح)، وعند البعض الآخر، منذ أن تم طردهم من إسبانيا والبرتغال بقرار من الملوك الكاثوليك (على الأرجح عائلة والدي)، غادر يهود الجزائر هؤلاء باتجاه بلد«هم»، فرنسا، سنة 1962.

لكن «اليهودي»، كما تعرفين، يا ليلى، دال تائه بامتياز. كلمة غريبة، أليس كذلك؟ بوصفها طيفا، تعبر حدود كل تعريف يدعي حبسه أو التقليل من قيمته. «اليهودي»، أليس كذلك، إنه يعود دائما. بالجزائر العاصمة، في حضن عائلتي، كان يتم الإبقاء عليه. وقد فضل عليه، ويا للغرابة، كلمة «إسرائيلي»، التي قدر أنها أكثر لطفا. «يهودي»، كانت الكلمة المناسبة عند «الآخرين»، «الكاثوليك». للشتيمة. (كان ذلك ربما حدسا كراتيليا : «إسرائيلي» هي كلمة أطول من أن تركب شتيمة فعالة، بينما «يهودي»...) و«يهودي»، كانت كلمة إذن، لا تمشي لوحدها، بل مسبوقة دائما تقريبا، حتى لتظهر كما لو كانت تشكل معنى واحدا مع كلمة بنفس قصرها، «قذر!» : «يهودي قذر!». ومع ذلك فإن الكلمة كانت تدخل البيت، من وقت لآخر. عبر فمَي والديَّ، اللذين كانت نبرة صوتهما تنخفض دائما بشكل غامض، وكان ذلك في كل مرة يبدوان فيها مقدرين

لشخص ما أمكن لمسيحيين أن يقدروه. أحيانا لا ينطقان إلا بالحرف الأول، تماما كما لو كان رمزا، إذ كانا يقولان بصوت خفيض، وشيء من الفخر السري: «هو، إنه ي.»... «منديس فرانس، بلوم، أو أينشتين، فرويد هم ياءات.»

وفي يوم كانت لي ست سنوات من العمر، أمسك بي صغير مشاغب (أو إن والديه كانا كذلك) من الطوق في سلم مدرستي الممتدة من شارع فولتا حتى شارع ميشلي ثم قال لي، بتلك النبرة من التواطؤ المعادي والمتهكم الذي يكون في من كشف سرا وقرر أن لا يفصح به للناس شريطة أن يركع المذنب، كلاعب جيد، أمامه ويعترف: «قل لي إذن، هيا، أنت يهودي، أليس كذلك؟» وأذكر أنني أجبته بـ «صدق» كامل لدرجة أن الموقف ما زال يضحكني إلى اليوم لطرافته: «لا، أبدا، أنا إسرائيلي.» «آه، آسف»، رد وهو محرج تقريبا، مبرهنا في نفس الوقت أن كل ما كان يعرفه عن اليهود، من أعلى سنواته الست، كان فقط إمكانية كراهيتهم. ولأن والدتي قالت لي مرة: «اليهودية، ليست عرقا، إنها ديانة. نحن فرنسيون. أنت فرنسي، يا قرة عيني. هناك فرنسيون كاثوليك، فرنسيون بروتستانت وفرنسيون إسرائيليون. نحن إذن فرنسيون يهودا.» أذكر هنا كذلك أنني لم أندهش عند سماع هذا الكلام ذي التضمينات المسيحية مع ذلك (لكنني لم أكن أعرف شيئا عن الأمر حينها). ولا وأنا ألاحظ استبعاد كلمة «يهودي» لفائدة كلمة «إسرائيلي». ومن ثم، فهذه الديانة التي كان يحكى لي عنها، والتي كنت أرى تجلياتها عند الآخرين، لكن ليس عندنا، بما أننا لم نكن ملتزمين بشيء منها، لا يمكن إذن أن تكون... إلا ما «كُتّاه»! لكن هذا لم أذهب إلى حد التفكير فيه، ذاك اليوم.

ولا أذكر أنني تعرضت للشتم باليهودي القذر، إلا مرة واحدة، كنت في السابعة أو الثامنة، أمام شجرة بالساحة الصغرى لمدرسة شارع فولتا،

حين كنا نلعب بـ «نوى المشمش» (أكوام صغيرة مكونة من خمس نوى مشمش، وكل كومة كانت موضوعة على مسافة مترين منا، حيث كان يجب علينا أن نسقطها بنواة أخرى؛ وحين نفشل في ذلك، تبقى النوى على أرضية الساحة؛ لكن من يكون له حظ تدمير آخر كومة يربح كل النوى؛ الأكثر مهارة فينا كانوا يتجولون في الساحة حاملين أكياسا كبيرة من القماش ملأى بهذه النوى) وحين كنت في طريقي إلى الفوز في اللعبة. لكن إذا كانت الشتائم المباشرة، الواضحة، نادرة بالنسبة إلي، فغير المباشرة، كانت رائجة. كلمة يهودي كانت شتيمة جارية عند الأطفال بالمدرسة، شتيمة غاضبة، كان يتبادلها المسيحيون الصغار في ما بينهم، كما لو قالوا «وقح» أو «حقير» أو، بالأخص، «بخيل»، وكان يجب، في هذا الوسط، أن نتصرف كما لو أن شيئا لم يكن. أو أننا لم نسمع، أو في أسوأ الأحوال، أن نضحك مع الآخرين. توقيع الشتيمة بالاشتراك. إهانة الذات. ومع ذلك، عندنا، كانت الكلمة «الله» (والتي كان ينطق بها، في الغالب، كما يفعل المسيحيون : «الله الكريم» (*Bon Dieu*) تسمع أكثر مما تسمع عند عائلات رفاقي الكاثوليك. نعم، كانوا يحضرون دروس التعليم الديني أو إلى القداس، لكنهم سرعان ما بدوا لي «معفون من الله.» لم يكونوا يتحدثون عنه أبدا. ويعيشون حياة «علمانيين». بينما داخل عائلتي، وعلى النقيض، كان والدي، أعمامي، جداتي، يضعون الله في كل شيء، بلا استثناء. ومن هنا، ذلك الانطباع الغريب أنه، عندي كان كل شيء أثقل، «أعمق»، أكثر ملحمية، أسطورية، أكثر انغماسا في الروحانية، أكثر رصانة، أيضا، مما هو في مكان آخر. عندنا، ليس هناك من دين، لكن الله أكثر حضورا من أي جهة أخرى، في كلماتنا وأرواحنا... أرأيت، عزيزتي ليلى، كل هذا ليس بسيطا. يهودي فرنسي من الجزائر، فرنسي من الجزائر يهودي، جزائري يهودي فرنسي – هذا التردد

للتعبير عن نفسي ومن أكون يبدو كمؤشر، والرغبة في الكونية التي بدأت بها كلامي يمكن أن تكون نتيجة هذه الصعوبة، أليس كذلك؟ وتلك المقاومة نفسها في قول طفولتي اليهودية بالجزائر، سيكون ذلك هو قولها، هذه الطفولة اليهودية بالجزائر — لكن هذا، لا، لا أظن، ليس حقيقة — ولدت بـ «فرنسا» (المزدوجتان ضروريتان) مفصولة عن فرنسا (كان يقال الميتروبول) ببحر، في بلد صار بالنسبة إلي منذئذ أجنبيا، تحت جنسية مزدوجة الهشاشة - لست فرنسيا تماما عند فرنسيي فرنسا. بما أنني من الجزائر، لست فرنسيا تماما عند فرنسيي الجزائر (والعرب!) بما أنني يهودي، ويهودي، نعم، لكن بالفضيلة وحدها، تقريبا، التي لهذه الكلمة، بما أنها يهودية مرموزة حتى الغياب - لست جزائريا «حقا»، إذن، لست فرنسيا «حقا»، ولا يهوديا «حقا» (حتى ولو أنه، في محيط معادٍ محتمل، يمكنني أن أحمل على عاتقي بدون تردد كل واحدة من هذه الكلمات)، كيف، عزيزتي ليلى، أسألك، كيف تريدين، حتى لو قبلت الفكرة، أن أتحدث لك عن «طفولتي اليهودية الجزائرية»؟

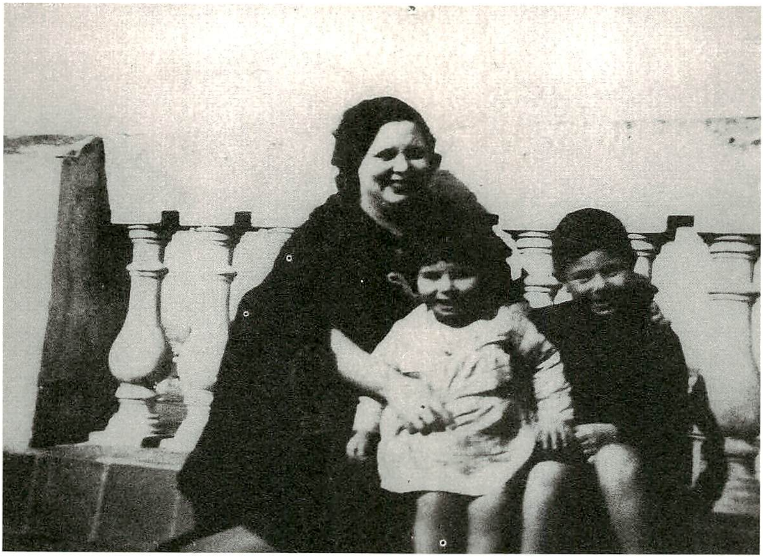

محاطة بوالدتها وأخيها إيف، نينا مواتي، سنة 1943، على سطح عمارة جديها،
ساحة فيردان بتونس العاصمة.

رسالة مفتوحة إلى أحفادي أدريان، إيليا، رافائيل وأنا

تونس العاصمة، ساحة جان-دارك

نينا مواتي

في يوم مضى طلبت مني أن أتحدث عن أجمل ذكرى في طفولتي. وقد أجبت على التو : فترة الحرب، في نظر من يكبرني سنا. فهمت أنني ارتكبت خطأ. كانوا يعرفون كل شيء عن الحرب. أصبح إذن من الضروري تقديم تفسير.

لقد ولدت بباريس، قبل فترة قصيرة من اندلاع الحرب، لماذا باريس، فيما أنا بالنسبة إليكم أنتم الأربعة رمز تونس التي تحبونها كثيرا ؟ ببساطة لأن والدي، سيرج مواتي، الصحافي ورجل السياسة الفرنسي بتونس، حيث استقرت عائلته الإيطالية الأصل، كان يطالب بالمزيد من الحرية والاستقلال للتونسيين. كان هذا البلد آنذاك تحت نير الحماية، محافظة فرنسية تقريبا. وبالنسبة إلى المقيم العام في تلك الفترة، فإن هذا الموقف كان غير مقبول. هكذا تم طرد والدي، الذي التحقت به والدتي وأخي الأكبر، إيف، نحو فرنسا. وقد استقبله أصدقاؤه الاشتراكيون بحفاوة وصار بعد ذلك صحفيا بجريدة «لوبوبولير» (*Le Populaire*).

رأيت النور والحرب تلوح في الأفق والخطر النازي يتسارع احتداده. احتلت باريس. ونصحنا الكثير من المنفيين الألمان، النمساويين والبولونيين بالعودة إلى تونس. فلجأنا بعض الوقت بمنطقة النورماندي

قبل أن نتجه نحو مارسيليا ونركب آخر سفينة نحو تونس، حيث تم استقبالنا كأبطال. تخيلوا، عائلة بكاملها أفلتت من براثين النازيين!

عند وصولنا إلى حلق الواد، تغيرت حياتي. عربات مجرورة، سيارات، أصدقاء والدينا الذين كانوا ينتظروننا ويصيحون بأسمائنا تعبيرا عن حرارة الترحيب. وقد رافقونا طيلة مسافة الطريق ومنبهات سياراتهم لا تتوقف. يا له من استقبال رائع، لم يسبق لي أبدا أن رأيت هذا العدد من الناس. كنت أسبح في بحر من الأحضان. وضمني إلى صدورهم أناس لا أعرفهم. كنت بطلة صغيرة، أميرة من باريس.

عرفت أخيرا وليس آخرا أجدادي، عطفهم، ضحكاتهم وحبهم للحياة، كانوا يغمرونني حنانا وحلوى بالعسل. ثم وجد والداي شقة لاجئين، بممر گرامون - زقاق باتجاه واحد بين محجي لندن ومدريد. هكذا تكدسنا مع جدتي الأخرى لكننا كنا سعداء جدا ونحن معا، كانت والدتي تستقبل صديقاتها اللائي كانت عطور باريس الراقية لاتزال تضوع منهن، ووالدي كان يعمل، وأنا ألعب مع أطفال جيراننا بالشارع.

لكن سرعان ما سيغزو الألمان نعومة تونس العاصمة. وهكذا حجبت الحرب الشمس الساطعة لبلدي.

منذ نونبر 1942، كان والدي يختفي كل مساء. وكانت جدتي ووالدتي تنتظرانه حتى الفجر. لم تكونا تسألانه لكنني كنت أخمن أنهما فخورتين بغياباته التي وجب أن يكون لها معنى مجيدا بما يكفي.

وفي يوم، أتى محمد «ب»، عَرَّابي المسلم — والذي صار بعد استقلال تونس سفيرا بمصر — ليناقش والديَّ في أمر ما. بعدها جمعنا أمتعتنا. من الآن فصاعدا سيكون علينا أن نغير مسكننا كل مساء. كان والدي مبحوثا عنه لنشاطاته كمقاوم. ليلة عند عمتي ليفيا، أخرى عند أولغا، ليلتان أو ثلاث في القصبة عند عرابي، وهكذا. كانت هذه الحياة المتسكعة

تعجبني، يجب علي أن أعترف بذلك. وفي إحدى المساءات، حين كنا عند واحدة من بنات عمي، دوت صفارات الإنذار. كنا معتادين على المسارعة إلى القبو، لكن في هذا المساء رفضنا أنا وأخي الذهاب إليه. لم نعد نقبل فكرة أن نجد أنفسنا في الظلمة والخوف. هكذا تنازل والديَّ وصرنا نحتمي من القنابل في خندق قريب منا. هذا الحدس الطفولي أنقذ حياتنا : انفجرت قنبلة داخل العمارة وقتلت عدة أشخاص.

كان والديَّ يعتقدان أن المكتوب هو المكتوب، وأنه من العبث أن نغير مسكننا كل مساء. ثم قبلا بكل سرور اقتراح واحد من أصدقاء العائلة : الإقامة بحمام مهجور بمحج لندن. كان يتمتع بامتياز لامثيل له : باب خدمته يفضي إلى مقبرة يهودية، مهجورة هي الأخرى. وفي هذه المقبرة، تم حفر خنادق حقيقية مغطاة بألواح معدنية تشبه تلك التي استعملت في فيردان وصارت ملجأ عند أقل استنفار.

هذه المقبرة كانت بالنسبة إلي مرفأ سعادة في خضم الحرب. عائلات يهودية كثيرة، تم حجز فيلاتها من الألمان، وجدت فيها ملجأ آمنا. كل واحدة كانت تأخذ مكانها داخل مربع صغير، بدون شك، مكان راحة بعد فترة التعرف التي تصاحب نشاط الحمّام. كنا ننام نحن الأربعة في المربع نفسه وكنت أقاسم والديَّ سريرهما. يا لها من سعادة، نهارا، كان الجو هادئا. تنهمك النساء في إعداد أطباق الكسكس، الطواجين المتنوعة والمقروط بكل الأشكال. أما أنا فأقضي وقتي في التجول بالخنادق. فنجد عظام رجال دين مدفونين هناك منذ قرون. فئران، حمام منزوع الريش، شظايا قنابل سقطت ربما عشية. كنا نعود إلى «البيت» مصحوبين بجوائزنا، فتتنهد أمهاتنا، بعضهن يجلدن أنفسهن وأخريات يصرخن أمام تهورنا.

وفي المساء، يبدأ ماريوس، الكلب الذي كان جزءا من البيت، في النباح، إذ أنقذت حاسة شمه عدة أرواح. كانت تلك هي إشارة الخطر

المحدق. بعدها يهب المسنون، الأطفال، النساء والرجال واضعين أقرب آنية طبخ إليهم على الرأس مسارعين إلى الخنادق. بفضل ماريوس، كنا نحصل دائما على أفضل الأمكنة.

وفي كل مساء جمعة، يكون الاحتفال. تضع النساء على موائد خاصة كسكسهن الشهير، الكويرات الذوابة، شوربتها، ولم تكن تنقص ولا واحدة من السلطات، أقسم لكم، كنا نتلذذ بالأكل فيما القنابل تتساقط. في كل الأحوال كان ذلك مكتوبا، بعدها، كان يتم طي الشراشف، وتتحول الموائد المستطيلة إلى طاولات لعب. ينخرط الرجال في أشواط «سكوبا» أو البوكر حتى الفجر. وحين يكون الجو باردا، يبقى الجميع بالحمام ويعزف كانجي أنغاما شرقية من أداء حبيبة مسيكة، راوول جورنو أو علي الرياحي. فتطفق النساء ترقصن محركات أردافهن والبطون. وكنت أنا أقلدهن.

وفي ليلة، سمعنا دقات على الباب الكبير. فقال والدي: «إن الأمر يعنيني.» إذ جاء البوليس الفرنسي بأوامر من بيتان لإلقاء القبض عليه بتهمة أنشطته كمقاوم. فبكى أخي كثيرا. ليجيبه «متعاون» : «لسنا نازيين. والدك سيعود.» ثم أخذني والدي بلطف بين ذراعيه وهمس لي : «اعتن جيدا بوالدتك.» وصارت والدتي تذهب كل يوم إلى مكاتب مختلفة لتسأل عن والدي. بلا طائل. ثم في يوم من الأيام، علمت أن طائرة ستنقل سجناء إلى ألمانيا. عرض عليها عمي أن يرافقها إلى المطار. لكن الطريق تعرضت للقصف وكان عليهما أن يغادرا السيارة ليتخذا ملجأ بأحد الوديان. هكذا شاهدت والدتي فوق رأسها الطائرة التي نقلت زوجها نحو معسكر اعتقال نازي.

ثم ابتداء من هذا التاريخ، صارت الحياة أقل مرحا. كل واحد يبكي إما أخا وضع بمعسكر أشغال شاقة، أو عما ضحية حملة اعتقال. ووالدتي، زوجها. أنا، من جهتي، كنت أغامر وحيدة، كما لو لم يبق لي ما أخسره، في الخنادق، بعيدا، في كل مرة أبعد من سابقتها.

وفي إحدى المرات ضللت طريقي. إلا أن بعض الأشخاص الراشدين الذين سمعتهم يتحدثون بالعربية أتوا لينقذوني، ولم أستطع أن أدلهم على المكان الذي أعيش فيه. كنت أبكي، وفجأة، أحاط بي ذراعان، دموع، لمسات، كلمات تنزف حنانا، عطر «الساعة الزرقاء»، كانت هي، لقد عثرت علي.

ماي 1943، التحرير أخيرا. كل تونس تجمعت بمجمع لندن، سكان الحمّام على رأس المتجمهرين، لتوجيه التحية للأمريكيين. كان الجميع يرميهم بالحلقات الملونة، الزهور، مغنين «إنها لطريق طويلة» (*it's a long way*). كانت والدتي تبكي من فرط التأثر فقلت لها:

«سيعود، لا تقلقي.» وفي سيارة جيب يسوقها أمريكي أسود قمت بدورة كاملة في المدينة، ثم أعطاني علكا، هو الأول في حياتي. هكذا كنت أخلص تونس العاصمة المأخوذة بجنون الحرية.

لم يبق أحد بالحمام. وعاد جيراننا أيام الأكواخ المربعة إلى فيلاتهم المحجوزة وبعد فترة قصيرة استرجعنا شقتنا نحن كذلك، والتي كانت حزينة في غياب والدي. وكما العادة لم تترك والدتي نفسها تستسلم للمأساة. فبدأت تعمل لتصون كرامتها. جاءتها فكرة أن تصنع أحذية. كنت أرافقها إلى الأسواق لشراء الأساسات من ألياف الرافيا، ثوب الساتان، المخمل، الثوب البراق، بضعة أمتار من ريش البجع وبطبيعة الحال تباريق بكل الألوان. فتحول الصالون إلى ورشة صناعة تقليدية. هكذا اقتنى عدة عسكريين أمريكيين لزوجاتهم أو لـ «خليلاتهم» أحذية شرقية لا تقاوم. فاستطاعت والدتي بذلك أن تعولنا بكرامة حتى عودة والدي الذي وضع بمعسكر ساشزنهاوزن، قريبا من برلين...

كان رجوعه في شهر شتنبر 1944 بعد تحرير باريس الذي شارك في تحقيقه. جمهور عظيم كان في انتظاره. ولم يتعرف علي في البداية، لأن العدد

الهائل من الأطفال الذين كانوا يتنافسون في عناقه لم يتركوا له المجال... أما أصدقاؤه الذين كانوا يحملون أسماء بجرس يهودي، ليفي، كوهين أو هادريا، فلم يعودوا. لقد اختفوا بأوشفيتز. من حظ والدي أنهم ظنوه إيطاليا. ثم عاد إلى مهنته كصحفي ورجل سياسة. واستقررنا في فيلا رائعة قرب ساحة جان-دارك، بالبيلفيدير.

أعزائي، أنتم تعرفون تتمة حياتي...

بفضل حب والديَّ ووطني، تونس، في كل مرة أعود يكون الانطباع أنني أعود إلى بيتي. رؤية ابتسامات النساء، اهتمام، لطافة، عطف كل واحد، جمال بوقرنين، البحر، شجر السرو، رائحة الياسمين، النباتات البنفسجية التي تغطي الأسوار البيضاء، نعم، لأجل هذا ستبقى تونس دائما بلد قلبي.

هذا هو ما يفسر لماذا، أنتم، يا كباري الثلاثة، تقولون عن أنفسكم إنكم «تونسيون». وما يكون رأينا في آنا، ثلاث سنوات ونصف، والتي قالت لي يوما ما : «مامينا، لقد حلمت حلما عجيبا، كنا نحن الاثنتان في سريرك الذهبي، لقد تبادلنا «الحالي» (الملاطفات)، وكنا نشرب الـ«مسار» (ماء زهر البرتقال) ونشاهد فيلما للراشدين»... في كلمة واحدة، قمة «الكيف».

ألدو ناوري، عشر سنوات تقريبا، حوالي 1948، بأورليانسفيل (الشلف، اليوم).

حاشاكم...

أورليانسفيل (الشلف)، شارع الشمال

ألدو ناوري

ربيع 1981، لقد أخذناهما في عملية استيقاف. أستاذان اثنان، واحد في الفيزياء، الآخر في التاريخ. كانا قد ذهبا إلى مرس الكبير «لتناول بضعة قناني من الجعة». فقدمت نفسي قائلا إنني سكنت بجزائر الاحتلال وإنني أعود إليها لأجعل زوجتي تكتشف البلد. هكذا اقترحا علينا أن يكونا دليلينا في زيارتنا إلى وهران. وقد قبلت مع أنني كنت أعرف هذه المدينة بشكل كامل.

توقفنا قبالة ثانويتهما، التي حكيا لنا عن تاريخها، كان اسمها في السابق ثانوية لا موريسيير حيث اجتزت الامتحان الشفهي بمستوى الثانية باكلوريا. فانتهيا بتوجيهنا نحو ساحة الثورة، ساحة «الأسلحة» (*Place d'Armes*) سابقا، مقابل البلدية. هكذا أخذا مبادرة أن يسميا الشوارع المختلفة التي تلتقي عندها بأسمائها القديمة والحالية. «وأعلى قليلا، يطل شارع كان يسمى سابقا «حاشاكم»، شارع اليهود... » لم تسمع زوجتي هذه الـ«حاشاكم»، وهي واحدة من العبارات الاستشراقية التي يضيفها المتحاورون المحليون، مع كثير أو قليل من السعادة، إلى فرنسيتهم.

حين كنا لوحدنا، حاولت أن أشرح لها أن الأمر يتعلق بترجمة عبارة مجاملة، «حاشاك»، التي تقال لتجنيب المستمع الحرج حين لا يمكن

للحوار أن يتفادى التعرض لأشياء قذرة، وقاحات وكل ما يخدش الحياء. تلك الأصناف التي كان اليهود يشكلون جزءا منها. وقد أضفت أنه لو قلت لمخاطبي إنني يهودي وفوق ذلك ناطق بالعربية، لوفرنا بالتأكيد الكثير من الكلام. لسبب بسيط أن لطف المعاملة العربي بإمكانه أن يجعل وقايته البنيوية ضد اليهود تأتي بعد الاعتراف بالجميل الذي أسديته لهما.

أنا سليل ثقافة عربية، وسأبقى. ولهذا فإنني أستطيع أن أتحدث كما أفعل. لغتي الأم هي اليهودية الليبية، لهجة كما في لغات مختلفة، إلا أن هذه هي عربية. إنها اللغة التي تكلمتها، منذ عدة أجيال، فروع عائلتي المختلفة. رغم أن عائلتي من الأب كان لها تفرد، إنه كونها بجنسية فرنسية. إن هذا الواقع هو الذي كلفنا، سنة 1942، الطرد من ليبيا. إذ قرر موسوليني حينها أن لا يبقى على تراب إيطاليا الاستعمارية أي واحد من رعايا الدول التي كان معها في حالة حرب. تحت حماية الصليب الأحمر، تم نقلنا حتى التراب الفرنسي الأقرب، أي الجزائر.

وفي ظرف شهرين من السفر، وصلنا أخيرا إلى المدينة، أورليانسفيل، الشلف الحالية، حيث كانت طائفة يهودية في استقبالنا، مع الأرملة قبل الأوان التي هي والدتي وأبنائها السبعة الذين كنت آخر العنقود فيهم. هكذا عشنا استنباتا مزدوجا بل ثلاثيا. لم نكن نعرف كلمة واحدة في اللغة الفرنسية. وصرنا موضوع حب استطلاع ورفض من قبل الطائفة اليهودية التي شكل حضورنا بالنسبة إليها نوعا من السيكودراما : ألبستنا الغريبة وتديننا كان لها فعل عودة المكبوت الذي جعلها تربط الاتصال من جديد بالأجداد في الوقت الذي سحب إلغاء مرسوم كريميوه منها الجنسية الفرنسية. الأدهى بالنسبة إليها كان أننا حافظنا على هذه الجنسية، لأنها، كما سأكتشف ذلك عشرات السنين فيما بعد، منحت لواحد من أجدادنا بقرار من مجلس الشيوخ قبل حتى غزو الجزائر. فيما اهتمت

الساكنة العربية، من جهتها، بنا عن قرب، عارضة علينا المساعدة، ولو أن لهجاتنا كانت مختلفة. وكان أصدقاء أخي، الذي كان يكبرني بسبعة عشر عاما، يتفقدون باستمرار هذا البلد المبارك حيث، رغم الاحتلال، بقي اليهود قريبين من العرب والذين أتقنوا لهجتهم، مع تلقيحهم لها بتلك التعابير الغريبة التي صنعت منها لهجة. أذكر حديثا حضرته دار بين أخي وصديقه الجديد أحمد - الذي علمني القراءة حين لم أكن أكملت بعد السنة الخامسة من عمري. كان هذا الأحمد يحاول أن يقنعه باعتناق غضبه ضد فرنسا. فأجابه مرة أخي: «ببن كردان (المركز الحدودي بين تونس والجزائر)، لأول مرة في حياتي وجدت نفسي ينادى علي بـ«موسيوه» (سيدي). هذا ليس كما كان يفعل الإيطاليون الذين لم يخاطبوني إلا بعبارة «اليهودي الكلب، لا وطن ولا سلطان»، تماما كبعض العرب الذين لم يصفوني إلا بعبارة «يهودي كلب». فرنسا، من جهتها، قد أعادت لي كرامتي. إنها وطني.

إذا أمكنني أن أتذكر بوضوح هذه الكلمات، فلأنه حصل أن سمعتها من جديد، في اللحظة التي، وفي خضم حرب الجزائر، حاول نفس المسمى أحمد مع أصحابه أن يقنعوا أخي بشرعية النضال من أجل الاستقلال. هذا الأخير كان ينقل لي شيئا من ذلك حين، وأنا طالب باريسي عائد إلى بلده في العطلة، كنت أظهر دعمي لهذا الاستقلال. وكان يحصل لوالدتي أن تتدخل أحيانا في الحديث جاهرة بالصلاة التي عهدتها ترددها دائما: «اللي يحبولنا أو اللي نحبولهم يطيح عليهم» (فليسقط عليهم كل ما يتمنون لنا وما نتمنى لهم).

كان ذلك عبارة تتردد على لسانها باستمرار. سمعتها لأول مرة حين سألتها عن مشهد مأساوي طالما عاينت مجرياته المتكررة دون أن أتمكن من إيجاد معنى له. حصل ذلك حين كنت في السابعة. وكنا نسكن قرب

إسطبل هو عبارة عن «مربض ردع» عند الفلاحين الذين كانوا يأتون لبيع محصولهم في أسواق المدينة. كانوا يتركون به حميرهم أو بغالهم. ويحدث أنه حين يحاول أحدهم أن يسترجع حماره، فإن هذا الأخير يرفض أن يسير. فينهال عليه الفلاح ضربا. وبما أن ذلك لا يأتي بنتيجة، فإنه كان يضاعف الضربات، مع إرفاقها بالشتائم الموجهة إلى البهيمة، مستحضرا العاهرة التي كانتها أمه، القذارة التي كانها أبوه، الكفرة الذين هم أجداده، وهكذا دواليك، الكل في تصاعد يجد أقصاه في عنف لا مثيل له. ويحدث أن يتقدم الحمار. لكن إذا لم يفعل فإن الضربات تهطل عليه مطرا أقوى فأقوى، مصحوبة إذن بـ «كلب، ابن كلب» ؛ وهذه تفتح الطريق للشتيمة الأخيرة التي يُحتفظ بها حتى الآن كاحتياطي عنف : «يهودي، ابن يهودي، يهودي قذر، ابن يهودي قذر، اللعنة عليهم جميعا !»

في الواقع، لنا علاقات طيبة مع جيراننا المسلمين، وخاصة جاراتنا. كن يعجبن بالطريقة التي نتحدث بها اللغة العربية. وكان يحدث أن يفاجئن والدتي، وهن يدخلن عندنا، تغني بالعربية أو تستمع إلى الراديو. فيتمادين في أحاديث طويلة عن قربنا الكبير بعضنا من البعض مع تقاسمنا لنفس الإله الواحد، نفس التحريم للخنزير ونفس التقدير لأبطال تاريخنا المشترك، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، موسى، منهيات كلامهن بالأسف لكونهن يستطعن أن يأكلن أكلنا، على العكس منا وأننا نصر على عدم الاعتراف برسالة الرسول محمد كنبي خاتم. أعترف، من منطلق المسافة التي لي علاقةً بالموضوع، أنني لا أستطيع أن أتجاهل في خطابهن شكلا من الصراع، الاستحقاقي، بين العقلي والانفعالي، بين معيش اللحظة والاعتبارات العميقة التي ورثنها.

لكن أفظع أشكال معاداة اليهودية الإسلامي التي عشتها لم يكن من صنع فلاحين أو بسطاء الناس. كان علي أن أعيشه، وأن أعانيه فعلا،

مقترفا من قبل أستاذ لغة عربية كان يدرسني بقسم الثالثة ثانوي. وقد تحملت ذلك منذ الساعة الأولى للدرس. كان في العربية الشفوية. فطرح سؤال من يتقن الحديث بالعربية. رفعت أصبعي. أمرني أن أصعد إلى السبورة طالبا مني أن أحكي شيئا ما. فتحدثت طويلا، ودون أن يكون له أن يصحح أقل خطأ، عن فسحة في الغابة. النتيجة أنه أمرني بالعودة إلى مكاني، مؤاخذا إياي، بوجه فضلت أن أرى فيه القسوة عوض الكراهية، على كوني أتحدث بنبرة. كانت تلك الخاصة بلهجتي الأصلية. باستماعي مؤخرا إلى الناطقين الليبيين بالتلفزيون، انتبهت إلى كونها لهجتهم كذلك. أما الدرس الموالي فكان في العربية الأدبية، لغتي الأولى منذ السادسة إعدادي. ربما لاحظ أنني كنت متميزا فيها. الموت في صميم الروح بدون شك، لأن قسمنا كان به الكثير من العرب والقبايليين. لم أعرف أبدا إن كان هذا هو السبب الذي من أجله، انطلاقا من الدرس الموالي، السبت من العاشرة حتى الحادي عشرة، قد وضع استراتيجية دامت سنة كاملة. كان هذا الدرس مخصصا لقراءة القرآن. كنا يهوديين اثنين في القسم. وقد اختارنا لهذه المهمة لبدء القراءة بشكل دوري. لكن لا يمكننا أن نبدأ قراءة القرآن دون النطق بـ «الشهادتين»، الدخول في الدين الإسلامي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». كان الأمر من الإتقان بحيث كل أيام السبت، حين يصعد والدانا محاضرين بالكنيس بهدف قراءة التوراة، نُكرَه نحن على تأكيد اعتناقنا للإسلام!

والأسوأ كان هو ما سيأتي. بما أنني أثرت الجانب غير المسبوق وغير الموضوعي في نقطه التي تكون هي الأخرى عادة مصحوبة بتقرير عن الأخطاء التي كان يدعي أنه لاحظها، فقد عارض فكرة منحي درجة التهاني، خلال السنة كاملة، تلك الرتبة التي كنت أستحقها حيث حصلت على أعلى المعدلات في كل المواد تقريبا، بما في ذلك اللغة العربية، الأدبية

والشفوية. وقد ذهب إلى حد فعل كل شيء لحرماني من لوحة الشرف في الدورة الثانية بمبرر، كما قال، «موقفي». وحين قصدت المدير لتقديم شكاية في الموضوع معطيا إياه روايتي للأحداث، رفع يديه إلى السماء قائلا إنه لا يستطيع فعل أي شيء.

ليس بدون يأس ما أرقب النجاح المتعاظم لأسطورة معينة: إنها المتعلقة بتنسيب نزعة معاداة السامية عند المسلمين لجعلها نتيجة للنزاع الإسرائيلي-الفلسطيني فقط!

طوبي ناثان في الثالثة، سنة 1951، على شاطئ راس البر (مصر).

يوم عيد
القاهرة

طوبي ناثان

كان يضع عمامة بأربطة معقدة تضفي عليه ملامح تاجر عربي من القرن الخامس عشر. لحية طويلة، بيضاء وحريرية الملمس، تنسدل حتى صدره. كان مظهره مهيبا، رجل سلطة بدون شك، وحارس تقاليد بالتأكيد!

الساعة الخامسة والنصف صباحا. ضبط هندامه أمام مرآة المدخل وخرج ليلتحق بمكتبه، من الجهة الأخرى للحديقة. في سماء القاهرة، الصقور، تلك النسور الرهيبة الصغيرة، تضاهي حمائم باريس عددا. كان قد استيقظ باكرا، ككل صباح، ساعة قبل شروق الشمس. يستمتع بتلك اللحظات التي تكون فيها المدينة هادئة إلا من صياح الديكة وهي تحاكي أذان المؤذنين. في لحظات الوحدة هذه، كان يستطيع أن يلقي نظرة على الكتب التي لا يمكن أن يتركها بين يدي أول من يأتي. يقرأ الربي في صمت مخطوطا غير منشور بعنوان «ألق حجر السفير». والمؤلف، يعقوب بن حبيب، جده الأكبر الثالث... واحد من رموز الماضي، زمن الإشعاع العربي في إسبانيا. كان الربي يتصفح النص المكتوب بدم الحرباء، الذي يجعل يد من يحمل الكتاب ترتجف رعبا عند مجرد رؤيته. كان ينظر إلى هذه الضجة، يقطع المسافة بين أول وآخر سطر، يقرأها من جديد. كان يعرف أن السلطان سيقرر في الغد تعيينه في منصب الربي الأكبر بمصر.

بدأ الأفق يحمر. وضع الربي شال صلاته ونطق بأول مباركة بصوت مرتفع، واقفا قبالة الشمس وهي تشرق. الروبيسة مريم، زوجته، تدخل دون ضجيج، وهي تحمل طبق الفطور، قهوة، فطائر خبز عربي وزيتون أسود، وتضع الكل على حافة شرفة، هناك حيث كان يحب أن يجلس كل صباح غير مكترث إلا بأصوات الصمت. انسحبت بهدوء، تاركة الشيخ في صلاته. وفي هذه اللحظة سُمع صوت قوي في السماء، صراخ يصم الآذان، كصياح طفل. لم يكترث الربي بل تابع صلاة «اسمعي إسرائيل» (*Shema Israël*) كلمات حب موجهة إلى إلهه. ثم سمعت بشكل واضح خفقة جناح قوية، من أعلى السماء، سريعة كشعاع الشمس، فهب الصقر نحو النافذة، خاطفا فطائر الخبز في حركة واحدة. فخيم صمت هائل. ولم يعد يسمع حتى الهمس بالمناجاة. وبمجرد ما استكمل صلاته اقترب «يوم-توف» من النافذة، ثم نظر إلى السماء. لم ير إلا ريشة سوداء وهي تتطاير ببطء حتى حطت بالطبق. تناول «الكنكة»، آنية صنع القهوة، والبخار يتصاعد منها، ثم صب قهوته «سكر زيادة». نطق بمباركة جديدة قبل أن يضع الفنجان بين شفتيه. بعد ذلك، التقط بلطف الريشة التي تركها الطائر، غمسها في حبر أسود مصنوع من أتربة مختلفة ونقل على مقطع من ورق تلك الكلمة التي أثارت انتباهه عندما كان يقرأ المخطوط السحري: «دان»، بالعبرية (القاضي). طوى بعناية الورق ووضعه على صدره، ملصقا إياه بجلده، تحت ثوب شاله. ثم جلس على كرسي، مغمضا عينيه فترة طويلة، دخل مساعدوه الأقربون دون أن يدقوا. كانوا يظنون أنه نائم. في ذلك اليوم، كان هناك نقاش صاخب. هل من المسموح لنا أن نحمل منديلنا ونحن ذاهبون إلى الكنيس، بما أننا ممنوعون من حمل أي شيء يوم الشباط (السبت)؟ أما ليفي الطنطاوي، المساعد المفضل للربي، فقد ادعى أن ذلك ممكن، أنه مسموح لنا أن نحمله، وأن المنديل كاللباس قياسا.

أيمكننا أن نذهب إلى الكنيس ونحن عراة حتى نحترم المنع؟ وأما الربي، على العكس، فأكد أن لا، وأن المنديل وجب اعتباره ليس كلباس لكن كمتاع زائد وأن نقله يعادل عملا. ثم امتدت المناقشة طويلا. هكذا انقضى وقت المناظرة، وسارع الربي إلى الكنيس القريب من بيته. أما الربيين الآخرين فقد بدأوا في الترنم بالأناشيد في انتظار الربي الكبير.

— ماذا وقع أيها الربي؟ هل نسيت أن تستيقظ؟ سأله واحد من أعيان الطائفة الذي لم يكن يترك فرصة إلا ويوجه فيها انتقادا للربي.

كان يهود مصر جريئين، كما في زمن «الخروج»، حين كانوا يتجرأون على موسى. ربما لم يغادر هؤلاء اليهود أبدا... حتى في زمن موسى...

بقي الربي صامتا، فاتحا عينين كبيرتين من فرط الاستغراب، كما لو أنه لم يفهم السؤال الذي وجه إليه.

— لكن أيها الربي، نحن ننتظرك على الأقل منذ ثلاثين دقيقة من أجل صلاة الشباط؟ ألح الآخر.

— ثلاثون دقيقة؟ استغرب «يوم-توف». كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ مازالت الشمس لم تشرق بعد. هل استيقظتم جميعكم في عز الليل؟

— هذا صحيح! قال الحارس الذي بقي بالقرب من الباب الكبير. لم تشرق الشمس بعد.

هكذا سارع المؤمنون إلى النوافذ، ليتأكدوا من الأمر. لم تشرق الشمس فعليا بعد...

على حد علمي فإن الزمن لا يعود إلى الوراء. قبل ثلاثين دقيقة كان ضوء النهار مرئيا، ابتسم «يوم-توف» ساخرا.

بعد ذلك، أقسم المؤمنون الذين حضروا صلاة ذلك الشباط، في 15 أيلول من سنة 5647 العبرية، ولمن أراد أن يسمع، أن الشيخ جعل الشمس تعكس حركتها في السماء، حتى لا يثبت تأخره. كانوا يقارنونه

بموسى أو يوشع - مع فارق أن يوشع كان يوقف الزمن ليربح الحرب. إذن لم يكن الربي «يوم-توف» يعرف كيف يعكس حركة الشمس لكنه ربما يعرف كيف يشوش على أنظار المؤمنين. وفي الغد، الأحد 16 شتنبر 1866، وقع السلطان «الفرمان» الذي بموجبه يعين الربي الأكبر بمصر. وكما يقال «الربي يوم-توف إسرائيل شيريزلي قضى في نزاعات اليهود بمصر من 1867 إلى 1891.» إنني أحمل الإسم الشخصي لهذا الرجل، الذي جاء لزيارة والدتي أثناء حملها ليتذوق مربياتها وليشرب قهوتها. كان هو أنا، حيا مائة وعشرين عاما قبل هذا، كنت هو، عائدا سبعا وخمسين سنة بعد موته. أحب أن أبقاه. أدعى طوبي لأن اسمي هو «يوم-توف»، مثله.

رأيت النور بالقاهرة، في مصر، سنة 1948، تاريخ تأسيس دولة إسرائيل. الطفل الثاني، الذكر الثاني، كان أخي يحمل اسم والد والدي، كان ينبغي أن أحمل أنا اسم والد والدتي، حسب التقاليد. كان علي أن أسمى إسحاق أو، على الأرجح، زاكي، هذا الإسم الذي كان يتميز، في هذه الأوقات الصعبة، بقبوله كما لو كان عربيا. لكن والدتي خاصمت والدها. كانت فقدت للتو والدتها وقرر زاكي أن يتزوج ثانية بعد أقل من ستة أشهر، دون انتظار حتى انقضاء سنة الترمل التقليدية.

ماذا تريدين؟ كان يقول ليلتمس عذرا. إنني آكل اللحم. لا أستطيع أن أبقى أرملا.

بالنسبة إليه فاللحم يثير غريزته الجنسية — ألا يُنادي الجسد الجسد؟ — ولم يكن شيء أسوأ من فقدان السائل المنوي خلال النوم.

ثم طلبت والدتي النصيحة من خالتي إنجيلا التي أجابتها دون تردد:

— قومي بافتعال الانهيار العصبي.

— افتعال ذلك، قالت والدتي، لكن كيف؟

— أسقطي نفسك على الأرض، إبكي، مزقي ثيابك، اضربي وجهك، مزقي جلدك...

وهذا ما فعلت. في زوال يوم ما، حين دعي والدها إلى وجبة «فول وطعمية»، ذلك الطبق المكون من الفول والفطائر المقلية التقليدي، وبمجرد ما فتح الباب، بدأت تمزق فستانها، هناك على الأرض، في مدخل شقة العباسية. كانت تصرخ وتصفع وجهها بيديها الاثنتين، وتبكي، وتختنق من الغضب، وكادت تسقط مغشيا عليها. ثم رفع جدي، زكي «زكي الأكزگي» (زكي الصيدلاني)، عينيه إلى السماء... وقامت ككتلة غضب مشتعلة، دفعته، وجهت ضربات إلى صدره وطردته. بعد ذلك لم تكلمه سنتين كاملتين. والآن، وهي حامل، هل ستكرمه بمنح اسمه للطفل الذي تشعر به يتحرك في أحشائها والذي، هي على يقين من ذلك، سيكون ذكرا؟

هكذا مرت أولى شهوري في الحياة، في رحم أم لم تعرف كيف تتفادى اسم والدها. وفي الشهر الخامس من الحمل، جاءت رؤيا في المنام. فقد ظهر لها جد والدها، الربي يوم-توف إسرائيل شريزلي، الربي الأكبر الشهير بمصر، وجدها كذلك. كان واقفا أمامها، لابسا جلابية بيضاء طويلة. طلب منها أولا فنجان قهوة. ماذا تريد أيضا «يا گدي» (يا جدي) ؟ طلب مرة أخرى أن يتذوق مربياتها. وحين قدمت له تلك التي صنعتها أخيرا، مربى التمر، مربى الجوز الهندي، مربى البرتقال المر المحمض، أضاف الجد: «ذلك أنني سأستقر ببيتك.»

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع عن رواية الحلم لخالاتها، لإنجيلا، سارينا...

— أرأيت، يا رانو، عزيزتي (رانو، كان اسم والدتي)، أرأيت، ليس هناك من شك...

— لا شك أبدا ؟

— «مية لمية»*، عزيزتي...

لم تجد النساء المسنات أية صعوبة في تأويل الحلم. جاء الربي ليعلن أنه سيستقر بيننا. وقد طلب المربيات لأنه سيحمل الهدوء والمتعة معه. هكذا، قبل حتى مرحلة الوضع، علمت والدتي أن الطفل الذكر الذي كانت تنتظره سيكون تجسيدا لروح الربي يوم-توف إسرائيل شريزلي. وحين ولدت، شهورا بعد ذلك، لم يتردد أحد في اختيار اسمي، لقد قرر الجميع أن يسمونني باسمه. «يوف-توف»، هكذا سيكون اسمي.

وتحكي الأسطورة العائلية أن والدي كان يحمل أخي الأكبر على كتفيه حين ذهب للتصريح بولادتي في مكتب الحالة المدنية. ولتورطه في مظاهرة بالقاهرة المشتعلة غضبا، تبعته الحشود صارخة «اذبح اليهودي»... كان ذلك سنة 1948. حين ولد الشرق الأوسط، مع ندبة في الوسط : إسرائيل. إلا إذا كان عضوا جنسيا منفغرا، يبتلع استيهامات الأجيال. وأمام ضابط الحالة المدنية، لم يجد والدي الشجاعة للنطق باسم يهودي. هكذا قرر أن يترجم اسمي إلى العربية.

بالعبرية، «يوم-توف» يعني «يوم عيد»، عيد يهودي، بالطبع، كا كيبور أو بيصاح (الفصح)... وبالعربية كان «عيد»، اختصارا للعيد الكبير، عيد الكبش. لقد تقرر ذلك! عند مكتب الحالة المدنية، لن أسمى «يوم-توف» لكن «عيد». لقد مررت، بسبب سياسة الدول، من كبش الفداء ليوم كيبور إلى حمل الأضحية للعيد الكبير. في أوراق هويتي، وضع اسم «عيد»، وهو صعب النطق بالفرنسية. بالبيت، الجميع ينادونني طوبي؟ إنه كان اسمي. وقد بقي هو هو. 1969، إحدى وعشرون سنة بعد ذلك، بباريس، كان التجنيس، فطلبت أن أغير اسمي. كنت آمل أن أُقوم هويتي...

* مائة بالمائة (المترجم)

— طوبي ؟ تعجب ضابط الأمن، ماذا يعني هذا الإسم ؟ هيا...
ألححت أنا من جهتي:
— طوبي، طوبي... إنه في التوراة...
— التوراة، إنها لا تعنينا، يجب عليك أن تختار اسما من التقويم. (في ذلك الوقت، لم يكن طوبي مسجلا بالتقويم الجاري به العمل). ألا يمكنك أن تختار اسما كالجميع... موريس أو مارسيل ؟ بحثت أسبوعا كاملا. كنت أريد على الأقل أن أحتفظ بالأول...
— ثيوفيل ! إنه الإسم الذي اخترته ! سأسمي نفسي ثيوفيل...
— باه، تنهد الضابط، يظهر أنك لا تريد أن تفعل كما يفعل كل الناس...

اسمي «يوم-توف» كي لا أسمى إسحاق أو زكي، اسمي طوبي كي لا أسمى «يوم-توف». ربما لأننا لا ننطق باسم قديس عبثا. وسميت لفترة طويلة «عيد» كي لا أحمل اسما يهوديا في بلد داخل في حرب ضد اليهود. والآن اسمي ثيوفيل لأن ضابطا من الأمن جمهوريا أكثر من اللازم كان يجهل التوراة. ثيوفيل، في العمق، إنني أحب هذا الإسم الذي اخترته بنفسي والذي أترجمه هكذا «من يحب الله». وأنا فعلا كذلك. كنت أفضل أن أكون «محبوب الله»، طبعا، لكننا لا نستطيع أن نقرر في كل شيء.

روزي بينحاس في الثالثة، أكتوبر 1950،
برفقة جدتها من الأب في حديقة «تقسيم».

كانت تسمى دورسينة

إسطنبول، حربية

روزي بينحاس-ديلبويك

كان ذلك في نهاية الخمسينيات، خلال عطل الصيف. كان الطقس ما زال باردا وكنا نسافر إلى الأناضول على متن سيارة جيب قديمة بغطاء، يخترقها تيار الهواء، هي مما فاض عن حاجة الجيش الأمريكي. أما والد صديقة طفولتي فكان لاجئا يهوديا ألمانيا مهاجرا، وكان يحب أن يغامر داخل البلد حيث يناديه عمله كمهندس. في ذلك الوقت كان الأمر نادرا، فلم يكن يجرؤ سكان المدن على المغامرة في القرى، إلا إذا كان لهم أقرباء من العائلة بالبادية، ولم يكن لا اليهود ولا المسيحيون معنيين بذلك. خارج المدن، كانت تركيا بلادا شاسعة يجهلها سكان الحواضر. بجبالها العالية، أنهارها الكبرى، بحيراتها المتجمدة وسهولها القاحلة، كانت بالنسبة إلي بنفس القدر من الجاذبية التي لروسيا القريبة أو أمريكا البعيدة. أما الرابط مع هذا الفضاء الوطني الرحب فكان ينسج بواسطة الخادمات اللائي كن يأتين إلى المدينة للعمل باحثات عن قليل من المال يسلمنه لأولياء نعمتهن: الأزواج. كن يحكين عن القرية، الطبخ البسيط الذي أساسه الدقيق، البيض ومشتقات الحليب، الحيوانات والمواشي، الزيجات بالإكراه مع شيوخ طاعنين في السن، ليلة الدخلة بكل فجاجتها، الخرقة المعلقة على النافذة صباح اليوم الموالي أمام الجميع، الحبيب

السري الذي يعرفن أنهن لن يتزوجنه أبدا، الماعز والخراف التي يقدنها إلى المراعي، الذئاب التي تهبط من الجبال. كانت رائحة اللبن الرائب وجبن النعاج ما تزال تفوح منهن، كن الأناضول الذي ما زال يجعلني أحلم حتى اليوم.

واحدة منهن كانت تسمى دورسينة، طويلة القامة وحسناء، مستقيمة جسما وروحا. كنت أتخيلها منحدرة من التركمانيات، كانت تتقن ركوب الخيل، فخورة بنفسها، مستقلة، صافية كماء نهرها، لكن مسلسلة بالقانون والعادة، مربوطة إلى عجوزها. كنا نتحدث عنها مساء ونحن متحلقون حول المائدة، ونقارنها الواحد تلو الآخر بماريان (كان هذا إملاء الإسم في مسرحية موليير «تارتوف») أو بـ«شيمين» التي اكتشفتها بالمدرسة الإعدادية. باللغة التركية، كان للأتقياء المزيفين المتسلطين اسم، كان يطلق عليهم «يوباز» (*yobaz*) ولم تكن لهم سمعة مشرفة في صحافة الخمسينيات. وفي كل جمعة، بعد انقضاء يوم حافل بأشغال البيت، تغتسل دورسينة، تغير منديلها، تربط حول وجهها ذي الخدين الموردين والعينين الزرقاوين، حجابا من الكتان الرقيق بلون أبيض مشع والذي كان ينسدل على ظهرها، وفي زاوية الصالون الموجهة نحو الشرق، وعلى طرف البساط الكبير، بجوربيها المصنوعين من الصوف وتنورتها الطويلة المزينة بالزهور، كانت تؤدي «النماز» (*namaz*)، الصلاة. كنت أعرف الكلمة منذ زمن، كما أعرف الكلام. إذ حين كنت صغيرة، طرحت السؤال على جدتي، فحكت لي عن إسماعيل، محمد والله، كان ذلك حزينا، مبهما وحبيا. لاحقا، بالمدرسة الابتدائية العمومية، اللائيكية والإجبارية، ولكوني اليهودية الوحيدة من بين اثنين وسبعين تلميذا، كنت أحضر — لأنه لم يكن أحد يتكفل بحراستي — في الحصة الأسبوعية من درس الدين الإسلامي الذي كانت تلقيه علينا معلمتنا. كانت كلمات القرآن طويلة،

والتلاميذ يصيبون مرة ويخطئون أخرى في النطق، فتجعلني أقرأ لهم مبدأهم الأسمى، «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الذي يشبه «اسمعي إسرائيل» (*Shema' Israël*) و«أبانا الذي في السماء» (*Notre Père*). كنت أعود إلى البيت وأستظهره، وكان الجميع يشجع معارفي. ولم يكن يصدر عن دورسينة أو المدرسة أي شيء يوحي بالدعوة إلى الإسلام. أما جدتي فلكونها تمتاز بذاكرة تزامنية شديدة الحيوية، فإنها حكت لي عن ما «تعرضنا» له من إكراه على تغيير الدين، الماء المبارك الملقى على «رؤوسنا» من أعلى المنصات المقامة في الساحات العامة الإسبانية والبرتغالية. كان الإكراه على تغيير الدين عارا، جرحا غائرا لم يندمل أبدا على الرغم من القرون التي مرت. ترعرعت في ظله. هؤلاء الذين أكرهوا على تغيير دينهم يسمون بالعبرية «أنوسيم» (*anoussim*)، والكلمة مشتقة من «أونيس»، اغتصاب، المصطلح يعني «المغتصَبون»، «المكرهون».

في ذلك المساء من فبراير، كنا نقضي الليل بنزل في قرية من القرى التي جعلتني دورسينة بحكاياتها عنها أحلم. كانت رائحة الصابون وخشب التدفئة تعطر الغرف، ونمنا تحت أغطية سميكة مطرزة تسمى «اليورگان» (*yorgan*). صاح أول ديك، فتحت عيني، كانت المدفأة تحمر، والظلام يعم المكان. وفي الخارج سمع انفجار قوي متبوع بطلقات رشاشة، كما لو أنها الحرب اندلعت، هذه الكلمة التي ما زالت بعد قريبة من شفاه الراشدين. أنرنا الغرفة، وجاء من طمأننا، كان الانفجار إعلانا عن سحور رمضان قبل يوم جديد من الصوم حتى غروب الشمس الموالي. كان في عنف هذا الانفجار شيء يذكرني بحكايات دورسينة. شيء مرعب، جبري وجماعي، كالخرقة الملطخة المعروضة على أنظار الجميع بعد اختراق غشاء البكارة. لكن في نفس الوقت، كانت لرمضان بالقرية أبعاد عتيقة وجالبة للطمأنينة: وهم يتوحدون حول معتقد ما، يتماسك البشر فيما بينهم

ويحافظون على دفء علاقاتهم، ينامون تحت أغطيتهم، فيقوم شخص بالسهر على راحتهم، ويطرد أشباح الليل ثم يوقظهم من أجل احتفال جماعي. كنت أشعر بحنين بدائي لهذا المستحيل «أن نحافظ على الدفء فيما بيننا كافة».

خمسون عاما بعد ذلك، أثناء إقامة بمدينة إيدين، كنت في أغلب الأحيان أستيقظ مع صياح الديك المصحوب ثوان بعده بأذان المؤذن. بين الليل والفجر، في لحظة الانقلاب والقلق هذه، كما لو أن الشمس يمكن أن لا تشرق، الكحة، أن لا تكف ؛ الحمى، أن لا تنزل، كما لو أن الموت يمكن أن يأتي للبحث عنا، هناك، في هذه اللحظة، هذا الصوت البشري الذي يتصاعد من الأرض نحو السماء. في طفولتي، كان الصوت بلا إضافات، مموجا، بشريا. ثم جاء مكبر الصوت المعدني، ثم الصوت المسجل، الصارخ، في كل حي من الأحياء، ساحقا.

كانت مساجد الأحياء بسيطة ووظيفية. وعندما نمر على واحد منها، نلمح بالباحة رجالا يغسلون أرجلهم، فيما قاعة الصلاة محجوبة بباب من الخشب أو ستارة من الجلد. الذكرى هي تلك التي لصفاء كبير، لنوافذ عديدة ينسكب منها الضوء فياضا، للاستدارة البسيطة التي كانت تميز القبة، للملمس الناعم للزرابي تحت الأرجل النظيفة. بالمدينة، لم يكن هناك طبل جهوري، لكن أفران خبز حيث، مع غروب الشمس، كانت تطهى في رمضان فطائر منسمة وأطباق خضار ولحم خروف تسلمه العائلات إلى الخباز. ومن جديد الذكرى هي للثلج والشتاء، للحبابات والمصابيح المعلقة بدكاكين التجار الصغار، لفوران المساء، للذين يسارعون للعودة إلى بيوتهم فرحا بحلول ساعة الإفطار. ويمتزج كل هذا مع نويل الكاثوليك، مع رائحة الفطائر بالبرتقال المر (*bergamote*)، مع الأجراس التي تدق ليلا، مع عيد الغطاس (عيد ظهور الإله، *Épiphanie*)

عند الأورثودوكس. وكان بعض الأطفال يأتون حاملين فوانيس ليدقوا على أبوابنا منشدين باليونانية «آغيوس فاسيليس إرخيتي» (*Aghios Vassilis erkhété, Saint Basile est arrivé*) ويطلبون بعض النقود أو الحلوى. في جزيرة طفولتي، كانت الكنائس اليونانية الأورثودوكسية مفتوحة طوال النهار، كانت مظلمة، بلا نوافذ، تضيئها فقط الشموع واللمعان الذهبي للإيقونات. وكان كذلك البخور المتصاعد من المباخر، والعذراء الرقيقة والجميلة، أما يسوع فينظر إليك مباشرة، وكنا نشعر بأنفسنا، فجأة، ندخل فضاء التخييل، مع شخوص وقصة. كانت الكنائس الكاثوليكية قصة أخرى: كنيسة سان-أنطوان (القديس أنطوان)، بشارع بيرا في إسطنبول، هي الأخرى، كانت تبقى مفتوحة ما طال النهار. وقد أخذتني أستاذة الباليه البولونية، يوما، إليها. كانت المرة الأولى، ولاحظت الانحناء الأنيق للمعصم لتلمس الماء المبارك بأطراف الأصابع، ورمز الصليب على الجسم، الجثو الأنيق أمام المذبح. كانت الكنيسة المسيحية مكانا للإخراج المسرحي والافتتان، موعدا للانبهار. كنا نرى فيها حضورا لافتا للنساء وهن يصلين في خشوع. أحيانا يسمع صوت الأرغن، وترى باقات الأزهار وفيرة أمام المذبح. كانت البولونية عشيقة ملتهبة، حاملة لأناقة ولثقافة، وكان جسمها يتحد بفضاء الكنيسة فتدور الإيروتيكية بينهما. المراهقة التي صرتها ظنت أنها تلج معبد التسامي الأقصى حيث كل شيء بذخ، هدوء ولذة. كنت أدرت الظهر للأرجل بالجوارب ولسجود «النماز» (الصلاة عند المسلمين).

في غابة العلامات حيث كنت أتقدم وأنا أحاول فك رموزها خطوة خطوة، كانت ثقافتي اليهودية الأكثر تكتما، خفاء وصمتا. كانت المعابد اليهودية، البعيدة عن الأحياء السكنية، صعبة الولوج ومغلقة دائما، ما عدا في حفلات الزفاف والجنازات، حدثان متضادان، الواحد بالأبيض تماما،

الآخر بالأسود، لكنهما كانا يقلقاني بالتساوي. لم يكن هناك ما يمكن أن يرى فيها، أن يفعل بها، إلا أن ننظر إلى ظهور الرجال وهم يتمايلون بشال صلاتهم. لم يكن والدي يعرف كيفية الصلاة. وقد أورثني تكتمه. وبعد الحرب، بعد إجراءات الرد في مواجهة الأقليات ومنذ جمهورية أتاتورك العلمانية، تم نصح اليهود بالتزام الصمت، بالخضوع لإكراهات المرحلة. كما في فرنسا. أن ننسى، أن يُنسونا أنفسنا بعد كل الذي وقع.

أن أنسى نفسي، لم أكن أطلب ما هو أفضل من ذلك. أن أصير واحدة أخرى، أن أولد من جديد فرنسية وبفرنسا. حتى لا أعرف بعد هذا من كنت، حتى تعيدني عبرية الصلوات والشارع إلى حكايات جدتي المأخوذة من كتابنا، إلى المعابد اليهودية التي بلا صور، إلى الصفاء البسيط للمساجد.

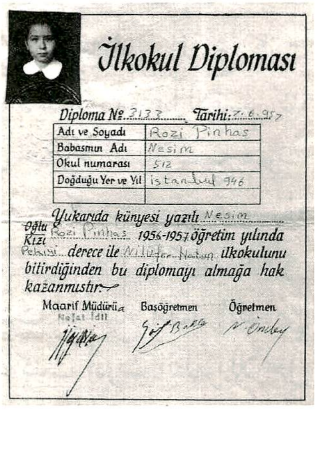
İlkokul Diploması

Diploma №. 3133 Tarihi: 7.6.957

Adı ve Soyadı	Rozi Pinhas
Babasının Adı	Nesim
Okul numarası	512
Doğduğu Yer ve Yıl	İstanbul 946

Yukarıda künyesi yazılı Nesim Oğlu / Kızı Rozi Pinhas 1956-1957 öğretim yılında Pekiyi derece ile Nilüfer Hatun ilkokulunu bitirdiğinden bu diplomayı almağa hak kazanmıştır.

Maarif Müdürü Nejat İdil — Başöğretmen — Öğretmen

شهادة دراسة، أو دبلوم مدرسة ابتدائية تركية حصلت عليها الكاتبة سنة 1957 بمدرسة نيلوفر خاتون بحي نيشانطاش (*Nişantaş*).

نيكول س. سرفاتي مع والدها وأخيها في 1956،
سنة استقلال المغرب، بشارع المحطة (*la Gare*) في الدار البيضاء.

عبــور مسافة خفية

إيمين تانوت، المغرب

نيكول س. ســــــرفاتي

أن نستعير من جديد، دون أن ندرك ذلك، الأزقة الصغيرة، الطرق الضيقة والوعرة التي قطعناها في أيام خوال. على الخطوة المترددة لأرجلنا الخرقاء الصغيرة! بإيمين تانوت، هذه القرية الباسمة بالأطلس المتوسط حيث استيقظ وعيي، ألتقي اليوم من جديد بالساعة القديمة والصدئة المزروعة بتقاطع الطرق الوحيد بإرادة من مفتش عام طيب الخلق، من زمن الحماية. الساعة تنحني بشكل خطير ولم تعد تسجل، منذ عشرات السنين، الساعات التي تفصل بين هجرة للقالق وأخرى. لكن هذه الساعة التي لا زنبرك لها تتأخر أبدا عن إيقاظ عقليتي النقدية بانبعاثها كجني من ذاكرتي الملأى في كل مرة يجازف فيها شخص ما بالنطق بهذه العبارة المريبة: «نحن نملك الساعة، وهم يملكون الزمن.»

من قديم، لم تُخضِع قريتي وجودها أبدا لحركات عقرب كبير وآخر صغير. كان سكانها يراقبون السماء، السحب، الرياح، الأشجار، الحيوانات، والديهم، أطفالهم، التقاليد التي تمكنهم من الميل مع باقي العالم. وفي الحاضر، تتابع هذه القرية نفسها مسارها بدونها، غير آبهة بابتعادنا النهائي، تاركة للتاريخ المغربي واجب نقش ألفي سنة من التمازج الغريب

بين الأمازيغ واليهود في سجلاته وضبط تدويناته بخصوص انعتاق هؤلاء الأخيرين من احتجاز اعتبر غير قابل للإلغاء.

ومن التواطؤات بين المجتمعين الجارين اللذين كنا نكونهما، أحتفظ بقليل من الأسرار الصغيرة المخلوطة بانطباعات متعددة، أحاسيس تغيرت مع الزمن، مناطق ظل صغيرة. والذكرى التي أحتفظ بها لا يمكنها أن تكون صحيحة بالكامل، ذلك أنني أظن أن ذاكرتي تغش قليلا. لا يهم ! تلك الأهازيج المرحة والزغاريد التي تنفلت من غابة العرعار التي تتاخم موكادور حيث عدت للنزهة والاستجمام، هؤلاء النسوة في ثوب الأبهة، جالسات في الظل متحلقات حول مهد، هذه الحلويات، هذه الأباريق الخاصة بالشاي عند أقدامهن ليست ناتجة عن انبهار. هذا المشهد يبدو لي بعيدا جدا وقريبا أكثر على السواء في الواقع. لقد نقل إلي مرات عديدة على شكل شذرات ومستملحات، من قبل والدتي، خالاتي، قريباتهن والمراهقات الصغيرات الأمازيغيات اللائي كن في خدمتهن ولم يفتهن أي حفل من حفلاتنا العائلية. أقترب من المجموعة ومن الرضيع الأنيق في قفطانه الأبيض المطرز بخيط الذهب والذي يستقر في عرشه الذي هو ليس إلا مهدا من القصب. فأتاني فجأة اليقين — لكن بدون دليل، ما عدا ذكريات غير واضحة من حكايات العائلة — أنه فيما مضى من الأيام شغلت بنات أعمامي مكانه وأن الأهازيج التي يُتغنى بها هنا لم تتغير أبدا. «إنها رضيعة، تقول الأم، واسمها إيطو !» : فأشعر بوخزة خفيفة في القلب، إنه تصغير أمازيغي لاسمي، إيستير. حين كنت صغيرة، كان كل الناس ينادون علي بهذا الاسم، إلا والدتي، التي تناديني «تيطوت»، وإخواني، الذين كانوا يسجعون اسمي مع «*tête de linotte*» (اسم طائر معروف).

قامت الأم الشابة بدعوتي تلقائيا للالتحاق بهن وأثناء جلوسي على زربية شيشاوية، تحت باقة من الأشجار، مسنودة جيدا بمخدات مغطاة

بالحرير المطرز، بدأت تفسر لي أن الفتيات يستأهلن كما الفتيان أن يحتفل بهن عند الولادة. وكانت نساء عائلتي يفكرن ويتصرفن بنفس الطريقة، هن اللائي كن يغنين نفس المديح الموجه إلى القابلة:

أيتها القابلة! أنت أيتها اللطيفة!
أنت بشرى خير، يا له من حظ عظيم!
بشراك السعادة، اقبلي المكافأة الطفيفة!
أنا، سأهديك ماهو أروع، يا صاحبة الخير العميم!

هذا النغم المرح يعود إلى ذاكرتي شيئا فشيئا. ثم يلتحق صوتي بالكورال، كورال، دون نبرة خاصة بي، بل بنبرة هذه البادية الهادئة التي رأيت بها النور فأربط العلاقة من جديد بنبرات لغتي الأم أمام هؤلاء النسوة المستغربات لإتقاني للدارجة[1] المغربية.لابد أنهن يقلن في دواخلهن: «هي ربما من هنا، لكن أكيد أنها من مكان آخر، واحدة من هؤلاء المغربيات المقيمات بالخارج (*MRE*)[2]، بدون شك!»، الأكثر تقدما في العمر منهن تقترب مني لتقول لي في أذني إنه كانت لها صديقات يهوديات كثيرات في الماضي، يامنة، فيبي، راشيل وجميلة، وإنهن معا تقاسمن لحظات سعادة قوية لكن ذهبن خلسة إلى إسرائيل، دون أن يودعن أحدا، دون أن يلتفتن، دون أن ينبسن بكلمة، منذ خمسين سنة من الآن...

على أمواج راديو المغرب كان يروج الحديث في ذلك الوقت عن الدولة الوهمية، وحملت الصحافة بعنف على الدولة الصهيونية، ونحن لم ننطق كذلك أبدا باسم الدولة الجديدة، عوض ذلك كنا نقول فقط «كندا»، مصحوبة بغمزة خفيفة لا يفك رموزها إلا الذين لقنوا معناها.

---

1 - دارجة: العربية العامية.

2 - مغربية مقيمة بالخارج.

المغادرات التي لا تنتهي، القطائع، الفراقات، الوداعات، الدموع، الهواجس، النقاشات الطويلة حول اختيار أرض منفى، أهوال البعد عن الجذور التي كنا نتوقعها، إخفاء هروبنا إلى الأرض المقدسة أو إلى بلد اعترف به كبيت يهودي، كدولة اسمها إسرائيل، هل كنا نستطيع أن نبوح بكل شيء مرة واحدة إلى جيراننا المسلمين الذين لم نكن نقاسمهم لا التطلع إلى الاستقلال الوطني ولا التضامن مع مجموع الدول العربية؟

هذه المرأة ذات النظرة الناعمة التي تنطق اسم إسرائيل بشكل طبيعي، لا يمكنها أن تجهل أنه كان ينبغي ما يقرب من نصف قرن لتلطيف السلوك المعادي لبلدها تجاهها والوصول إلى محو جو الترقب والريبة الذي كان سيسمم طويلا هنا العلاقات بين اليهود والمسلمين.

وفي الغد، على طريق كأنها رباط حذاء والتي تفضي بي إلى «إيمين تانوت» لحضور وجبة غذاء بدعوة من القايد بن المامون، الصديق الوفي لأعمامي ووالدي، كنت أفكر في الحد الذي طبع به هذا الحدث التاريخي وهذه الحركات الهجروية مراهقتي وسمتها. إنها فعلا لمسافة خفية تلك التي فصلتنا عبر التاريخ نحن وجيراننا المسلمين والتي لم نعد نستطيع معا أن نتعايش معها. من هذه اللحظة، اكتسبنا القناعة بأنه لا مخرج إلا بالابتعاد بحثا عن ملجأ تحت سماء أكثر رحمة مفترضة. هكذا تصورت، وأنا أنظر حزينة إلى أشجار الزيتون تتعاقب أمام عيني، أن وضع الحل الوسط، الذي حوفظ عليه بصبر عبر الأزمنة، قد تفكك تحت أعين الطفلة التي هي أنا، في زمن آخر. هذه الحياة الدنيوية التي تم تقاسمها فوق نفس الأرض الواحدة، التآلفات اللسانية، التقليدية، الفنية أو الطبخية لم يعد بإمكان شعلتها أن تستمر. ولهذا، كل هذا التاريخ وهذه الثقافة المتقاسمين، لم يعد باستطاعتهما ضمان تجاوز هذا الحاجز المكتوم الذي يكونه سد الآخرية.

قبل أن أصل إلى حيث يوجد مستضيفي، عرجت على مغارات يهود «إيمين تانوت». بُعيد الاستقلال، فقدت قريتي ملامحها، كانت مفرغة بالكامل تقريبا من ساكنتها اليهودية والتي هُجرت في سرية نحو مارسيليا في مخيم عبور. ثم نحو حيفا، على متن قوارب قديمة. كا الكنيس، الحمام، فرن الخبز أوقاعة السينما، تم إغلاق مدرسة «إيمين تانوت» الصغيرة. وعلى فتحة الباب بمغارات معينة، مازال بالإمكان رؤية الفجوة التي تركتها «الميزوزا»[3] والتي حملها مع أمتعتهم البسيطة مكترو بيوت الله الذين كانوا يحبون أن يقولوا إن بيتهم، الذي يغير شكله حسب الرغبة، هو قرض إلهي بدون فائدة !

بالنسبة إلينا، كان الرحيل إلى مراكش أمرا مستعجلا، المدينة التي كان بها بعض أعضاء عائلتنا الذين قاوموا نداء الآفاق وحيث كان آخرون يترددون وهم ينتظرون رفع القيود على السفر المفروضة على اليهود ومنحهم جوازا. وإذا أتينا لنستقر بين أسوار المدينة الحمراء، فليس فقط لاستعادة حياة مضبوطة على إيقاع المدرسة، العمل والأعياد اليهودية العديدة التي تتخلل السنة الكاملة : كان والداي ممتنين للقايد بن المامون الذي لم يبخل عليهما بالنصائح السديدة والمتعاطفة، هذا الرجل الذي التقط إشارة المعاداة الجديدة التي طرأت على سكان القرية تجاه العائلات اليهودية القليلة التي كانت تنتظر موعد رحيلها إلى إسرائيل.

لقد صرنا جميعا مهاجرين، داخل البلد أو خارج الحدود، واجدين أنفسنا مرتاحين على الرغم منا، في وضع حرج عميق ومؤكد. لكن لو قيض للحياة أن تراقب سلوكنا في ذلك الوقت، فإنها ربما لاحظت أننا تحولنا وفككنا ارتباطنا بالأزمنة الماضية، دون وخز ضمير ظاهر. لنستقبل المكتوب[4] الذي قدر علينا بشكل كامل !

---

3 - الاسم العبري للأسطوانة المعدنية التي تحمل نصا توراتيا مخطوطا.

4 - ماهو مقدر.

في هذه المدينة المبهرة، تلقيت كهدية حديقة ألعاب واكتشافات أكثر إمتاعا من «سوق الاثنين» النهر الصغير والزقاق الوحيد المنحدر لقريتي. هكذا سمحت لي نهاية نمط عيش عائلتي المحدود أن ألتقي وأختلط بأطفال من الملاح[5] لم يعد والداي يتمكنان من تصور شجرة أنسابهم ذهنيا.

أشاطر دانييل سيبوني[6]، بما يكفي، فكرة أن منفانا كان منفى أولئك الذين يصنعون لأنفسهم «بليدات» (تصغير بلد) لا يقينية والتي تصنع منها مرافئ سلام لذيذة، احتفالية، مضيئة. المنفى، قد تبدو الكلمة قوية. منذ رحيلنا عن «إيمين تانوت» ولعلمي أن هناك رحلات أخرى ستتوالى، كان لي حدس غامض بأنني أدخل في مرحلة تلقي أسرار ما. كان يبدو لي أنه بعد تمكني من اجتياز هذه المراحل المتعاقبة — أو المنافي المختلفة — سأصل أخيرا ربما إلى مرحلة إعادة غرس جذوري التي كانت حينها في حالة انعدام للوزن.

في الرياض البسيط المتواجد بين الملاح والمدينة القديمة الذي كنا نقيم به، والداي، إخواني وأنا، كانت العشاءات مليئة بالأنشطة ومواضيع النقاش دائما هي هي. في الخلفية الصوتية، صوت مذيع «راديو المغرب» بلا نبرة وهو يعلن عن أحداث اليوم. كان الأمر يتعلق بأبسط تحركات السلطان محمد الخامس وولي العهد «مولاي الحسن»، الزيارات المتوالية بالقصر، الجفاف، هجمات جحافل الجراد... كنا نستمع إليه دون أن ننصت فعلا، إذ لم يكن لمشكلتنا حل على أمواج الإذاعة.

وقد عاد الفرنسيون بكثافة إلى العاصمة. لكن نحن؟ هل علينا أن نتبعهم أو نبقى، محرومين من عائلتنا، لنصير أخيرا مواطنين مغاربة صالحين؟ لم نترك عاصمة إلا وسألنا عن أخبار أبناء وبنات أعمامنا، عماتنا

5 - بالمغرب، هو الاسم الذي يطلق على الحي اليهودي.

6 - «مراكش، الذهاب». (أوديل جاكوب، 2009، ص 15).

الذين سبقونا، لكن المعلومات عن استقرارهم هناك لم تكن مقنعة كثيرا، إذا لم نقل منذرة بالأسوأ، ما أغرقنا في خيبة أمل كبيرة وأبطأ كل مشاريعنا في التسلل إلى الخارج.

بالنسبة إلى أخوي وأنا معهما، الشغوفين بالأفلام والكوميديات الاستعراضية نحن الثلاثة الذين كنا نذهب لمشاهدتها في نسختها الأصلية أيام الخميس مساء بسينما «النهضة» (*la Renaissance*). كان مستقبلنا مرسوما بحروف مضيئة وبمكان وحيد: ليست نيويورك أو مانهاتن، لكن برودواي! أما والدي فكان يرى نفسه يعيش، بقلب فخور، بأورشليم المدينة المقدسة من أجل أن يصلي كل صباح عند قدم «الحائط الغربي» ويحقق الأماني السرية لوالده الرِّبي.

أما والدتي فكانت تعبر بدورها لنا عن حلمها بالذهاب إلى فرنسا وبالوظائف التي تمنت أن نعمل من أجل أن نشغلها، ثم أنهت تراشقاتنا الكلامية ومبالغاتنا طالبة منا أن نذهب للنوم. وفي نهاية سنة 1965 الدراسية، وخلال أسبوع كامل، ألمت بها حمى لم تكن لها علاقة بحر الصيف الذي كان يخيم على المدينة ولا يترك واحدا من سكانها خارج بيته.

ثم في أحد الأماسي، كانت هي التي أعلنت لنا بصوت حازم وواثق، مع تلك النظرة الثابتة، كما لو أن سرابا جذب انتباهها، أنه «إن شاء الله»، سنذهب إلى باريس كما ندخل الجنة!

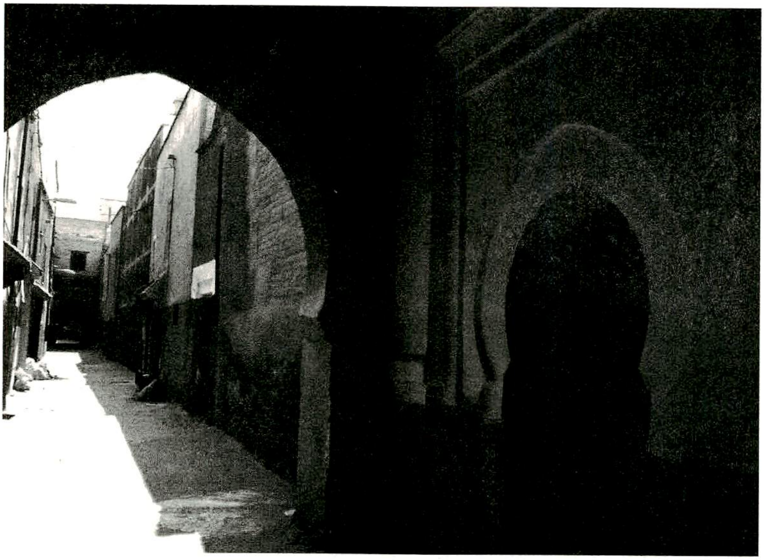

بمراكش، حي الباهية، واحد من أزقة درب الجامع، حيث يوجد البيت الذي ولد به دانييل سيبوني (الباب الثالث يمينا). الكاتب لا يملك أية صورة له وهو طفل.

في المدينة القديمة

مراكش، المغرب

دانييل سيبوني

كنت وصفتها في كتاب «مراكش، الذهاب»، طفولة من بين طفولات أخرى؛ وما طبعني، بعد أن كُتِب ما كُتِب، هو المرور الفوري، الضروري إذن. بين هذا الكائن المتميز — طفل يهودي بين المدينة القديمة والملاح، من 1942 حتى 1955، تاريخ ذهابه إلى فرنسا —، هذا الكائن الصغير والمتفرد، والموضوعات الإنسانية الكبرى التي تحرك العالم اليوم: صدمة أو لقاء الثقافات، تعايش، سكان أصليون وأجانب، حداثة، عودة إلى الأصول، هويات منكسرة أو مواربة، أو متشنجة، منقبضة، أسئلة وجودية، إلخ. هذا النص ذو الطابع الروائي يجد كذلك ما يمكن أن يربطه بالأزمة الحالية، الأزمة المالية، بواسطة ذكرى طفولة، حيث يتأمل الطفل ذو العشر سنوات، الواقف باعتزاز أمام بنك ليحول فيه دولارا أهدته إياه سائحة أمريكية، العمارة التي طرد منها فيتخيل كل أولئك الذين يسيرون هذه الرزم الملأى وهم يحملونها في الصباح ليقضوا حاجاتهم ثم يعيدونها مساء محتفظين لأنفسهم بالربح، ثم شهرا بعد ذلك، أو ربما أبدا.

والكتابة كمخرج مخلص، كتابة الحياة، المقوسة بين كتابة «الكتاب الأصلي» وتلك التي تخص الحياة المعاصرة. هذا الجزء من مفهوم أوسع،

الذي عرضت له في الماضي تحت اسم «ما بين-الإثنين»[1]، لعب دورا كبيرا، بالأخص بين لغتين، شكلين للحياة، حياتنا بالمدينة القديمة والحياة التي حلمنا بها : بعيدا. فكرة «ما بين-الإثنين» هذه التي طبعت الكثير من نصوصي، أتت من هناك، من هذه الطفولة.

أحب هذه الطفولة والمدينة التي كانت مسرحا لها، دون أدنى رغبة في العودة إليها ؛ أو في استرجاع هذا «الزمن الضائع» (!). أحب هذا المكان لأنه ألهمني، خلال مقامي كله، الرغبة في مغادرته. يمكننا أن نحب مكانا من أجل هذا، لأنه يلهمك بأصغر تفاصيله (جسدية، حسية، تأملية) الرغبة في أن تكون في مكان آخر. ومن هنا، ندين له بشيء ما، هذا المكان، لأن هذه الرغبة التي نضجت طوال الوقت الذي كنا فيه، ستكتسي لاحقا حدة غريزية، الشيء الذي يجعل فينا هذه الرغبة في تكسير هذا الإطار الذي يسجنك فيه الآخرون، الرغبة في أن لا نختزل أنفسنا فيه. غريزيا، نفوض جزءا منا ليذهب إلى مكان آخر.

لماذا كانت لي كل هذه الرغبة في المغادرة ؟ لقد كان والدي غالب الأحيان في حالة ذهاب، منذ 1950، وأنا في سن الثامنة، ذهاب إلى فرنسا ليرتب شروط وصولنا، الذي أخذ خمس سنوات كي يتحقق. لكن ذهاب الوالد، نفسه ليس إلا رمزا، كان يجب في كل الأحوال الاستعداد للذهاب. في رأس طفل متيقظ طالما تعرض للشتم والتهجم من قبل شباب في المدينة القديمة في أي وقت تقريبا، والذي كان يعرف أن الراشدين المسلمين الذين كونوا هذه الحشود الكبيرة استطاعوا أن ينطقوا بكلمة «يهودي» مصحوبة مباشرة بكلمة «حاشاك» كما لو نطقوا للتو بكلمة بذيئة، كان هذا الاحتقار واضحا، لكن كان يتعايش أيضا مع ألفة أوضح، نوع من اللقاء الهادئ بين «ليهود» و«المسلمين» الذين بعد كل شيء، بما أن قوى الحياة هي

1 – أنظر: «ما بين-الإثنين، الأصل المتقاسم» (سوي، 1991).

نفس القوى كا هي، لم يكونوا ليستطيعوا اللقاء دائما وهم يشتمون بعضهم البعض. كانت هناك صداقات، أفعال ألفة، أثناء الأعياد الشعائرية بالأخص، وهذا كان له أثر كبير على يهود معينين، بما أنني سمعت مؤخرا بباريس شخصا يعلن أن اليهودية المغربية «محمولة» من الأمة الإسلامية. هذا أيضا، هذا التذبذب بين الانتقام والألفة، كان بالنسبة إلي ثمينا، في اللاحق.

لكن في تلك الفترة لم أكن أفهم من أين تأتي هذه الانفعالات السلبية تجاهنا، والتي كانت تمتزج بشكل رائع مع سلوكيات تآلفية. كان لي هذا الانطباع المبهم الذي يستحيل التعبير عنه : إنهم يحتقروننا ويقدروننا ؛ أو أحسن من ذلك: إنهم يحتقروننا لأننا ذوو قيمة كبرى. لكن لأنه لم تتوفر لدي الوسائل للتفكير في ذلك بحق، ولا «المعطيات»، وبالأخص عدم قدرتي على الولوج إلى النص القرآني، بما أننا كنا نتحدث بالعربية لكن لا نعرف قراءتها، فقد اقتصرت، بطريقة حيوانية كلية، على مواجهة الاحتقار باحتقار ظننته مبررا لأن سببه كان ذاك الذي أمسك بنا فيه، والذي يظهر أنه آت من بعيد. ما هو أبعد منهم. لاحقا، سأقترب من العقل : كنا منقوشين بشكل حاسم في نصهم الأصلي ؛ ماذا كنا نفعل هناك ؟ إن ما كان يجب عليهم هو طردنا من نصهم، لكن ذلك مستحيل، لأنه بدوننا هذا النص لن يكون تماسكه كاملا. هذا التناقض، الذي لا حل له حتى الآن، يفسر أنه في أي مكان حكموا يجب علينا أن نرحل.

وقد قلت في مكان آخر[2] ما كنت أفكر فيه بخصوص «العصر الذهبي» الأندلسي. وفهمت لماذا، في اللحظة التي يصبح فيها ذلك ممكنا، كنا نختفي كلنا من فضائهم. وقد قلت أيضا لنفسي في يوم ما إن بلدا بدون يهود، لم يكن به يهود ولم يعرف كيف يحافظ عليهم، هو بلد مُعاقَب، غارق

2 - أنظر : «الديانات التوحيدية الثلاث» (سوي، 1992).

في صراع مع نفسه ليدمج صدعا وجوديا أسقطه على الآخرين ليبعده، والذي لن يكف عن العودة لمساءلته.

لكن الطفل الذي كنت قد وجد توازنا لا بأس به بين هذين الشكلين من الاحتقار، ما يسمح له بفتح طريق للركض، للعب، للحلم بالذهاب، لابتلاع الثقافة الحديثة التي بإمكانها أن تساعدنا ربما في الخروج من هذه الهوة. هذه الرغبة في «الخروج»، الرغبة في المغادرة، لهي منقوشة بالنسبة إلي على أسوار مراكش، وأحبها لذلك.

هذا يعني أن روايتي لا تتنفس النوسطالجيا، أي حيث نرغب أن نستعيد أزمنة وأمكنة كانت مطبوعة بالسعادة. السعادة، لم تعوزنا، وحين أعيد التفكير في هذه الأزمنة والأمكنة، فإن تفكيري ينصب على الأشياء التي أمكنها أن تحدث. النوسطالجيا هي رغبة في استعادة الحدة البدئية للرغبة التي حدثت في «ذلك الزمن»، زمن المغادرة، فعلا، لكن المليء بتلك الذاكرة، تلك التقاليد، تلك الحبكة، تلك الاشتباكات الأليفة - العنيفة، تلك المرارة الهادئة، تلك الرغبة في العيش ماسحين كل المجال بين نقطة وأخرى من حقل الممكنات.

ذات يوم، قدمت هذه الرواية بمراكش إلى جمهور مغربي أغرته المحاولة، ذلك لأنني فتحت الكتاب كيفما اتفق وطفقت أعلق على نقط معينة بطريقة غريبة تذكر بـ«ذلك الزمن»، بعد فترة تلقيت رسالة من مدرسة مغربية تتحدث الفرنسية، حيث قالت لي: «بعد القراءة، رأيت أنك بصقت في الحريرة: كنا نوفر لكم حضن الوطن الدافئ، وأنتم لا تعترفون بذلك.» فابتسمت إذ لاحظت أنها هي الأخرى تعترف أننا لسنا في «بيتنا»، وأن لنا امتياز هذا الكرم الكبير، الذي استُضِفنا فيه، نحن الذين كنا هناك قبل مجيء العرب. هذا الكرم نفسه يدل على أننا كنا أجانب ببيتنا. وإنه الإحساس الأقوى الذي أحتفظ به من مراكش: أن نكون

منفيين ببيتنا، في أصلنا. أن نذهب من هنا، بعد ذلك، لنحط الرحال بباريس، لم يكن منفى. والرواية تصف الاختلاف بين منفانا ومنفى المهاجر القادر على أن يعود إلى البلد، أو على الأقل أن يتخيل ذلك. بالنسبة إلينا، فإن هذا المنفى البدئي لا يمكنه أن يدعو إلا إلى «عودات» إلى أمكنة أخرى. أحب مراكش لأنه هناك تفتقت شعريتي الخاصة بالعودة، لا إلى هناك، المكان الأصل المفترض، بما أن الأمر ليس إلا تضمينا لأصلي، لكن نحو ما أسميته لا حقا «نقط الحب في الكينونة»، أي ما يمنحنا علامات رؤومة في الكينونة، في كل مكان، علامات عرفان. كنت أشك فعلا أنه في الحي العصري، گليز، يتعايش المسلمون واليهود (على الأقل المنتمين إلى الطبقة الميسورة أو الحداثية) في هدوء ؛ وأن أطفال المدينة القديمة لا يرمونهم بالحجارة. وقد فهمت فيما بعد أن الفرنسيين هناك كانوا يلعبون دور الوسطاء ؛ وجب أن نشعر بجانبهم بكرامة معينة ؛ لا شتائم ولا بذاءات. إذ بعودتي يوما من گليز مارا بالخزانة التي كانت ببناية البلدية، تعرضت للهجوم، تحت أعين «الكتبية» : في الحدود بين الحيين، عند المرور بين الحداثة والتقليد. لكنني كنت أشعر أن «المُسَلمين» بالمدينة القديمة كانوا أكثر قربا من الحقيقة من نظرائهم القاطنين بالأحياء الراقية. كانوا يعبرون عن حقيقة هذه الجماهير «العربية» الكبرى التي أحاطتنا بازدواجيتها (*ambivalence*) العنيفة. ورغم أوضاعنا البسيطة، فقد كانت لنا «خدامات» (عاملات منازل) مسلمات، وكانت العلاقات بسيطة للغاية. لا أثر للعنف. هناك، كان العمل هو الوسيط.

في مرحلة لاحقة أخرى، وفي هدوء، تساءلت لماذا لم يجعلنا هذا العداء الرائج مرضى بالبارانويا قليلا. في حالتي، السبب بسيط : الرابط مع الكتابة، رابط متعدد الأشكال، متفرع، خصب. كان لنا كوننا الخاص، تمسحه أمواج النص المقدس، الذي هو نفسه متناقض ويدعو لمناقضته،

تأويله، مساءلته، الحلم فيما حوله. هذا أعطى خيط كتابة غير محدود، بجانبه تأخذ كتابات أخرى مكانها : الآداب مثلا، المكتوبة بالعبرية - العربية بيد الفتى الذي لعب دور الكاتب بين النساء وأزواجهن الغائبين، بين الأم والأب، المغرب وفرنسا، تقاليد المدينة القديمة والعالم الأوروبي المتخيل الذي لا يتم إدراكه إلا كشيء لا يمكن الوصول إليه. الكتب أيضا، الفرع الثالث من حبكتي، كانت تغذيني، كنت أمتصها بنهم دون أن أتساءل هل كان ذلك «لذيذا» ؛ كانت للقراءة بكل بساطة. لقد «أنقذتني» إذن الكتابة، قبل حتى أن أقرر أنني سأتمكن من الكتابة في يوم ما. أحسست أنني جزء من شعب «الكُتاب» (*scribes*). ليس كهؤلاء الذين، في عمق ساحة «القزادرية» (*seufrim*) كانوا يحررون عقود الزواج والطلاق، الاتفاقيات، التظلمات... كنت أحس أنني أمسك بخيط كتابة آخر. في كل الأحوال، حين نكون داخل دوامة نصية كهذه، نحد هويتنا، المغلقة في الظاهر، طيات، ممرات، طرقات ملتوية تفضي إلى أمكنة وجود أكثر من قابلة لأن تكون سكنا لنا، أمكنة حيث نشعر بالأمان الكامل، وحيث لا يمكن لشر أن يلحق بنا. في الرواية، يأخذ ذلك شكل حصير في الباحة الحارقة التي بردت للتو بما يكفي من الماء للجلوس وشرب الشاي، مع كتاب في متناول اليد ومربع سماء زرقاء فوق الرأس ؛ للحلم بالمغادرة. لا أعرف إن كان الآخرون ينتظرون مثلي الرسالة المحررة الآتية من بعيد، من فرنسا أو أمريكا، تدعوهم للذهاب. بعض اليهود بقوا حتى 1970 أو 1975، لكن الواقع هو هذا : من الثلاثمائة ألف، لم يبق إلا أقل من ألفين اليوم. شكل من أشكال القتل الصامت الذي تقترفه البلادة.

ثم فيما بعد مرة أخرى، ندرك أن النقط غير الشفافة لحياتنا، والتي تصير أحيانا مؤلمة، لا تضيء إلا إذا علقت بخيط كتابة ما. أفكر في افتتاني كطفل أمام «الجامع» المنتصب بالزقاق الذي كنت أسكن فيه. كنت أمر

خلسة من أمام بابه؛ إذا حدث أن وقفت، تلقيت شتائم؛ لكن حين لا يكون أي أحد، أتوقف عنده وأتفحص الباب كما لو كان سيفصح لي عن سر ما يقع هناك؛ كنت على يقين أنه من هذا المكان تمر مشاعرهم تجاهنا. هل ذكرى هذا الباب، هي التي بعد ذلك، ستدخلني إلى القرآن، بالعربية، كي أعرف من أي شيء هو يعود[3]؟ كما لو أن هذا اللغز، المحفوظ في ذاكرتي، جاء ليدق بابه، ويطلب أن أفك هذا اللغز كتابة. لكن أغلب الناس يفضلون المحافظة على نقطة اللاشفافية هذه، متفادين بذلك كل حرج. بطريقة تجعل من باب «الجامع» هذا الكائن برقاق طفولتي، يتواجد في ملايين الذواكر الغربية، مغلقا حتى وقت بعيد.

أضيف أنني عشت هناك، رغم كل شغبي، ملفوفا في سذاجة كبيرة بخصوص النساء: لا أعرف من أي مصادر متعددة نقشت في دواخلي — لكنني لم أكن الوحيد — الفكرة التي تجعلهن فوق الجنس، وأنهن لم يكن لهن ما يفعلن بهذا الشيء البذيء الذي هو يخص الرجال، هؤلاء الذين يتوجب عليهم أن لا يتطرقوا إلى هذا الموضوع الوسخ حتى لا يصدموهن. لم أستخلص، في هذه الرواية، عِبَر هذا الجنون، لكنني قلت ما يكفي عنه لإضاءة الكبت الذي كان يسود أوساط اليهود والمسلمين (كان الأوروبي أبعد بالنسة إلي). في كل الأحوال، يخلص فتى الكتاب إلى ما يلي: «إذا كانت نساء لا شيء (العاهرات) يعرضن أجسادهن على الجميع، فإن النساء الحقيقيات لا يعرضن أنفسهن على أي أحد.» البحث عن أسباب هذا الغباء سيفضي بنا إلى ما هو أبعد. لكنني على يقين أن هذا يوحدنا، «هم» و«نحن»، ما وراء ما ينقال.

---

3 - وقد شهدت على ذلك في كتابين: «الديانات التوحيدية الثلاث» (سوي، 1992) و«اسم الله» (سوي، 2002).

گي سيتبون بموناستير وهو في الرابعة عشرة من عمره.

طفل موناستير اليهودي

موناستير، تونس

گي سيتبون

لم تكن كل العائلات تحتفل بعيد ميلاد الربي شمعون. فقد أخذت والدتي، جوليبت، على نفسها نذرا أن تمتنع عن ذلك خلال تفشي وباء التيفويد الذي أهلك المدينة والذي نجت أختي، دايزي، منه بمعجزة. كي يمتثلوا لطقس الاحتفال، كان على الأطفال والشباب أن يقطعوا موناستير وهم يطوفون حاملين شمعدانات مشتعلة ومنشدين ابتهالات عبرية حتى الوصول إلى الكنيس. كانت الاحتفالات تجري عند هبوط الليل. حين تكون متاجر الأسواق ما زالت مفتوحة وأرصفة المقاهي عاجة بالزبناء كما العادة. يتأمل المارة، المسلمون جميعهم، موكبنا دون أدنى استغراب. كانوا يعرفون تقاليدنا عن ظهر قلب ويمدوننا بعود ثقاب لإشعال الشموع التي أطفأتها الريح.

في عيد المولد والعيد الكبير، كما لو كان الأمر بفعل السحر، يتغير شكل المدينة. دوارات، أراجيح، خيام فقراء، رقاة ثعابين، عرافات، كل هؤلاء يغزون الشوارع والساحات. أجواء تتصادى فيها رنات الدربوكات، «البنادير»، المزامير التي كنا نسميها «زُكرة» وكانت القلوب ترقص من الفرح. كان المسلمون يلبسون أجمل ما لديهم، أما نحن فلا، لكن المعرض كان يفيض سعادة. لم أفهم معنى «المولد» إلا متأخرا (ذكرى مولد الرسول)، بالنسبة إلي كان ذلك عيدا موناستيريا كبيرا.

كانت موناستير مهملة في مرحلة الاحتلال الفرنسي. أقاموا بها ثلاث مدارس ابتدائية ونصف دزينة من المعلمين (فلنباركهم، ونحن نمر)، مكتب بريد، مقر عُمودية، مكتب ضرائب، لا غير. لا أذكر إلا ثلاث أو أربع عائلات فرنسية. وكانت الكنيسة تستقبل بالأخص مالطيين وصقليين، كلهم، مثلنا، معربون. كانوا قد هاجروا قبل فرض الحماية بزمن طويل. خارج المدينة، كانت ثكنة تأوي مجموعة مكونة من اثني عشر جنديا فرنسيا والذين لم نكن نراهم أبدا. وفي مركز البوليس كان هناك ثلاثة موظفين تونسيين عموما. المدينة كان يسيرها قائد، بضعة قضاة، وزراء (موثقون)، محكمة شرعية إسلامية وأمين يحرص على النظام التجاري بالأسواق. بناية قوية من مائة متر مربع، تخترقها نوافذ بقضبان مثيرة للانتباه، كانت هي السجن المناسب لسكيرين أو ثلاثة تم انتشالهم في اليوم لسابق. باستثناء «الأجانب المسيحيين»، كانت الساكنة تنقسم، منذ الأزمنة الغابرة، إلى طائفتين أصليتين. حوالي إثني عشر ألف مسلم وأهلي، مائة وخمسين يهوديا.

رغم أننا لسنا إلا أقلية إلى أبعد الحدود، فإننا كنا نشكل جزءا كبيرا من واجهة المدينة. تجار، مقاولو صناعة كوالدي الذين أسسوا أول معمل للصابون ما زال حتى الآن يسمى «ماكينة الصابون»، إسكافيون، حلاقون، كان حضورنا يبدو في السوق متميزا وأكثر من ذلك مساءات طواف الربي شمعون. وكان الأمر هكذا دائما، ولم يشك أحد في أن يبقى هكذا.

لم يكن هناك بيت واحد به حمام. كنا نغتسل مرة في الأسبوع بالحمام العمومي. حين تجاوزت إحدى عشر عاما، كنت أذهب بصحبة والدي صباحا لكن، وأنا طفل، كنت أرافق النساء مساءا. كل هؤلاء النسوة العاريات، أو تقريبا، لم يكن يربكنني. وحدها فائزة كانت تجعل قلبي يدق. لأنني قررت أنني عاشق لفائزة. في الرواية الوحيدة التي قرأتها، «ألغاز

مارسيليا» لإميل زولا (التي لا يعرف بين يدي أي شخص وجدتها إلا الله)، تعلمت أن الفتيان يسقطون في حب الفتيات. وفتاتي، كانت هي فائزة مزالي التي تقاسمت معها مقعد الدراسة بمستوى المتوسط، السنة الأولى. كانت تلبس باستمرار فستانا أخضر حتى منتصف الساق. تزين شعرها بضفائر وتضع حذاء مبرنقا بأربطة. كانت تتفوق علي في مادة التعبير الكتابي (بالفرنسية، طبعا)، لكنني لم أكن سيئا أنا الآخر. في صمت كنا فخورين ببعضنا البعض. وفي الاستراحة، لم تكن تلعب، بل تبقى واقفة في زاوية ولا تتحرك. لم أكن أجرؤ على دعوتها للالتحاق بنا، كنت أفهم أنها، من حيث هي التلميذة المسلمة الوحيدة في مدرسة من ثلاثين تلميذا، لا تجد راحتها معنا. أما الفرنسيين الإثنين أو الثلاثة فلم يكونوا يختلطون بنا أكثر، نحن الأوغاد الصغار اليهود والمالطيون. كان باستطاعة والِدَي فائزة أن يسجلاها بمدرسة البنات الإسلامية، هكذا كانت تسمى، كما كان الفتيان يذهبون إلى المدرسة الفرنسية العربية التي كان يديرها السيد «بيتيش» (*Pétèche*)، حيث درس والدي أربع سنوات. لكن آل مزالي، أكبر أثرياء المدينة، قرروا أن التعليم الفرنسي هو الأنسب كما في فرنسا.

في شارع گابرييلفيل، كنا العائلة اليهودية الوحيدة. لم أع هذه «العزلة» إلا بعد ذلك بكثير، في الواقع هذه السنوات الأخيرة، منذ أن أصبح الجميع يهتم بالأنثروبولوجيا الإثنية. في ذلك الزمن، لم تكن فكرة وجود خلل لتمر بذهني. كنا نسكن بهذا المنزل، هذا كل شيء. منطلقين من السوق، وبالترتيب، نجد دار التريمش، دار كالالا، دار بشير، دار ركاني ودار أغير. إلى جانب مصنع الزيت المسمى تريمش كذلك، مصنع الصابون، الفندق والمنازل الثلاثة التي كانت لوالدي، لم تكن هناك أية عمارة. بعد دار أغير، نصل إلى أقصى نقطة في المدينة وفي زقاقنا غير المسفلت الذي يمتد حتى طريق للجمال والحمير المحاطة بالصبار ذي الفواكه اللذيذة، كنا

نعرف بالطبع كل جيراننا، ولم تكن أية مناسبة تفوتنا. ميلاد، زواج، مرض، موت، كان الحي يتقاسم كل هذه المناسبات.

أحيانا، كانت والدتي تزور هذه الجارة أو تلك. وحين كنت طفلا، كان لي الحق في أن ألج عالم النساء وكنت أرافقها إليه. جولييت، والدتي، كانت كل النساء يبحثن عنها لصوتها الذي بلا مثيل. كانت تغني ملاحم، مراثي وأغاني حب لعبد الوهاب أو صالحة بأناقة ومهارة أكثر من أكبر الفنانين. بعد الشاي، الحلوى والإيقاعات، تطلب سيدة البيت من جولييت: «غني لنا شيئا. ما تريدين، جولييت، أغنيتك المفضلة... » وكانت والدتي تنتظر بلطف الإلحاحات، ثم تبتسم في خجل، تقوم جلستها على المقعد الجلدي وتغني بصوت ما زال يقشعر له جلدي إلى الآن «النيل نجاشي...» (*les bateliers du Nil*). كان الحضور ينتشي طربا. جالسا عند قدمي الفنانة، كنت أشعر وكأنني ملك العالم.

وفي يوم، كان ذلك نهاية 1942، وسني يقارب التسع سنوات. احتل الجيش الألماني موناستير. وعرف اليهود أنه كان عليهم أن يخشوا كل شيء. أما العرب فكانوا يظنون أن لهم أن يربحوا كل شيء. أسطول السيارات الثلاث الوحيدة كان عبارة عن طاكسيات جماعية مكوكية تربط بين موناستير وسوسة، المدينة الكبيرة المجاورة. فظهرت بين عشية وضحاها صورة هتلر على نوافذ السيارات الثلاث. واحدة من بينها، كانت في ملك «دويك» ؟ رفعت على خلفيتها راية نازية صغيرة. ووجد الجميع أن هذا يدخل في نظام الأشياء. أما أنا فقد تملكني الرعب. لم نكن نتحدث في ذلك، لكنني أفترض أن والديَّ كانا يرتجفان خوفا. هكذا تم تجنيد والدي للعمل في معسكر بسوسة حيث كان يزيل الأنقاض من الميناء الذي تعرض للقصف من قبل الأمريكيين. أما أكثر عمال مصنعنا تقدما في السن، صلاح، فإنه تكلف بالإدارة فيه بحيث إنه استمر في الإنتاج بإصرار. صلاح، إنه كان من العائلة.

لم يكن لنا أصدقاء بموناستير. كنا أبناء عمومة (اليهود، كلهم أقرباء بعض) أو جيرانا (المسلمين). ومع ذلك، فإنه كان لي جار صديق، هاشمي بشير. كان الطفل الأصغر المفضل بالبيت المجاور، بنفس سني. كنت أقرأ الجرائد وأنقل له أخبار الحرب بين اليهود والعرب بفلسطين. حين كان اليهود يربحون، أشعر بالرضى. هو، لا. في سن الحادية أو الثانية عشرة، لم تكن لنا أدنى فكرة عن أسباب هذه الحماقة. لكننا لم نكن متفقين. ورغم ذلك، لم نكن ببيتنا نتحدث عن ذلك أبدا، لكنني أظن أنه ببيتهم، كان والده، الشغوف بالخطابة، قد كون رأيا. ولم ينقص لعبنا بالشارع الذي لم يسبق لسيارة أن اجتازته. قوافل الجمال، نعم عربات الخيل، نعم، أما السيارات فلا.

يهودا وعربا، كما الشاعر أراگون و«عينا إليزا»، كنا نعيش «معا منفصلين». «يهودي» كان (وسيبقى) كلمة بذيئة. واليوم، ما زلت أجد حرجا، بتونس، في أن أقول إنني يهودي. أشعر بالذنب. غزة، اللاجئين الفلسطينيين، عالم المال وترهات أخرى. إن كلمة مسلم ليس لها نفس المعنى في الفرنسية أو في لغة أخرى كما هو معناها باللغة العربية. بالفرنسية، الإسلام هو دين. بالعربية، «مسلم» هو قبل كل شيء الانتماء إلى طائفة عالمية، إلى إثنية، إلى أمة، عائلة، كتلة. «مسلم» يعني الخير، «يهودي»، الشر. لقد تعايشنا ثلاثة عشر قرنا لكن أبدا لم نفعل بشعورٍ أننا ننتمي إلى نفس المجموعة. كنا نتحدث نفس اللغة، وحتى فترة الاحتلال كنا نتقاسم نفس الحضارة العربية-الإسلامية، كنا نتاجر معا، يساعد بعضنا البعض، لكن لم نكن نحكي قصص بعضنا البعض، كنا غرباء بعضنا عن البعض الآخر. ومؤخرا، عند زيارتي إلى موناستير، رافقني بعض الأطفال كما يُرافَقُ سائح. تحدثت معهم باللهجة الموناستيرية، بالساحلية، نبرة عربية لا يمكن تقليدها والتي يتعرف عليها أي طفل في وقت وجيز. كانوا منبهرين.

كيف نستطيع أن نكون موناستيريين وسائحين في نفس الوقت ؟ فحكيت لهم أنني ولدت بموناستير مثلهم. وأنني عشت بها ما يقارب الثلاثين سنة وأنني يهودي. أما انفجار الضحك الذي تسببت فيه فربما هو ما زال يرن بالأسوار. لم يكونوا سذجا ليبتلعوا نكتة كهذه، أن أحاول إقناعهم بأن أعداء قد عاشوا بموناستير، وأنني الوحش ذا اللحية الزرقاء، الغول الذي يلتهم الأطفال. أظن أنهم ما زالوا يضحكون من ذلك إلى الآن.

بينجامان سطورا سنة 1956 في سن الخامسة، مع والده، قرب ساحة لابريش *(la Brèche)* بقسنطينة.

الحمام، وماذا بعد...

قسنطينة، الشارع

بينجامان سطورا

في البدء الحمام، مع النساء، بعد ظهر يوم الجمعة، حين كان يخصص للنساء اليهوديات. لم يكن للنساء والرجال أن يختلطوا به، بالتأكيد، اليهود والمسلمين كذلك، فصل مزدوج وبالنسبة إلى الأوروبيين فإن الحمام كان شأنا يخص السكان الأصليين (*les indigènes*). آه! هذه المساءات الساخنة جدا بجنب العمات وبناتهن نصف عاريات... كانت الأمهات يغسلن بهمة للأطفال، وكن يتحدثن عن أزواجهن، عن الأطباق التي بدأن تحضيرها صباحا للشباط. كن يعتقدن أن الأطفال بين أفخادهن لا يسمعون شيئا، وأنهم كانوا موضوعين هناك كقطع أثاث. لكنهم كانوا يسمعون كل شيء، يرون كثيرا من الأشياء. اكتشاف الجسد الأنثوي الذي يثير الاستفهام، يباغت ويفتن، لذة، عطور... سيبقى الشرق دائما عالما أنثويا بالنسبة إلي (وسيكون صعبا فيما يخصني أن أرى الشوارع كما لو كانت غابات رجال، حين سأعود إلى الجزائر في الثمانينيات). النساء هن اللائي كن ينظمن الحفلات، يدرن التربية، كن وصيات على الفضاء الخاص. لم يكن الرجال يُرون، كان الأب وجها غائبا تقريبا في اليومي. كان يستمر في العمل صيفا ولا يظهر إلا في نهاية الأسبوع حين نكون لشهر ونصف بالشاطئ. حصص سباحة جديدة، تحت حرارة الشمس هذه المرة، دائما

برفقة النساء في عائلة النساء هذه: كان لوالدي خمس أخوات وأخ واحد، والدتي، ست أخوات وأخ وأنا، الذي ليس لي إلا أخت كبرى، كنت الأصغر، ليس الأقل دلالا، وشيء كالأربعين من أبناء وبنات العمومة. لكن، في سن الثامنة، انتهى الحمام بعد الظهر يوم الجمعة. هكذا بدأت حارسة الحمام تقول لوالدتي: «إنه قد كبر، الآن، الصبي!» وفجأة يتوارى العالم الأنثوي وينفتح زمن الممنوعات والتخوفات. صدمة حقيقية، عاشها وحكاها كل رجال الشرق. سأذهب إلى الحمام مع والدي في يوم آخر.

لم أخف أبدا من النساء المهندمات على طريقة «السكان الأصليين». لأن جدتي من الأم كانت تلبس ما يلبسن ولا تتحدث بالفرنسية. لم تكن تتكلم إلا العربية، هذه اللغة كانت بالنسبة إلي الوسيلة المناسبة للتواصل معها. ثم إن المرأة المسلمة التي تأتي يوم السبت إلى البيت لِكَيّ الملابس وإشعال الضوء والنار، بمناسبة الشباط، في الفرن، كانت تضع حجابها بمجرد ما تصل. كنت أتحدث إليها كثيرا بالفرنسية والعربية. كنت أتسلى أيضا مع اسماعيل والسبتي، العاملين المسلمين عند والدي الذي كان يملك محلا لتجارة السميد.

هكذا كنا قريبين من بعضنا البعض. لكن الأمر لم يذهب أبعد من ذلك، حتى في قسنطينة، مهما قيل من أقاويل. فعلا، كانت هناك نفاذية أكثر من أي مكان أخر، على الأقل بالفضاء العام، بين الطائفتين اليهودية والإسلامية المكونتين من 30 000 و50 000 نسمة تقريبا، من ساكنة تعد بـ 100 000 نسمة حيث كان الأوروبيون لا يشكلون إلا الأقلية. لكن بقسنطينة كما بأمكنة أخرى، كان الفصل الطائفي، غير المُنفِذ تقريبا، هو السائد الشيء الذي، كما نعرف، طرح مشكلة في هذا البلد. عاش اليهود فيما بينهم، مع منظومتهم الأخلاقية ومعتقداتهم، المسلمون والأوروبيون أيضا. لا أذكر أنني رأيت مسلما على مائدة وجبة من الوجبات، ولا يهوديا

على مائدة مسلمين.لم يكن هناك تبادل في الدائرة الخاصة. ولا اختلاط بمدرسة ديدرو العمومية، غير بعيد عن شارع گراند حيث كان بيتنا، في قلب «الشارع»، الحي اليهودي: في قسمي، أذكر أنه كان هناك خمسة تلاميذ مسلمين مقابل عشرين يهوديا وخمسة أو ستة أوروبيين، ما شهد على اللامساواة القانونية، السياسية، الاجتماعية والاقتصادية في جزائر 1950. في المحصلة، ما المشترك الذي كان بيننا، يهودا ومسلمين ؟ اللغات، العربية، الفرنسية، نفس أوقات الصلاة، قرابات موسيقية، والسوق، الشارع، حيث كانت النساء المرتديات حجابا أسود واللائي كنت أصادفهن في طريقي، يجسدن في نظري الإسلام التقي المتمسك بالتقاليد.

باستثناء جدتي رينا زاوي، كانت عائلتي تلبس على الطريقة الأوروبية. لكن الفروع من جهة الوالدة والوالد لم تكن من نفس الأصل الثقافي. آل الزاوي، الذين استقروا بساحة «لي گاليت» (*les Galettes*)، كانوا أكبر الصاغة في قسنطينة؛ بوصفهم فنانين كبارا مشهورين، فقد كانوا يصنعون مجوهرات «السكان الأصليين»، الأمازيغ، التي كانت تروق للمسلمين واليهود على حد سواء. فيما كان آل سطورا يكونون ما يسمى «عائلة كبيرة». كان جدي الثالث رئيسا للمجمع اليهودي بالجزائر. أما جدي فكان مسؤولا في طائفة «البنائين الأحرار» وواحدا من الأعيان المهمين بمدينة خنشلة بالأوراس. في الثلاثينيات، كان للكثير من أفراد الطائفة اليهودية، التزام سياسي يساري، جمهوري وعلماني، الشيء الذي لم يمنع من احترام الأعياد والتقاليد اليهودية. وقد صار والدي تاجر سميد بعد مشكل عائلي. لكن لم تعوزه الكتب، شهادة في القانون وبروفايل مثقف حقيقي مناهض للفاشية وعلماني، مقرب من السورياليين، تماما مثل الرسام جان أطلان الذي كان صديقه المقرب بثانوية أومال (*Aumale*)، الثانوية الكبرى بقسنطينة. كان قد اجتاز امتحان الباكلوريا في اللغة

العربية الفصحى تحت إشراف البروفيسور لونتان (*Lentin*). لكنه لم يكن يتحدث بهذه اللغة إلا قليلا. على عكس والدتي التي كانت تتكلم بالعربية العامية بشكل منتظم، عربية الحياة اليومية، تماما كما كانت جدتي. وكانت والدتي، التي حصلت على الشهادة الإعدادية، تتقن الحديث باللغة الفرنسية. أما العبرية فلم تكن تُتداول إلا داخل إطار ديني أساسا بـ«الرابطة» أو بالكنيس. وبعد وفاة والدي، سنة 1985 فهمت أهمية التمازج الثقافي : لعربية وشرق والدتي، لفرنسية والدي المحب لفرنسا والذي ساعدني في الولوج إلى العقلانية الجمهورية، لقراءة العبرية. بتعبير آخر، لزواج تحالف، لاختلاط اجتماعي و«حضاري». وبما أن كل واحد من والديّ كان له مستوى ثقافي معين، فقد ولجت الحياة محملا بإرث ثقافي صلب، خلاسي. وبتخوفات عند الخروج من الطفولة الأولى أيضا.

الخوف، أولا، من أن لا أكون في المستوى بالقسم، أن أعاكس والديَّ، أن لا أحترم الدين. والدتي، ككل الأمهات، هي من كانت «تحمل» التقاليد وتجبرني — وإلا كانت الضربات على الأليتين — على أداء صلواتي، كما على إنجاز واجباتي المدرسية وحفظ دروسي عن ظهر قلب. لحسن الحظ كنت في المقدمة بالقسم، كان هذا مصدر فخر بالنسبة إليها وطالما «أبرزتني» أمام العائلة (ما كان يحرجني كثيرا). كانت حياتي منظمة جدا : بعد أيام الأسبوع الثلاثة بالمدرسة العمومية، وقبل حمام بعد ظهر يوم الجمعة، كنت أذهب يوم الخميس إلى «التلمود-توراة» بمدرسة الرابطة. إلا إذا أعفتني والدتي، والتي أرادت أن أنجح في المدرسة الفرنسية، من الأمر. كنت أقرأ العبرية دون أن أفهمها حقا. مازلت أستطيع أن أفك رموزها لكن دون فهم. أما الصلوات فقد عادت إلي عند وفاة والديَّ.

كنت كل صباح سبت أذهب برفقة والدي إلى الكنيس، «معبد الجزائر العاصمة» بقسنطينة حيث كنا نتبع لا المذهب السفرديمي

الكلاسيكي لكن المذهب الأكثر قربا من فرنسا، مع الصلاة من أجل رئيس الجمهورية الفرنسية. لقد كنت أؤدي هذا الطقس من سن الخامسة حتى الثالثة عشرة، وإنه بفرنسا بكنيس «لي تورنيل» (*les Tournelles*) التابع لقسنطيني باريس، اجتزت ال «بارميتزفا» الخاص بي سنة 1963 (كان يقال آنذاك «اتحاد في الإيمان»).

وبعد ظهر يوم السبت، كانت أمريكا، في الغالب، بقوة سحر السينما. كنت أذهب إلى قاعة «فوكس» (*Vox*) مع أصدقائي (ستسمى *le Triomphe*، (النصر)، بعد ذلك) حيث كانت تسود ضجة متواصلة ومسلية حين يتم عرض أفلام حرب ورعاة بقر. بقاعة «فوكس»، سارعت كل الطائفة اليهودية لمشاهدة «التعاليم العشر» مع شارلتون هيستون والشرس إدوارد ج. روبينسون (الشخص الذي كان يغري اليهود حتى يحبوا «العجل الذهبي»). هذه المرة لا ضجة عند عرض الفيلم. لكن صمتا يكاد يكون دينيا، وكان من حقي أيضا، أن أحضر عرضا ثانيا في المساء بقاعة «الكوليزي» بصحبة والديّ (هذا البناء الجميل تم هدمه بعد الاستقلال). هناك شاهدت أفلاما لا تنسى وولد شغفي بالسينما مع «جسر نهر كواي»، مثلا، سنة 1957، أو «حين تعبر اللقالق»... «الدقات الأربعمائة»، لتروفو، سنتين بعد ذلك، هذا الفيلم ترك صداه في دواخلي بقوة، وكنت حينها أتماهى مع جان بيير ليو. لأنني كنت أختنق، دون أن أعي ذلك، الشيء الذي لن أعيه حقا إلا بعد أن وصلت إلى باريس في يونيو 1962، عند نهاية الحرب.

الخوف كذلك، بالأخص، من الحرب، من عمليات الاغتيال. سنة 1957، وأنا في السابعة، رأيت رجلا يقتل في الشارع بجانبي. سنة 1958، وأنا على كتفي والدي، لمحت دوغول بقسنطينة. 1961، شهدت اغتيال موسيقي كبير، رايموند. كنت في السوق مع والدتي حين تلقى رصاصة.

في سن الثانية عشرة، في مرحلة ما قبل المراهقة، كان لي وعي واضح بالحرب، بالخطر المحدق بوالدي حين يذهب إلى العمل، بقلق والديّ اللذين كنت أسمعهما من خلف الحواجز. كنت على علم بكل الأحداث السياسية. صار الزمن يبدو لي طويلا. وفي السنتين أو الثلاث سنوات الأخيرة من الحرب، كنا نخرج أقل المرات الممكنة. كنت أقضي وقتي في اللعب بالسطوح مع أبناء وبنات أعمامي، لم أعد أذهب تقريبا إلى المدرسة. وبدأت طائفتنا، كباقي الطوائف، تنطوي على نفسها أكثر فأكثر. ومن هنا صدمة الوصول إلى فرنسا حين تشتت الأسرة النووية واللافة بين مارسيليا، إيكس، تولون، نيس، ستراسبورغ، تولوز... بالنسبة إلينا فقد كانت هذه ضاحية مجهولة، سارتروفيل، بعد مرور من طابق أرضي بباريس البورجوازية. مع نبرتي وعربيتي على طرف الشفتين، ها أنذا أولا بثانوية جانسون دوسايي، فريسة ليس فقط للبرود العاطفي، للعزلة وللفردانية، لكن للسخرية ولنزعة في معاداة السامية عادية ومبتذلة كذلك -كل هذه الاكتشافات. لم أتأخر كثيرا لأفهم أنه، للاندماج، كان علي أن أخفي كل شيء عن أصولي، سواء كانت شرقية أو يهودية، أن أفكك رموز أعراف جديدة، أن أعمل، أن أصير تلميذا في القسم من جديد.

لا نوسطالجيا البتة، مع ذلك. الوداع، بالتأكيد لعطور النساء، روائح البيوت، المطابخ والأزقة هناك، الوداع للمدينة القديمة، الحمير، الحرارة، الضوء... لكن، سرعان ما تملكني إحساس بالحرية. حالة اللا أمن المرتبطة بالحرب كانت خلفنا. وأفقي يتسع، ثقل الضغط الطائفي الذي لم أع أثره حتى الآن، بدأ يخف، معايير جديدة تحل محل أخرى قديمة كنت أظنها لا تتغير. ممنوعات الأمس صارت شيئا فشيئا تسقط. محرمات دينية، غذائية، جنسية لاحقا. في سن الرابعة عشرة كانت المرأة قد كفت عن أن تكون موضوع استيهام مقلق، وفيها انتهت طفولتي. تابعت تعلمي للغرب بفضل

المدرسة الجمهورية، بدأت أسمي القط قطا شيئا فشيئا : انتهى زمن لعبة النظرات، الأفكار المتآمرة، المتهربة، الخطابات التي نضيع فيها الوقت ولا نذهب إلى ما هو أساسي.

وبنفس المقدار، لم أتنكر لحصة الشرق التي كانت في دواخلي، لكن حصة الغرب صارت أقوى ولقد استعددت لذلك. لأن الجزائر الفرنسية، كانت أيضا هي الغرب في الشرق. خاصة هذه المدينة المتفردة، اليهودية والعربية جدا، التي هي قسنطينة والتي لم تكن كالعاصمة، حيث لا يتحدث اليهود بالعربية، ولا الجزائر، ولا أوروبا. كان اليهود فيها معجونين بالتقاليد الشرقية، الدينية، ومستغربين جدا، علمانيين جدا. إلى درجة أننا حين وصلنا إلى فرنسا، ومع مظهرنا الشرقي، كنا نملك مفاتيح المنظومات الثقافية الغربية.

وقد مس المسلمين هذا الشعور بالتثاقف، أكثر عمقا في الجزائر منه في المغرب أو تونس.

أما بالنسبة إلي، أنا الذي لم أكن أعيش، لم أعش أبدا عابدا للنوسطالجيا، لاستيهام الاستشراق، لذكرى الحلويات الصغيرة، كنت أعرف أين أنا، ومن أين أتيت. ولم تأت تساؤلاتي حول ثقل الأصول إلا لاحقا. لم أعان من اضطرابات في الهوية، ولم أشعر بأنني «ممزق» فعلا : كانت جذوري تنضاف بعضها إلى بعض في ختام طفولة سعيدة ومضطهدة في آن، بين الجمهورية والشرق. الحرارة، الأخوة الطائفية اللتان فقدتهما وافتقدتهما، لم أتأخر في استعادتهما تحت شمس «ماي 68»، بالتزامي في السياسة الثورية. لكن هذه قصة أخرى...

رالف طوليدانو في الثانية من عمره تقريبا بالدار البيضاء.

كنت أحيا بين السطور

الدار البيضاء، أنفا الداخلية

رالف طوليدانو

كان أول سفر لي جوا في شهر يوليوز من سنة 1953. كنت ولدت للتو بباريس، وعاد والداي إلى الدار البيضاء يحملاني بين أذرعهم. عشنا سنتين عند جدِّيَّ من الأب. كان ذلك بالشارع الذي يحمل اسم العاصمة الفرنسية، في شقة فسيحة من طراز «آر ديكو» والتي كانت أجواؤها تدير الظهر إلى المغرب، أرى نفسي نائما في غرفة والدي القديمة، والمهد موضوع بين قطعة أثاث (*Cosy corner*) ودولاب بأبواب ذات مزالق. كما لو أنه دوامة أطفال، كان قط بوجه بشري يدور حول نفسه في الظلام، محدثا طرطقة كهربائية كانت ترعبني. أصرخ مستنجدا بوالدي ووالدتي فيما يتناول جداي وجبة العشاء في قاعة الأكل طراز 1930. يسمع صدى خطى بالممر. ينطلق نقاش جدي خلف الباب بين ثلاثة مؤيدين للمواساة ووالدي الذي يطالب بأسبقية الصرامة. أفهم مرافعة جدي التي كان يدافع بها بصوته المهيب والعطوف في اللغة الوحيدة التي يتحدثون بها إلي، الإسبانية: «لا تدعه ييأس، إنه يخشى الوحدة في الظلام.» وكان جواب والدي بالنسبة إلي مبهما، لكن نبرته الحازمة تستغني عن كل ترجمة: لا ينفتح الباب، رغم بكائي المضاعف. هكذا اكتست الفرنسية منذ فجر حياتي لون الصرامة التي لا تهتم للمبرر الوحيد الذي أهمني دائما، مبرر

القلب. ثم مدعومة بالتوسل الملحاح لجدتي تدير والدتي مقبض الباب. هكذا انتصرت الرحمة اليهودية على المبادئ التربوية للعاصمة الفرنسية. ذلك أن نهاية عهد الاستعمار كانت تطفو فوق فوضى ثقافية. كان علي أن أنتظر سنوات لأفهم أن الدخول الرحيم للأعزاء الأربعة إلى غرفتي لم يكن أساسا إيبيريا.

في هذه اللحظة، كل ما يبدو لي ناعما ومعطرا، كمناديل جدي أو أثر جدتي، يحمل صدى إسبانيا. أعيش داخل فقاعة قصص حب قشتالية تلويناتها الموسيقية مسكونة بفرسان أميرات عاشقات يخفرون منذ خمسة قرون تقريبا منفى لا أشعر به. كان العالم الذي ترعرعت فيه، محميا بجدران بيوتنا وبحب ساكنيها، مملكة تبعث على الطمأنينة. أما في طنجة حيث قضيت عطلا طويلة مبكرا، كان الطابع الإسباني منتصرا. يبث «راديو إشبيليا» دون توقف أوبريتات غنية بإيقاعات الصنوج الإسبانية. وفي يوم الأحد، يمر الفطور على إيقاع القداس ذي الترديدات الأليفة عند الجميع. ونادرا ما كان يكدر التلفظ الأحادي النغم للفرنسية نشيد اللغات اللاتينية. في صباح حياتي لم أكن أسكن بالمغرب، لكن بإسبانيا مثالية. في أشغال البيت، وبالتناوب مع لويزا، بيترا أو ماريا، كانت خادمات مغربيات يعملن في صمت. بطنجة، كن يتحدثن إسبانية خشنة بنبرات الريف. أما بالدار البيضاء، فقد كانت جدتي تتحدث إليهن بلهجة تطغى عليها القشتالية.

وفي صباحية صيفية بيضاوية، حملتني الخادمات المغربيات إلى السطح. إنه يوم غسيل. ينشرن أغطية بيضاء على حبال. ويلتحق بهن مستخدمو الشقق الأخرى. كانت النساء المغربيات يضحكن في انبهار منعكس على الأرض المعالجة بالجير، فيما الغسيل والجدران تُصرِّف الضوء. تمسك واحدة منهن بي بين ذراعيها، تكلمني بالعربية. أنا أبكم. تعلمني «لا

باس» و«بالسلامة» في لغتها. تقطع رفيقاتها عملهن، ويتحلقن حولنا مداعبات شقرتي. حتى سن العاشرة لم أكن أعرف إلا حوالي عشر كلمات عربية. بأخذها مكان الخادمات الإسبانيات، حملت حبيبة إلى البيت كلمة وعطور بادية من شمال إفريقيا اقتربت مني كشبح بلا معالم. وهذه الشخصية الفياضة للخادمة المغربية الجديدة، عاطفتها (تحدث ضجيجا بأوانيها كي لا تسمع بكاء أختي الصغيرة وهي تعاقب)، جهلها باللغات («جنافو» كانت هي كلمتها الوحيدة المستوحاة من فرنسية شعبية وتعني اللامبالاة) كل هذا يجعلني أغوص في مغرب لا يكترث للحدود، إفريقي إذن. سيختصر ذلك طويلا إدراكي للبلد. وبفضل حب «حبيبة»، وفاء حارس البيت «ابراهيم» وهو يجول بهامته القصيرة ذات اللون الآبنوسي من واحد من بيوتنا إلى آخر، حاملا طبقا من الحلوى أو آنية، وفضل دعابة السائق «سماعين» الذي يذهب بنا إلى المدرسة ملقنا إيانا أغاني عربية جريئة، دخلت تدريجيا في المغرب. ومع ذلك، فإن إحساس الانتماء إلى البلد كان مشوشا عندي، كحشوده التي تقترب خلسة من واقعي.

كان جدي يحكي لي معظم الأوقات، أننا سفرديم، مطرودون من شبه الجزيرة الإيبيرية من قبل الملوك الكاثوليك. لكنه، يوم الأحد، يدندن باللاتينية متأثرا «سالفي ريجينا» (*Salve Regina*). سفرديم، هذا ما يبدو أنه صفة يهودية موازية، طريقة خاصة في أن نكون قشتاليين، تنعكس في اسمنا والذي علمني مبكرا كل ما يميزه. فما الشرف الربي الذي يزين شجرة أنسابنا ليس له أي طابع ملموس بالنسبة إلي. أحتفظ منه فقط بالأبهة. وقد جذبتني طليطلة طويلا أكثر مما فعلت إسرائيل في قلبي. كنا نسغ إسبانيا، وقد عشت في واقعها المتسامي ؛ شعرها المغنى. بدون شك، أغنت قيم يهودية عديدة، لا تكلف فيها، حياتي، لكن اليهودية الظاهرة باتت بالنسبة إلي شيئا غريبا. وكأزواج شباب معينين، لم يكن والداي يحرصان على

اتباع تقاليد عرقهم، مفضلين بذلك بروست، سيمون دوبوفوار وفيرجينيا وولف على الاحتكاك بالمقدس. وقد كانت طقوس اليهود تختصر في مناسبتين للظهور في الكنيس. كانت الأولى تحدث أثناء الصلاة الأخيرة لكيبور، ساعة «نحيلة» التي تنتهي بالنفخ في قرن كبش يجعلني مع أخي نرتجف، محتمين تحت شال الصلاة الحريري الذي كان يضعه جدي، من خوف غامض. والثانية كانت غداة «عيد الخيام»، كانت تمطر حلوى من منصة النساء اللائي يأتين للاحتفال بـ«سيمحا توراة» (*Simha Torah*). سأعرف يوما أن ذلك يعني «فرح التوراة». أما ترددي غير المنتظم على الكنيس كان يمر في جو هو خليط من الحنان، المرتبط بحضور الجد المحبوب، والقلق. ولكوننا أخي وأنا لا نتقن قراءة العبرية، فإننا كنا عاجزين عن متابعة الصلاة، فيما كانت مشاركة فتيان تربوا في مدارس يهودية تحرجنا. لقد كنا، بدون شك، يهودا بالنسبة إلى غير اليهود (*goys*). لكن غرباء بالنسبة إلى اليهود. لم يستطع مدرس عبرية شاب، عين إعدادا لأخي للبار ميتزفا، أن يميز بيننا. أثناء الدرس، كانت شحنات من الأناشيد الگريگورية تنساب من الصالون. وكان يستغرب أن يسمع أناشيد من هذا النوع ببيتنا. مأخوذا بالحرج، قلت له إنها من مصادفات الراديو. وفي الدرس الموالي، عادت نفس نبرات راهب سوليسم تطوف عبر الهواء (كانت والدتي تفضل هذه الموسيقى). ما جعل الربي الشاب يقول بنبرة ساخرة: «هل تغيرون جهازكم، أحيانا ؟»

كان الدين المنزلي مطبخيا أساسا. عند والديَّ، وفي تناغم مع أذواقهما الأدبية، كان يتوالى بلائحة الطعام اللحم المشوي بالفرن والجزر فيشي مع الخضار المشوية والجبن، أما عشاء طفولتنا العادي فكان يتركب من هريسة خضار مضافا إليها لحم الخنزير المدخن المفروم. لكن كان هناك عشاء الجمعة مساء عند والدَي أبي وغذاء السبت عند والدي أمي،

وجبات مسبوقة دائما بالمباركات. في هذا البيت الأخير، رغم الديكور بالمزهريات الصينية، بمرايا البندقية، دواليب الخشب الأسود المنقوش وأرائك الأكاجو المحاطة بالخزانات الزجاجية المزينة برسومات سيفر، فإنه كان يسود جو أقل إيحاء بأوروبا. على عكس بيت جدي من والدي الذي أُثث سنة 1930، حيث كان يخيم النظام والتراتبية. فقد كانت راكيل، مدبرة المنزل الناطقة بالإسبانية، تقدم الأطباق بادئة بالنساء، في حين كان بيت والدَي أمي يعج بالعجائب، إذ كانت الخدمة مشوبة بالفوضى في الغالب. كانت «الدفينة» التي حملها مساعد الخباز مسبقا إلى الفرن، تصل تحت أصداء الأقفال والبوابات المصفقة، فيما كنا نأكل المقبلات المرشوشة بزيت الأركان. بالنسبة إلى جدي، وحده الطهي البطيء في فرن الخشب طيلة الليل من الجمعة إلى السبت يمنح الطبق المذاق المرجو. وبوضع الطنجرة الكبرى على مقعد بلا ظهر، في إحدى زوايا المائدة، كانت تشرع جدتي في تثبيت البيض الملون على طبق تحمله خادمة، والبطاطس المكرملة، لحم الثور المشوي، حساء القمح. وفي دوامة من الأبخرة المشبعة بحرارة الأطباق، يبدأ الطبق التقليدي في الدوران، فيما تستمر جدتي، بعين عالم آثار فخور، في استخراج الكنوز من البرميل: «ها هو الجيلاتين من أجل أخي، والعظام بالنخاع للأطفال، هل يريد أحدكم الشوربة بالحمص، كانت البطاطس قد بدأت تذوب، كنت أظن أنه ما زال هناك المزيد منها.»

ترك استقلال المملكة المكان لعهد الاستعمار الجديد. واستتب وضع كانت فيه الطبقات الإثنية والثقافية للبلد تتأمل بعضها البعض في احترام متبادل. ومع ذلك، كانت كل نهاية سنة دراسية تعرف «عودة» مجموعة من رفاقنا المنحدرين من المدارس الفرنسية، هكذا بدأ التعريب يتقدم. أما هجرة المعمرين فقد كانت تقوي هويتنا اليهودية. وصرنا من جديد مغاربة، بعد أن

كف الجميع عن اعتبارنا ناصريين (*Nazaréens*). ثم بدأت والدتي عملية عودة منظمة إلى تقاليدنا الدينية. مع وفاة الجدين المتتالية، بقراءة النصوص المقدسة. أما وجبات الأعياد فكان يتم تناولها ببيتنا. انتهت موضة الخضار المشوية، بعودة متئدة إلى الأطباق اليهودية. البسطيلة بلحم الحمام، طاجين الخروف بالبرقوق، ذي الخصوصية المسلمة حلا محل اللحم المطبوخ على الطريقة الأوروبية. الانجذاب إلى كل ما هو تراث مغربي ميز كثيرا نهاية الستينيات عندنا. وقمنا بأسفار إلى جنوب المغرب، أما الحرب الإسرائيلية العربية 1967 فقد أوقفت مؤقتا علاقاتنا المتميزة مع الإمبراطورية الشريفة. وبدأت الأعواد الأندلسية ترسم سراب حديقة متصالحة مع نفسها. هل نحن يهود عرب أكثر أم أوروبيون ؟ قصيدة الحب كانت تطبعها الهشاشة، والمفارقة غير مريحة تماما. كنا نجمع شذرات مراجع وطنية لكن التعريب بالبلد جعلنا نقتبل اليهودية. هل هذه الأخيرة متوافقة مع الإسلام ؟ كان الفرنسيون قد ألغوا وضع الذميين، هكذا أنقذونا من بعض شطط الهلال. كنت أداعب حلما في بعض الصباحات، عطر النعناع الطازج الممزوج برائحة خبز الشيلم (*seigle*) المشوي : أن أكون مغربيا تماما مع خصوصية يهودية. وفي العشاء، كسر حلمي، حادث اجتماعي نقله والدي عن جلسة لمجلس الطائفة اليهودية. فهمت من ذلك أن مستقبل اليهود بالمغرب صار معرضا للخطر، متراوحا بين الارتباط العاطفي بالوطن ونهاية الأوهام. سأذهب لأتابع دراستي بباريس، ولن أعود منها إلا في العطل. أما محاولة الانقلاب في الصخيرات، بُعَيد حصولي على الباكلوريا، فقد حولت فجأة الموسيقى الهادئة إلى دقة جرس حزينة. مغرب بدون ملكية سيكون ديكتاتورية كولونيلات معادين للأقليات. والرشوة المستشرية بالقصر بدت وكأنها خيانة لوعود الاستقلال. سنعود إلى تيهنا بحثا عن أرض متسامحة. هكذا اكتملت طفولتي، وقد صرت للتو يهوديا مغربيا.

داني توبيانا في السادسة من عمرها، بمدرسة سيفيني (*Sévigné*) في گالمة.

من جهة الباحة
گالمة، شارع زاما

داني توبيانا

من أجل الشيشيت (*la Chichette*)

صيف 2011. ظهرت، مضيئةً، حين كنت في عطلة أتأمل غروب الشمس قبالة مرتفعات الفيفاري (*vivarais*). ظهرت، بضاماتها السوداء البيضاء، البراقة بفعل الماء الذي قذف به عليها للتو، والمرشوشة بالضوء الذي ينعكس عليها. كأي بديهية، انفرضت ذكرى باحة منزلنا الكائن بشارع زاما، وحيث رأيت النور بگالمة. كنقطة ارتكاز لذكريات طفولتي. مكان للذاكرة مازال يبلور إلى اليوم، ولوحده، نهاية الأوهام والآمال، التقاسمات والمشاجرات، الضحكات والدموع، الألعاب والأحلام.

كان والدي، المنحدر من أب يهودي تونسي، يؤكد على أن يهود الجزائر هم فرنسيون.

فرنسيون؟ نعم، لكن...

على هذه الأرض المسلمة، كان اليهود يقتسمون والمسلمين تقاليد معينة، بعض الطقوس، كالختان، كانت مشتركة وأغلبها كان يجري بين أحضان العائلة. كانت النساء يزغردن بنفس الطريقة خلال حفلات

الزفاف أو للتعبير عن الفرح، وفوق ذلك، لم يكن يشار في كتب المدرسة أو الأدب إلى العيد أو يوم كيبور.

في التقليد المسيحي، الطوافات، طقوس الاتحاد في الإيمان، كانت تتوجه إلى الخارج، باتجاه ساكنة كثيرة العدد وذات ردود فعل محسوبة، وقد كانت الصورة التي بقيت من ذلك تدعو، في تقديري، إلى مقدس جماعي أكثر مجدا، عائم في مراسيم كانت تطبع خيالي.

كطفلة يهودية صغيرة، كنت أفهم أفضل طريقة عيش زميلاتي المسلمات، لكن طالما أخذتني الغيرة من حرية الفتيات المسيحيات الصغيرات.

هكذا عادت الحياة إلى الصورة وسمعت ضحكاتنا الطفولية كما لو كانت صدى، فيما كانت النساء كلهن على كلمة واحدة لتنظيف باحة بيتنا المشتركة بكمية كبيرة من الماء والأطفال يتسلون برغوة الصابون. لي ثماني أو تسع سنوات وهذه هي آخر سنة في الباحة بالنسبة إلي. لا أعرف بعد.

كانت تعيش بشقق هذا البيت المنطوي على الباحة الداخلية، إحدى عشرة عائلة. كان هناك سكان الطابق الأول الذين يستفيدون من إمكانية الصعود إلى السطح في شقق أفسح وأكثر إضاءة وهناك سكان الطابق الأرضي الذين كان لهم امتياز الاستفادة من الباحة. عالم صغير يختصر المجتمع الجزائري في تلك الفترة التي كانت تطبعها الشروخ إلى حد ما، إذ ينتظم البيت حول الباحة في مجموعات غير مترابطة لأشخاص لا يلاقي بعضهم البعض إلا بصعوبة والذين طالما تفادوا المكوث بها وهناك مجموعات أخرى مترابطة لناس يأتون إليها في أوقات محددة من الأسبوع أو في مناسبة خاصة. كانت هناك عائلة فرنسية «من فرنسا» والتي جعلنا تكتمها نبقى بعيدين عن الاحتكاك بها وعائلة أخرى كانت تتردد بين القرب والمسافة. يأتي الزوج من فرنسا والزوجة المولودة بالجزائر من زواج

مختلط يهودي مسيحي كانت تتقاسمه الثقافتان. ثم الآخرون، الذين ولدوا هنا، عائلات يهودية أو مسلمة، ملونة وكثيرة الضجيج، تتواصل فيما بينها مرة بالعامية، ومرة بالفرنسية.

بدأت الوجوه ترتسم، جان وكلبه كيم، شريف ونبيل، أصدقاء الطابق الأرضي، جورج ودانييل، الأخوان المتسابقان دائما، الأختان زوهرة وتيتا اللتان كانتا تسكنان بالطابق. كان الكبار يركبون ويفككون العالم في فترة بداية حرب الجزائر. حتى الألعاب مع الأصدقاء كانت شيئا ما نوعا من الحرب : الليمونات كانت تمثل القنابل اليدوية، والعصي، الرشاشات... كانت أختي محاربا رهيبا، أما أنا فكنت أفضل القراءة والأسفار الداخلية.

كان جان ينتمي إلى العائلة اليهودية الأخرى بالبيت، لأسباب غامضة، لم تكن والدتي ووالدته تتبادلان الحديث وتتخاصمان باستمرار، جان، أختي وأنا، نحن الثلاثة ابتدعنا لعبة من وحي هذا النزاع الذي لا يفسر بالنسبة إلينا. كنا ننتصب أمام باب شققنا، ومعا ننادي أمَّينا في نفس الوقت.

هكذا كانتا تهرعان إلى الباب، ثم نعود لنلعب في هدوء، أبرياء في الظاهر، فننظر إليهما من زاوية العين لنقيس درجة غضبهما. ذلك أكيد، إنهما سيجدان مبررا للمشاجرة ! «بفف...» كانت تتأفف والدتي وهي تهز كتفيها. «بفف...» تكمل والدة جان وهي تضع، في حركة تمويهية، المكنسة المنتصبة أمام بابها في مكانها. ثم تعودان معا إلى أشغالهما، وهما تديران ظهريهما لبعضهما البعض بملامح متشنجة. لم تكونا تقولان شيئا، لكن نظرتيهما بليغتان في التعبير عن فطنتهما بالأمر.

استمرت زريدة العجوز في طهي الفطيرة على كانونها وكانت توزع قطعة منها على كل الأطفال الذين كانوا ينظرون إليها وهي تصنع الفطائر. وفي كل ربيع كان يأتي مسعود الفراش. يبقى معنا يومين ويعيد ملء

الأفرشة التي تم نفش وغسل وتشميس صوفها ونشرها على أرضية الباحة وذلك لفائدة المنزل كله.

وفي كل احتفال بالفصح اليهودي كان والدي يشتري كبشا، ويطلق عليه دائما اسم مسعود أو بوب، والذي كنا نرتبط به عاطفيا، ثم يأتي سكين الربي ليغيبه عن ألعابنا غداة العيد.

كانت الحياة اليومية تسير بشكل عادي، على الرغم من الالتزامات السياسية لكل واحد بالخارج، والتي يعرفها البعض عن البعض الآخر لكن التي يتم كذلك إخفاؤها عن سبق إصرار بين حيطان المنزل الكتومة.

لم نكن نتحدث أبدا، خلال مظاهرات 1945، عن اغتيال زوج وابن فاطمة بن صالح التي وَقَت من الكراهية نفسها بإيمان لايتزعزع. وكنا نتجاهل الأفعال الجبانة لوالد جان الذي دافع عن فكرة جزائر فرنسية وكان يستعرض على دراجته النارية الرائعة، مظهر أسلحة صيده. وفوق شقتنا كانت تعيش عائلة جميلة. كان زوجها زعيما بجبهة التحرير. وقد هرب إلى تونس تاركا إياها مع ثلاثة أطفال. كل سكان المنزل كانوا على علم، لكن أحدا لم يكن يشير إلى ذلك. أما توترات الحرب فقد كانت تقضم الروابط بين الطوائف في البلد، لكن كل نساء هذا المنزل تعاهدت على صيانة ما نسميه حسن الجوار. وحدها والدة جان كانت ضد الفكرة.

الخميس يوم غسيل، ككل أسبوع ستتقاسم والدتي المغسل مع فاطمة بن صالح. ها هو ماء مغسلة والدتي يغلي بشدة ورائحة الصابون الأسود تنتشر على السطح، بخار المغسلات أشبع الآن هواء المكان. مغسلة كبيرة للأغطية، المنشفات والأبيض، وصغيرة لملابس العائلة الأخرى، وأصغر منها لـ«الملابس الخفيفة» الهشة. لي بين سبع وثمان سنوات. أيام المدرسة صارت معدودة وشمس يونيو بدأت تسخن مربعات زليج السطح. أحب التباين بين حرارة الزليج الطيني والماء المنثور على الأرضية في الظل

النسبي للمغسل. كنا أختي وأنا نتسلى متزحلقين به في سعادة غامرة. تعنفنا الوالدة لأننا كنا نضايقها. طالما أردنا أن نساعدها في الغسيل الذي كانت تفركه بقوة على قطعة خشب.

يظهر أن النساء بالعاصمة لهن آلات كهربائية، ومن جهة أخرى، لم أر أبدا «فرنسي فرنسا» بالبيت يستعملون المغسلة. ربما لأنهم كانوا يملكون آلة غسيل دون أن نعلم بذلك ؟ ولشدة ما أتعبناها، انتهت والدتنا بتسليمنا، أختي وأنا، مناديل والدنا. ففركناها مباشرة بفرشاة الغسيل قبل أن نعيدها إليها لترميها في الماء الساخن جدا بالمغسلة.

إنه يوم غسيل وأنا راضية. سيكون السطح في ملكنا اليوم كله. يمكننا أن نلعب الاستغماية بين الأغطية التي تجف على الحبل. بعد القيلولة، حوالي الساعة الثالثة، حين يبدأ الظل في غزو السطح، ستأتي ساعة النساء. يوم غسيلِ واحدة منهن، يجمعهن كلهن. يأتين كل حسب دورها، بالشاي المنعنع، القهوة، مقروط، كعب غزال وأصابع لوز، إنه خلال هذه الاجتماعات بدأت تربيتي الجنسية، في غياب الرجال، تبوح هؤلاء النسوة، المتكتمات على حياتهن مع ذلك، بعضهن لبعض بأسرار مرموزة. ووالدتي التي تتحدث بالعربية بطلاقة لم تكن تتغيب طبعا عن هذه الأحاديث. إنه يوم الغسيل وأحب هذه اللحظات التي تضحك فيها والدتي من قلبها مع صديقاتها، أنا الآن أكتشف تواطؤ وتلقائية النساء فيما بينهن. حتى صبية المنزل أدركوا أن هذه اللحظة هي في ملك النساء والفتيات وحدهن، كيفما كان سنهن، فيبتعدون من تلقاء أنفسهم ويذهبون للعب بعيدا. تنفجر صديقاتي زوهرة، تيتا أو سليمة ضاحكات، وأغبطهن على أنهن يستطعن تقاسم كلمات والدتهن وأخواتهن. أنا منتوج جمهوري خالص ولا أتحدث إلا بالفرنسية.

في هذا اليوم بدت زريدة وكأنها غاضبة، جلست على الأرض وهي تنفخ بصوت مسموع. تخرج من فمها كلمات تبدو وكأنها شتائم. تصدر

النساء أصواتا وينهمكن في التعليق. ثم تنشرح زريدة أخيرا. أنا لائذة بالصمت. أحب القصص وأحاول جاهدة أن أفهم تلك التي تكون مطبوعة بالغرابة. يبدو أن لا أحد لاحظ اختفاء فضيلة، امرأة أربعينية، ذات عينين تبرقان شغبا. يظهر رأسها فجأة من بين الأغطية، مسبوقا بصرخة ملأى هيجانا. رسمت شاربا على الشفتين، ووضعت شاشية حمراء على شعرها المرفوع وارتدت گندورة رجالية. أخذت مكانا وسط حلقة النساء التي اتسعت وبدأت تقوم بحركات، كما فهمت ذلك، تحاكي بها خصاما بين رجل وزوجته. تدير عينها، تدلي كرشها المزيفة المكورة، تتكلم بصوت غليظ كالرجل، ثم بصوت امرأة أكثر حدة وتصنعا. هكذا نسيت زريدة مزاجها السيء وانفجرت ضاحكة مع الأخريات. أما والدتي فكانت تبكي من الضحك وتمسح عينيها. لم أفهم شيئا من هذه القصة التي تعني الكبار وتدور أحداثها باللغة العربية.

لكنني أشعر هنا بلحظة فريدة للاتحاد في الإيمان تجعل العيون تلمع من المتعة. شيء ما وراء المستملحة. بعد قليل تدق الساعة الرابعة، يأتي شريف ليهمس في أذن أمه بأن والده قد وصل. وفي برهة تقريبا توقفت الضحكات. وقفت النساء جميعا. جمعن الصينيات حيث تراكمت الفناجين الفارغة وكنسن الفتات المترامي فوق أرضية السطح. ثم اختفت كل واحدة في بيتها. وعادت فضيلة إلى تكتمها في لباسها المعتاد. وانغلقت علبة باندورا من جديد، لكن بانفتاحها عشر دقائق لا أكثر، فإنها جعلت عالما أنثويا ينبثق، سريا ومليئا بالفرح المتواطئ. في ذلك اليوم، وهبتني النساء اللائي لا يملكن الكلمات التي كنت فخورة بتعلمها في المدرسة، أولى تجاربي في المسرح. في عملي الحالي كمخرجة، أستمر في الحلم بالبساطة وبالانفعال الجميل، من غير بهرجة، اللذين ارتبطا بلحظة التقاسم هذه.

من باحة كاملة لم تبق إلا صورة أخذتها أختي سنة 1923 حين عادت إلى المكان المعلوم. لحظة منتزعة من الزمن، نقطة ثابتة بين الأمس واليوم. في ذلك اليوم، كما في ذكراي، يلمع الزليج الأسود والأبيض. ربما نُظف قبيل وصولنا. باب مدخل شقتنا هو هنا على اليمين ونحن ندخل. هناك زرابي مدلاة من السطح وحتى الرواق الداخلي. على الصورة، الجو صحو والضوء الناعم في نهاية المساء يبدو وكأنه حافظ على ما يشبه طعما من الأيام الخوالي، منقوشا في حيطان البيت، الموبوءة قليلا، اليوم.

إيف توركي، الذي لا يتوفر على صورة طفولة له، هو صاحب هذه الصورة التي التقطها
من شرفة الشقة العائلية، بحارة رزق الله في بيروت.
يسارا، على مسافة ثلاثين مترا، مخبزة.

ابن الخباز

بيروت، زيتونة

إيف توركيي

اسمه أحمد، إنه أفضل أصدقائي، عمره سبع سنوات، تماما مثلي. أعرف أن والديه مسلمين، يعرف هو أن والدَيَّ يهوديان. بشارع رزق الله، ببيروت، كل الناس يعرفون ذلك. لكن هل تظنون أن الأمر يكون محرجا إن أردنا أن نلعب بالكُلل؟

في سنة 1947 كنت في الخامسة من عمري. كنت أظن أن كل الأطفال يهود. الأمر بسيط، كان لهم أم وأب مثلي، كانوا يذهبون إلى المدرسة مثلي، يأكلون مثلي، ينامون في فراشهم مثلي. كنت أفكر: لا بد أنهم يذهبون إلى الكنيس مثلي.

في الكنيس كان القلق يسكنني. يتملكني النعاس حين تنشر الصلاة، التي يرتل أدعيتها الكبار، دوائرها الروحانية. وكي يسليني، كان والدي يكتري لي «الريمونيم»، هذه الأسطوانات الصغيرة التي تحيط بها أجراس وذراع من فضة والتي تزين ألواح الشريعة. كنت فخورا بعرض جريساتي أمام أنظار زملائي الذين لم يكونوا يملكون منها شيئا. مع الأسف، بعد عشر دقائق من ذلك، أخذها مني حارس المعبد. ما العمل؟

في ساحة الكنيس كان أطفال كثر يلعبون. كانوا عنيفين، يشدون شعر بعضهم البعض أو يتصافعون. أحيانا يقفزون فوقي، متصايحين «خبيصة!» يرمون بي على الأرض، يضربونني بقبضة أيديهم، يتكدسون

فوق ظهري بنية أكيدة في تحويلي إلى حساء. بالمدرسة اليهودية التابعة للرابطة، كانت «خبيصة» هي اللعبة المفضلة في فترات الاستراحة. كنت هادئا وخجولا. في معزل عن الحشد، كنت أتناول فطيرتي، وحيدا، فيما هم يتسلون. ومع ذلك كنت أريد أن أصير واحدا من أصحابهم. أحيانا، أتقرب منهم، أتعرض لضرب، أبكي، وهنا، كان الأمر أسوأ من الأول، كانوا يسخرون مني. أما أحمد، ابن خباز الزقاق الذي أسكن فيه، فلم يضربني أبدا، ولم يشد شعري أبدا. وحين تقول لي والدتي : «لا تلتصق بساقي، أنا أطبخ !»، أتسلق السلم، يراني أحمد، يقفز في الهواء، يصرخ «واه !» وخمس دقائق بعد ذلك، نكون قد امتطينا حصانينا بزقاق الحي الصغير.

وفي أحد الأيام، جاءتني فكرة.

— ماما، أيمكننا أن نصطحب أحمد معنا إلى الكنيس ؟

ماما آية في الجمال، كبيرة وتحبني. لكن ربما قلت حماقة، فقد أخذت ملامحها شكلا غريبا.

— إذن، أنستطيع ذلك ؟

— لا، لا نستطيع ؟

— لماذا لا نستطيع ؟

— لأن أحمد مسلم.

— وماذا بعد ؟

— المسلمون لا يذهبون إلى الكنيس.

— أين يذهبون ؟

— يذهبون إلى المسجد.

— ما معنى المسجد ؟

— هو نوع من الكنائس بالنسبة إلى المسلمين.

هكذا فشل مشروعي. لكن لم تعوزني أبدا الأفكار.

— وإذن، يمكنني أن أذهب مع أحمد إلى كنيسه؟
— لا، لا يمكنك أن تفعل ذلك.
— ولماذا؟
— لأنك يهودي.
— قلت: «هكذا إذن.»

الآن أتممت السابعة من عمري، ما زال أحمد أفضل أصدقائي، لكنني تعلمت الأديان.

بزقاقنا، التاجر خواجة فريد، ماروني، البقال جواد، مسلم، صاحب المصبنة علي، مسلم، أنجيل ملحمي، جارتنا، مسيحية، السيدة رافتوبولو وزوجها الصيدلاني، مسيحيان، الخباز، مسلم، الروسية المسنة أولگا ليمانسكي التي تتجول في حديقتها الجميلة، هي من جهتها، رسامة.

حين يغيب صديقي، أذهب للبحث عنه بالمخبزة. والده، محمد علي، هو أفضل خبازي الحي. من خلفية المحل تنبعث روائح الخبز الساخن، فطائر الصعتر والبيتزا باللحم. على لوحات طويلة من الخشب تصفف قطع الخبز العربي، المستدير والمسطح، يتم وضعها على الآجرة الحارقة، تهتز، ترتفع ثم تنتفخ كالبالونات. ثم يكدس أحمد الخبز المطهو في سلال من قصب. أحيانا يسرق قطعة فنأكلها معا خلف المخبزة.

تسكن عائلتي بالزيتونة، بالقرب من البحر. من وقت لآخر، حين نكون على مائدة الأكل، يتبادل والداي الحديث. يتحدثان «عنا» ويتحدثان «عنهم». نحن هم اليهود، «بني عمينو»، أفراد شعبنا. هم، «الگوييم» اللايهود. نراقبهم، نتتبع أفعالهم، أقوالهم، «يمكنهم أن يصيروا خطيرين»، تقول والدتي. سبع سنوات هي عمري ربما، لكنني أشعر أن والدَي خائفين فعلا.

في زقاقنا، تجار الفصول الأربعة، الرصاصون، النجادون والخادمات كلهم مسلمون. لا يجب أن نقول ذلك أمامهم، فهم لا يحبون ذلك.

في هذه الحالة يجب استعمال الشيفرة السرية والحديث بالفرنسية : «*les Musulmans*» (المسلمون) يصيرون «المُس» (*les Muses*). «هم طيبون، تقول والدتي، وقلبهم في يدهم، لكن ليس دائمًا. أحيانا، يستمعون إلى الراديو، فتتغير نظرتهم إلينا.» أما والدي فيحكي أن القصة مرتبطة بفلسطين. لا أعرف كثيرا معنى ذلك. وفي يوم قال لي والداي :

— سنذهب للعيش بعض الوقت مع جديك.

— لماذا ؟

— لأن هناك قصصا تحدث.

— أية قصص ؟

— إذهب للعب، قالت أمي، سأعد الحقائب.

— لكن لماذا الرحيل إلى بيت جدّيَّ ؟ حيّنا هادئ. لا أحس فيه بالخطر. أحمد هو صديقي، كل صباح تشتري والدتي خبزها من المخبزة. يتم استقبالها حينها مع الابتسامة والمجاملة المعتادة : «مرحبا، يا مدام، نحن في خدمتك، كم تريدين من الخبز اليوم؟ ثمانية كالعادة؟ رغباتك أوامر، تريدين شيئا آخر؟ فطائر بالصعتر؟ حلوى؟ لا؟ حسنا، صباح النور... مع السلامة.»

إذن لماذا الذهاب للسكن مع جدتي؟ فهمت أخيرا، يتعلق الأمر بالميزوزا، الميزوزا هي أسطوانة صغيرة من الخشب تحمل بداخلها مخطوطا صغيرا دونت فيه الشريعة. تثبت على الباب الخارجي للبيت، ذلك فرض، إنها تجلب الحماية الإلهية. إلا أن والدتي اليوم لا تتفق مع هذا.

ميزوزتنا التي ترى بسهولة على الدرج لا تحمينا أبدا ! إنها تعرضنا للخطر!

— ماذا تقولين ؟ يقول والدي. إنها لا ترى من الشارع.

— نعم، لكن «يمكنهم» أن يبحثوا في السلم. و«يمكنهم» أن يجدونا.

— لكن ليس هناك ما يكفي من الأسرة عند والديَّ لإيواء خمسة أشخاص.

— أنت فعلا لا تعي الخطر المحدق بنا ! لا مبال وعديم الوعي ! لدينا طفل ورضيعان ! أستطيع أن أنام على الأرض، لكنني لن أبقى هنا دقيقة واحدة.

سبع سنوات هي عمري ربما، لكنني أعرف أن والدتي تربح دائما. قضينا شهرا عند تيتا وديدا. وعند عودتنا، وجدت أن بيتنا لم يتحرك وأحمد ما زال هناك. اشتقت إليه، يصيبني القلق حين يغيب. وقد سألني : «أين كنت؟» فأجبته أنني كنت عند جدتي. ثم ابتسم لي وقال : «أنا أيضا، أحيانا، أنام عند جدتي»، وهذا كل شيء. ثم سرنا نلعب من جديد كما العادة. طبعا، لم أحك له قصة الميزوزا، أعرف أنه لا يجب أن نتحدث عن ذلك مع «المُس» (*les Muses*).

ذات يوم، قالت لي ماما :

— هل سمعت انفجارا قويا في وقت مبكر من الصباح؟

— لا، ماذا وقع؟

— لقد وضعوا قنبلة داخل مدرستك، فانفجرت على الساعة السابعة، ودمرت المدرسة. لن تذهب اليوم إلى القسم.

فقلت لنفسي : «يا له من حظ !» كان علي أن أنجز فرضا في النحو وأحفظ نشيدا، لقد نجوت. لكن هل حدث ذلك فعلا ؟ تقع مدرسة الرابطة على بعد خمس دقائق من بيتنا، ذهبت مسرعا. في الزقاق، التقيت أحمد الذي قال لي :

— يبدو أن مدرستك انفجرت...

— نعم، أنا ذاهب لأرى !

— وأنا أيضا !

حول الفوهة الكبيرة، تجمع الحي كله. جيران، أصدقاء، زملاء، مارة عاديون هبوا لمعاينة الانفجار، يصدرون إشارات غضب، يعبرون عن سخطهم، يصرخون. آخرون كانوا في حالة ذهول، وَهَن، كانوا غائبين. ثم قام بعض الرجال بتنبيه الحشود، وصاحوا :

خذوا حذركم، لا تقتربوا، ربما كانت هناك قنبلة أخرى ! ثم سمعت صفارات رجال المطافئ التي تصم الآذان. يسرع رجال بخوذات إلى عين المكان، يبحثون في الأنقاض، يزيحون قطع حديد وخشب وحجر مسود. أسمع : «انتباه، انتباه، بسرعة، لقد وجدنا شخصا !» إنه عبد الله، حارس المدرسة. كان عالقا تحت عارضة. اعتمادا على ساقي، استطعت أن أصل إلى الصف الأول. لقد تبخرت المدرسة. وفي مكانها لا أرى إلا ركام دمار يتصاعد منه الدخان. أرفع بصري. لم يبق من البناية القديمة إلا سبورتنا السوداء المعلقة على جزء من حائط، وباب قسمنا الذي يفضي إلى الفراغ. الآن اجتمعت الحشود، صارت مدرستي قبلة لسكان الحي. ويتحدث كل الناس بصوت مرتفع، كل واحد يعطي رأيه. أسمع : «عليهم لعنة الله. يقتلون الأبرياء والأطفال. لحسن الحظ أن القنبلة انفجرت في الساعة السابعة، لو وقع ذلك في الثامنة لكانت أتت على خمسمائة طفل.»

«هم»، من يكونون؟ لا يجرؤ أحد على قول ذلك أمام الملأ. لأن الأمر يحمل خطورة محققة. ثم يقول لنا إطفائي طويل القامة :

— ابتعدوا، يجب أن تتركوا لسيارة الإسعاف طريقا للمرور.

— هل وجدوا جرحى؟ قال واحد من المارة.

— اثنان، رجل وامرأة، لكنهما في حالة خطرة.

ثم بدا المسعفون من بين الأنقاض يتمايلون. وحولي كانت تعابير الاستغراب تتصاعد :

— ييي... إنهم يحملون امرأة جريحة! الله يحفظها. وهل عرفوا من هي؟
— لا، أبدا، لكن سنعرف.

في انتظار سيارة الإسعاف، وضع المسعفون حملهم أمام قدمي. هي صدفة، لكن كان الأمر هكذا. فتحت عيني بقوة فرأيت امرأة نائمة. كان الدم على وجهها، كما في أفلام رعاة البقر. نائمة، لكنني لا أفهم، فعيناها مفتوحتان. وفجأة، تعرفت على ملامحها. إنها مديرتنا، إنها السيدة بونسو. هي التي كنت ألتقيها كل يوم تحت الساحة المغطاة.

هي التي كانت تأتي لتُهنئنا، هي التي كانت تؤنبنا حين لا نعمل بجد. هي التي كنت أحبها لأنها كانت ذات عاطفة حامية، وأخشاها أيضا لأنها كانت قاسية.

الحشود صامتة، كما لو كانت كسيحة. ومن خلفي، همس رجل مسن:
— قد ماتت هذه السيدة، يرحمها الله.

وعلى حين غرة، لم أعد أعرف ما يقع. كما لو أنها شفرة حادة، أخذتني الصدمة من الحلق، فبدأت كل أعضائي ترتجف، وصرت أتنفس بصعوبة. إنها المرة الأولى التي أرى فيها الموت بأم عيني. أسمع نفسي وأنا أبكي. لا أريد أن أكون هنا.

وأنا أرفع بصري، رأيت صديقي أحمد. هو أيضا، ينظر إلى هذه المرأة التي لا تتحرك وفمها المفتوح. كان متحجرا مثلي. لم نقل شيئا، كان الأمر يستغرق وقتا طويلا.

ثم يسأل :
— هذه السيدة، هل تعرفها ؟
— لقد كانت مديرة مدرستي.

لم يعد يقول شيئا. ينظر إلي. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع.

شكر خاص

إلى :

جان لوك علوش، جويل بهلول، بول بالطا، كريمة بيرجي، صوفي بيسيس، إيمانويل بوكو، جان كاراسو، أليس شرقي، أنييس شوفالي، أندري كوهين، بول دحان، كميل دوشا، أني دايان-روزنمان، جينا ديوان، إيليف دونيز، إجلال إيريرا، آني گولدمان، لوسيت هيلير-گولدنبرغ، بولا جاك، محمد قاسمي، جان-كلود كوبرمينك، فابيين لوطان، تيمور محيي الدين، فيرونيك ناحوم-گراب، روزي بينحاس-ديلبويك، باتريس روتيگ، كلودين رولو، مارك سيمو، نيكول س. سرفاتي، أنطوان صفير، صلاح ستيتية، گي سيتبون.

المؤلفون

جان لوك علوش :

ولد جان لوك علوش بقسنطينة (الجزائر) سنة 1949، كاتب اشتغل صحافيا في السابق (كان مراسلا ليومية «ليبراسيون» بالقدس من 2002 إلى 2005)، ومترجما من العبرية (آخر كتاب ترجمه، «ضمير المخاطب»، لسيد قشوع، بدار النشر لوليفي). له من الكتب : «الأيام البريئة» (دار ليوه كومان)، «يهود الجزائر. صور ونصوص» (دار سكريب)، «الأيام الرهيبة. إسرائيل-فلسطين : السلام بعد ألف سنة» (دونويل). ج. ل. علوش يدرس الصحافة بجامعة باريس الثالثة - السوربون الجديدة.

أندري أزولاي :

رأى النور في 17 أبريل 1941 بالصويرة-موگادور (المغرب)، من قدماء تلاميذ مدرسة الرابطة الإسرائيلية العالمية فرع الصويرة، ثانويات مراكش والجديدة ومركز تكوين الصحفيين (م. ت. ص). وقد تابع، من جهة أخرى، دراسته بأسلاك جامعية مختلفة في تخصصي الاقتصاد والعلاقات الدولية.

شغل بالرباط منصب مستشار ملك المغرب منذ 1991. قبل ذلك، وخلال فترة تزيد على عشرين سنة، كان في عداد الأطر المسيرة لبنك

«باريس والأراضي المنخفضة» (*Parisbas*) بباريس. وقام سنة 1973 بتأسيس مجموعة «هوية وحوار»، واحدة من أولى جمعيات المثقفين اليهود المنحدرين من أصول عربية التي دعت إلى الاعتراف بدولة فلسطينية تعيش جنبا إلى جنب مع دولة إسرائيل. ويواصل أندري أزولاي اليوم نضاله من منطلق هذا الالتزام في محافل دولية مختلفة.

جويل بهلول :

ولدت سنة 1951 بالجزائر العاصمة حيث نشأت حتى سن العاشرة بحي ديار السعادة، وغادرت الجزائر، هي التي لم تكن تتحدث في طفولتها إلا باللغة الفرنسية، بالبيت كما في المدرسة، برفقة عائلتها في غشت 1961 لتستقر بمدينة نيس الفرنسية. وبعد إقامة بإسرائيل لمدة ثلاث سنوات (1973-70)، حيث درست القانون، عادت جويل بهلول إلى فرنسا التي حصلت بها، سنة 1981، على دكتوراة في الأنثربولوجيا الاجتماعية بمعهد الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية بباريس. منذ 1986، تعيش بالولايات المتحدة الأمريكية حيث تدرس نفس التخصص بجامعة إنديانا، ببلومينتون. لجويل بهلول : «بيت الذاكرة»، الذي صدر سنة 1992، بدار النشر ميتيليي، حيث نشرت أيضا «عبادة المائدة المنصوبة» (1983) ؛ وساهمت في العمل الجماعي «يهود الجزائر : صور ونصوص» (دار سكريب، 1987).

ليزي بيهمواراس :

كاتبة، مترجمة وصحافية مزدادة بإسطنبول. اشتغلت كمديرة سلسلة بدار النشر أفا وكمتعاونة بصحف : «دجمهوريت»، «يني يوزول» و«هابر تورك»، بتركيا ؛ وبـ«لارش»، «المنبر اليهودي» و«ليبراسيون» في فرنسا.

للكاتبة روبورتاجان، «توركيي دي أيدينلرين كوزويل يهوديلر» (اليهود في نظرة مثقفي تركيا) و«يوزول سونو تانيكليكلري» (شهادات من نهاية الألفية)، إلى جانب عدة سير ذاتية، منها سيرة مظهر عثمان (أب الطب النفسي بتركيا) وسيرة سعاد درويش (واحدة من أولى الروائيات والصحافيات التركيات). وهي تستعد لنشر رواية بدار دوغان إيغمونت.

مارسيل بنعبو :

ولد مارسيل بنعبو سنة 1939 بمكناس (المغرب)، وهو يعيش بباريس منذ 1956. من قدماء تلاميذ المدرسة العليا للأساتذة، أستاذ مبرز بالجامعة، دكتور في الآداب، وقد درس التاريخ الروماني بجامعة باريس السابعة - دونيس ديدرو من 1974 إلى 2002. انصبت أعماله أساسا على إفريقيا الشمالية في العهد الروماني. وهو من جهة أخرى عضو الـ«أوليبو»، ورشة الأدب الممكن (*Ouvroir de littérature potentielle*)، حيث اختير كعضو سنة 1969. في إنتاجاته الأوليبية، حاول بنعبو استكشاف مجالات متعددة، خاصة المرحلة التكوينية للعمل الأدبي والسيرة الذاتية.

من آخر أعماله المنشورة : «لماذا لم أنشر أي واحد من كتبي»، (إعادة طبع، سوي 2010)، «المقاومة الإفريقية للرومنة» (إعادة طبع، لاديكوفيرت، 2005)، «الكتابة عن تمارا» «م.ج.ف» (PUF 2002)، «789 كلمات مستحدثة لجاك لاكان» (بالاشتراك مع يان بيليسي، لوران كورناز ودومينيك دو لييج، دار إيبيل، 2002)، «إعادة اكتشاف السقيفة» (بيرگ أنتيرناسيونال، 2003)، «أنطولوجيا الأوليبو» (بالاشتراك مع بول فورنيل، سلسلة أشعار گاليار، 2009)، «فاتح ماي الوحدوي» (الخزانة الأوليبية، العدد 182، 2010) و«إشباعات» (الخزانة الأوليبية، العدد 184، 2010).

ألبير بنسوسان :

كان ميلاد الكاتب ألبير بنسوسان بالجزائر العاصمة، حيث قضى شبابه. ولكونه أستاذا مبرزا في اللغة الإسبانية فقد مارس التدريس بثانوية بوجو بالعاصمة الجزائرية قبل أن يصير أستاذا مساعدا بالسوربون ثم يلتحق بجامعة بروطانيا العليا بمدينة رين الفرنسية.

حصل أ. بنسوسان على جائزة إفريقيا المتوسطية على كتابه «فريمالدجيزار» (كالمان ليفي، 1976)، ثم جائزة گران ويست، على «في الفيراندا» (دار المنار، 2008) ومجمل أعماله. من بين ثلاثين عملا، نشير إلى «العاقر»، (دونويل، 1974)، «في النظير» (فلاماريون، 1978)، أو «فصل في أيگ-لي-بان» (موريس نادو، 1994). آخر عنوان صدر له : نص سردي، «صدع» (دار أبوجي، 2011).

ألبير بنسوسان الذي هو كاتب سيرة للشاعر والمؤلف المسرحي فيديريكو گارسيا لوركا (فوليو سير ذاتية، 2010)، هو أيضا مترجم لكتاب ناطقين بالإسبانية ؛ وقد ترجم على الخصوص الأساسي من أعمال الكاتب الحاصل على جائزة نوبل للآداب ماريو فارگاس يوصا إلى الفرنسية، كما خصص له دراسة بعنوان : «ما أعرفه عن فارگاس يوصا» (منشورات فرانسوا بوران، 2011).

آمي بوغانيم :

ولد آمي بوغانيم سنة 1951 بالصويرة (موگادور) بالمغرب، وهو كاتب وفيلسوف، نشأ في بيئة ثلاثية اللسان (عربية، عبرية وفرنسية). تردد آمي على المدرسة الرابينية (حيث كانت الدروس تلقن بالعربية) وعلى مدارس الرابطة، قبل أن يلتحق، بباريس، بالمدرسة العليا الإسرائيلية الشرقية (التي كان يسيرها إيمانويل ليفيناس) ليهاجر بعد ذلك، سنة 1970، إلى إسرائيل

حيث تابع دراسته في الفلسفة. نشر آمي بوغانيم، حوالي ثلاثين مجموعة قصصية، رواية ودراسة بالعبرية أو بالفرنسية، بما في ذلك، بالعبرية، «لقاء مع مربٍّ» (كرمل، القدس، 2010) وبالفرنسية، «والتر بنيامين - الحلم بالحياة» (ألبان ميشيل، 2007)، «تل أبيب بلا توقف» (أوترومون، 2009) و«شجرة الأماني» (أفان-بروبو، بروكسيل 2011).

شوشانا بوخبزة :

رأت شوشانا بوخبزة النور في مارس من سنة 1959 بصفاقس، (تونس)، حيث كانت تتحدث بالعربية والعبرية، وتم تسجيلها بالمدرسة سنة بعد ذلك في مؤسسة تديرها راهبتان بقبعة. أقامت ش. بوخبزة بفرنسا مع عائلتها سنة 1964، ثم هاجرت وعمرها سبعة عشر عاما إلى إسرائيل حيث درست الرياضيات والفيزياء بجامعة القدس، قبل أن تعود إلى باريس.

اشتغلت بـ «راديو جودايك ف. م» (*Radio Judaïques FM*) ولحساب مجلة «لارش» (*L'Arche*) ووسائط أخرى، خاصة بالتلفزيون حيث تعاونت مع بيرنار راب. ثم، في سنة 1986، استهلت مسارا أدبيا مع «صيف في القدس» (*Balland*)، والذي حصلت من خلاله على «جائزة المتوسط» (*Prix Méditerranée*). تؤلف ش. بوخبزة كذلك كتبا موجهة لفئة الشباب، سيناريوهات وروايات، حيث نشرت مؤخرا روايتي «اليوم الثالث» و«هيجان» (*Denoël*، 2010، 2012).

باتريك شيملا :

ولد باتريك شيملا في سنة 1951 بعنابة في الجزائر. وشيملا طبيب ومحلل نفساني، يناضل منذ زمن طويل من أجل مواطنة عالمية موعودة،

مستمدا من «الجرح الجزائري» مصدر إبداعيته وعمله الداعم لطب نفسي منفتح ورافضا الفصل بين المرضى العقليين. في هذا الإطار، انخرط الكاتب في حركة العلاج النفسي المؤسساتي وشارك بنشاط في «مجموعة التسعة والثلاثين ضد الليل الأمني». وهو يدير بمدينة رينس مصلحة طب نفسي عمومية عبر مركز أنطونان أرتو، فضاء استقبال الجنون الواقع بقلب المدينة التي ينشط بها جمعية «لا كريي» (*La Criée*) التي تقترح دورات تكوينية، ملتقيات ومنشورات جماعية تحت إشرافه.

من بين مؤلفاته الصادرة كلها عن دار نشر «إيريس» (*Eres*) : «ما بين ضفتين - المنفى والتحويل» (2008) و«تجارب جنون» (2010).

أليس الشرقي:

كان ميلادها بالجزائر العاصمة سنة 1936، وبعد اجتيازها للأقسام التحضيرية، تابعت أليس الشرقي دراستها في الطب لتشتغل بعد ذلك كطبيبة نفسية داخلية بمستشفى البليدة-جوانفيل سنة 1955. وقد شاركت الكاتبة في نضال الجزائر من أجل استقلالها. وبعد منفاها سنة 1957 بفرنسا، حيث عملت كطبيبة داخلية مؤقتة في مستشفيات السين (*la Seine*)، رحلت إلى تونس سنة 1958 ثم ألمانيا الشرقية فالجزائر المستقلة من جديد في 1962. وهي تقيم حاليا بفرنسا حيث تمارس بباريس مهنة الطب والتحليل النفسيين.

ساهمت أليس الشرقي في كتاب «عودة إلى لاكان؟» (فايار، 1981) و«يهود الجزائر» (سكريب، 1987). وهي صاحبة كتاب «فرانز فانون- صورة شخصية» (سوي، 2000 ؛ 2011)، «الحدود الخفية، عنف الهجرة» (منشورات إليا، 2006)، إضافة إلى تحرير مقدمة للطبعة الجديدة لكتاب «المعذبون في الأرض» لفرانز فانون (لا ديكوفيرت، 2002) وفي رصيد

الكاتبة مقالات ومساهمات عديدة في مؤلفات جماعية، من بينها : «كانت تلك فرنساهم - بالجزائر قبل الاستقلال» (بإشراف من ليلى صبار، تيموان، گاليمار، 2007).

ميراي كوهين–مسودا:

ولدت بالقاهرة (مصر) في سنة 1940 في كنف عائلة تتحدث أساسا العربية والفرنسية. وتم تسجيل الطفلة ميراي في سلك دروس خاصة (قسم اللغة الإنجليزية ثم الفرنسية)، ونظرا لرفضها الدراسة تم إلحاقها بالثانوية الفرنسية بالقاهرة، حيث لم تعد ترفض التعلم. تابعت الكاتبة تمدرسها بإمارة موناكو التي وصلت إليها في الخامس من يونيو سنة 1956، قبل أن تلتحق بخالتها، دنيز صادق-خليل، المقومة الصوتية واللسانية القاطنة بباريس (تلميذة گوستاف گيوم)، وتباشر تلقي دروس في التقويم الصوتي الذي مارسته مدة خمس عشرة سنة، متخصصة في مشاكل الأطفال أساسا. ثم صارت محللة نفسية؛ عضو المدرسة الفرويدية بباريس من 1972 وحتى حلها، كما ساهمت الكاتبة في نشر دروس المحلل النفسي الشهير، جاك لاكان، التي فتحت للعموم، قبل أن تنشر رسميا. وهي تشتغل اليوم في مصلحة الطب النفسي الخاص بالأطفال بمستشفى أرجنتوي.

ولتمسك الكاتبة بمذهب القرائيين، المترتب عن انشقاق حصل داخل الديانة اليهودية في القرن الثامن بإيعاز من عنان بن داوود، فإنها تجتهد للتعريف به من خلال محاضرات، كتابات وفيلم، «من الصمت إلى الكلام»، الذي شاركت في إخراجه سنة 2002 بسان فرانسيسكو.

ريتا راشيل كوهين :

رأت ريتا راشيل كوهين النور في 29 يناير 1952 بالقاهرة، من والدين يهوديين مصريين بجنسية فرنسية، في منزل لم يكن أحد يتحدث فيه إلا

بالعامية المصرية واللغة الفرنسية. ولم تكن تسمع العبرية إلا حين كان الأب يقرأ، أما اليونانية والإيطالية فحين كانت الأم تغني. راشيل اسمها ريتا، وقد تلقت أول الدروس على يد أمها. وفي سنة 1956، غادر آل كوهين الإسكندرية عبر الباخرة، متجهين نحو مارسيليا ليصلوا بعد ذلك إلى باريس. هكذا بدأت ريتا تتعلم الرقص، راشيل، السوسيولوجيا، المسرح. ولكونها تجمع بين موهبة الممثلة، المخرجة والمكوّنة فإنها اشتغلت على ثيمة «الجسد لاعبا» وكتبت عددا من المسرحيات، نصوصا على شكل سرد-فسحة، نصوصا-رسائل. بين 1989 و1991 تكتشف ريتا أبناء عم جددا : الأول، رجل مسرح ومؤلف موسيقي، سيزار گاتينيو، المزداد بطورينو، وقد لعب «إزيكييل» لألبير كوهين، قصة منفَيَيْن والتي أخرجتها الكاتبة لمسرح روشي ألا گارد (*Rocher à la Garde, Var*) ؛ ثم يظهر على المسرح ابن العم الآخر، جاك حسون، المحلل النفسي والكاتب ابن الإسكندرية ؛ وفي 1993، ستقوم ريتا بأولى عوداتها إلى مصر بصحبته ومعية يهود مصريين آخرين.

من بين مؤلفاتها : «رسالة إلى يرميا لأقول له شيئا عن إزيكييل» (مسرح الروشي، 1991) ؛ «السيد بينس أو البينسات من الألف... إلى الياء» (منشورات فرانسيس بريشان، الجزءان الأول والثاني، 1991، 1992) ؛ وبالتعاون مع محترف «نون فير» (اللا فعل)، محترف تعبير فني مرتبط بمستشفى الأمراض النفسية «ميزون بلانش» (البيت الأبيض)، كتابة وإخراج نصوص - فسح ومسرحيات في إطار ملتقيات (مجلات مجموعة «البيت الأبيض»، 2002، 2003، 2004) ؛ شذرات من «فسحات منفى صغيرة»، سرد - فسحة («كتيب *GRAPE*»، مجموعة البحث والعمل من أجل الطفولة، «*La transmission*»، 2001). هذا النص «جو وريتا» هو تأسيسي : راشيل توقع باسم ريتا راشيل كوهين.

روجي دادون:

ولد روجي دادون بوهران (الجزائر)، حيث تابع دراسته الثانوية وقد باشر الكاتب بالعاصمة الجزائرية دراساته العليا التي استكملها بباريس. وإلى جانب كونه أستاذ كرسي (*émérite*) في الأدب المقارن بجامعة باريس السابعة - دونيس ديدرو، حيث أسس شعبة السينما، فإنه فيلسوف، محلل نفسي، شاعر، صحفي وناشر. وهو كذلك عضو هيئة تحرير مجلات مختلفة (*Les Temps modernes, La Quinzaine littéraire, Cultures & Sociétés*...)، وهو ينشط برامج بالتعاون مع إذاعة «*France Culture*» بانتظام كما يدير سلسلة «*Traces*» بدار النشر بايو (*Payot*).

صدر للكاتب : «الإيروتيكية. من البذيء إلى السامي» (*PUF Quadrige*، 2010) ؛ «فالنتين تيريشينكو وباولو أوتشيلو (بثلاث لغات، إيطالية، إنجليزية وفرنسية، دار سبيرالي، ميلانو، 2007) ؛ «بيان من أجل شيخوخة متوهجة» (دار زولما، 2005) ؛ «إينزو ناصو، مارسيل دوشان» (بثلاث لغات، سبيرالي، ميلانو، 2000) ؛ «السينما، التحليل النفسي والسياسة» (سيگيي، 2000) ؛ «مائة وردة من أجل فيلهلم رايش» (طبعة جديدة، *Payot*، 1998) ؛ «التحليل النفسي السياسي» («زدني علما» *PUF*، *Que sais-je*، 1995) ؛ «فرويد» (*Belfond*، 1992) ؛ «في العقل الساخر» (منشورات *Femmes*، 1988) ؛ «إيروس بيگي. الحرب، الكتابة، الديمومة» (*PUF*، 1988).

آني دايان روزنمان :

رأت النور سنة 1946 بالدار البيضاء (المغرب). كانت لغة الكاتبة المحكية، بالمدرسة كما بالبيت، هي الفرنسية، باستثناء الجدة التي كانت تتكلم العربية. في سنة 1967، كانت مغادرة العائلة باتجاه باريس حيث تابعت

آني دراستها للآداب والسينما، اجتازت امتحان التبريز ثم ناقشت أطروحة في الأدب، ودرّست بجامعة باريس السابعة - دونيس ديدرو.

نشرت الكاتبة بعض القصص القصيرة، دراسات، مقالات عديدة وكتابين : «حرب الجزائر في الذاكرة والمتخيل» (بالاشتراك مع لوسيت فالنسي، *Bouchène*، 2004) و«أبجديات المحرقة»، (*CNRS Éditions*، 2007). تنشط برنامجا أدبيا، «التاريخ حرفيا»، على أمواج إذاعة *Judaïques FM* وتعتبر الكاتبة مناضلة من أجل حوار عربي — يهودي وإسرائيلي — فلسطيني في إطار عمل جمعيات متعددة («هوية وحوار»، «حوار عرب ويهود بفرنسا») وفي مشروع علاء الدين (*Projet Aladin*).

لوسيان إيليا :

ولد الكاتب في دجنبر 1937 بلبنان، وتابع دراساته الابتدائية والثانوية بمسقط رأسه بيروت، ثم بباريس (أكاديمية لاگراند شوميير، مدرسة مهن الفن، مدرسة إستيين ومدرسة الفنون الجميلة). عمل كخبير ومصمم منتجات بمؤسسة هيرميس، ثم كإشهاري في شركات *RSCG, Publicis* و*BDPP*.

عرف الكاتب كروائي نشر بدار فلاماريون *Les Types* (1937)، «فاشلو الشتات» (*Les Ratés de la diaspora*، 1969)، «الحديد الأبيض» (*Fer-Blanc*، 1973) و «إشهار» (*Pub*، 1979)، ثم بدار ألبان ميشيل، «من ماء ومن دم» (*D'eau et de sang*، 2000).

موريس فارحي :

كانت أنقرة (تركيا) هي مسقط رأس الكاتب في 5 يوليوز 1935، حيث أقام حتى سنة 1946، ثم انتقل إلى إسطنبول قبل أن يغادرها سنة 1954 لغرض دراسة اللغة الانجليزية والمسرح بإنجلترا، التي استقر

بها منذ ذلك الوقت. كانت لغته الأولى هي يونانية والدته، التي تنحدر من صالونيك. وفي الوسط العائلي تمكن كذلك من تعلم «اللادينو»، أي اليهودية-الإسبانية التي ما زال يتحدث بها بعض يهود إسطنبول، كما أتقن التركية كذلك. بعد احترافه التمثيل، اتجه الكاتب نحو كتابة السيناريو لبعض القنوات التلفزية، هيئة الإذاعة والتلفزة البريطانية (*BBC*) أساسا، ثم ابتداء من سنة 1972، سيستهل مرحلة كتابة الرواية والتي ترجم جلها إلى بعض اللغات الأجنبية. والكاتب نائب رئيس «*Pen Club International*» كما هو عضو بالأكاديمية الملكية للأدب (*Royal Society of Literature*).

ومن بين رواياته المنشورة : «الفتية الأتراك» (*Young Turk, Saqi Books, Londres*، 2004)، الذي صدر بالفرنسية تحت عنوان *Jeunes Turcs* عن منشورات *Buchet-Chastel*، سنة 2006، و«أطفال قوس قزح» (*Saqi Books*، 1999) الصادر بالفرنسية سنة 2012 عن منشورات *Bleu autour*، إلى جانب الأعمال الشعرية لموريس فارحي التي جمعت تحت عنوان «أغاني القارتين» (*Songs of tow Continents*، *Saqi*، 2011).

آني گولدمان :

رأت آني گولدمان (طيب) النور بالعاصمة التونسية، ودرست القانون، علم النفس وعلم الاجتماع بباريس. بعد أطروحة سلك ثالث ناقشتها بجامعة باريس العاشرة سنة 1969، تخصصت في علم اجتماع السينما. وكرست كل جهودها، خلال مسارها كأستاذة باحثة بمدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية، للعمل في مركز «سينما وتاريخ» لمارك فيرو.

هي صاحبة كتاب «السينما والمجتمع الحداثي» (*Denoël*، 1971) ؛ «بنات مردوشي. تاريخ تحرر عائلي» (*Denoël*، 1979) ؛ «أحلام حب

مفقودة. النساء في روايات القرن التاسع عشر» (*Denoël*، 1984) ؛ «التيه في السينما المعاصرة» (*H. Veyrier*،1985) ؛ «اليهودية بصيغة المؤنث» (*Balland*، 1989) ؛ «سنون الجنون» (*Casterman*،1994) ؛ «نضالات النساء» (*Casterman*،1996).

هوبير حداد :

بعد ميلاده بتونس العاصمة في 10 مارس 1947، سيقاسم هوبير أبراهام حداد المنفى مع والديه سنة 1950، ببيلفيل، مينيلمونطان، ثم بالضواحي الشعبية. وكان على الكاتب أن يتحمل ظروف الهجرة، بين أب تاجر متنقل وأم من أصل جزائري كانت تشكو من اضطرابات نفسية مرتبطة بالهوية. وقد تعرض الكاتب لمعيشه كطفل في كتابه «مخيم الصعلوك العربي» (*Le Camp du bandit mauresque,* *Fayard,* 2005). صدرت له أولى مجموعاته الشعرية، «ركام الجثث الاستنتاجي» (*Le Charnier déductif*)، سنة 1967. في 1968، سيؤسس، داخل الحركة السوريالية، مجلة «نقطة الكينونة» (*Le Point d'être*). وانطلاقا من «حلم جليدي» (*Rêve de glace,* *Albin Michel,* 1974 ; *Zulma,* 2005)، سيعرف إنتاج هذا الكاتب صدور روايات ومجموعات قصصية دون توقف إلى جانب دراسات حول الفن أو الأدب، مسرحيات ودواوين شعرية. ومن آخر ما نشر بداري *Zulma* و*Livre de Poche* : «فلسطين» (*Palestine*، رواية، 2008، جائزة قارات الفرنكوفونية الخمس ؛ 2009، *Poche*، جائزة *Renaudot Poche*) ؛ «هندسة حلم» (*Géométrie d'un rêve*، رواية، 2009 ؛ 2011 *Poche*) ؛ و«أفيون بوبي» (*Opium Poppy,* *Zulma,* 2011).

لوسيت هيلير–گولدينبيرغ :

ولدت الكاتبة سنة 1942 بمراكش (المغرب). تابعت البروفيسورة، أستاذة الكرسي العاملة بجامعة كولونيا، دراستها في الآداب العصرية بجامعة إيكس-أون-بروفانس، قبل أن تمتهن التدريس بكوليج الرابطة اليهودية العالمية (*AIU*) بنيس-سيميز، ثم في التعليم العالي بفينگارتن، كليرمون -فيران وكولونيا. نُشرت أطروحتها لدكتوراه السلك الثالث في موضوع *Jean Giono et le contadour*، بدار الآداب الجميلة (*Belles Lettres*) بباريس سنة 1972. كما نُشِرت أطروحة دكتوراه الدولة التي أنجزتها في موضوع «تاريخ مآوي الشباب، من الأصول إلى التحرير» بإشراف من جامعة نيس سنة 1985. وقد أحدثت لوسيت هيلير-گولدينبيرغ، سنة 1986 بجامعة كولونيا، سلك بحوث ومحاضرات حول الأدب المغاربي واليهودي-المغاربي الناطق بالفرنسية والذي امتد حتى سنة 2004. والكاتبة تدير «دفتر الدراسات المغاربية» (*Cahier d'études maghrébines*)، المجلة السنوية التي صدر منها حتى الآن اثنان وعشرون عددا. وقد احتوى العددان الأخيران، المنشوران سنة 2008، وبالترتيب، على نص سردي في شكل سيرة ذاتية للكاتبة أخذ عنوان «الطائر العجيب لذاكرتي اليهودية المغاربية» (*L'oiseau fabuleux de ma mémoire juive maghrébine*)، تقديم ليلى صبار)، وعلى شهادات مختارة لقدماء تلاميذ ومدرسي الرابطة اليهودية العالمية (*AIU*)، «مذكرات الرابطة» (*Mémoires de l'Alliance*).

إيدا كومر:

ازدادت الكاتبة في سنة 1950 بتونس، وقد كانت تتحدث الفرنسية بالمدرسة وبالبيت، حيث كانت العائلة تتواصل أيضا باليهودية العربية

والإيطالية. في سنة 1962، غادرت تونس باتجاه باريس. اليوم، هي تدرس الأدب المقارن بكوليج الأمم المتحدة (حيث تدير كذلك البرامج الفرنسية)، بنيو سكول يونيفيرسيتي في نيويورك وفي جامعة باريس III. هي أيضا منسقة المجلة الجامعية المزدوجة *Ceelan* (لسان حال مركز دراسة آداب وفنون إفريقيا الشمالية)، التي تصدر بالولايات المتحدة الأمريكية والتي تعنى بنشر الاهتمام بالثقافات المغاربية في أمريكا الشمالية.

ومن بين ما صدر للكاتبة : «ذاكرة العين : صور الهجرة الجزائرية في السينما»، في «الجزائر : كتابات جديدة» (لارماطان، 2005) ؛ «السخرية في السينما المغاربية»، في «فرانكوفوني» (2007) ؛ «دفاعا بجسدهم»، في «دراسات مغاربية جديدة» (2008) ؛ و«البدوية على السطح»، في «طفولات تونسية» (مؤلَّف جماعي تحت إدارة صوفي بيسيس وليلى صبار، إلبزاد، 2010)

روني ماركوليس :

ازداد روني ماركوليس بإسطنبول في ماي 1955، وهو شاعر، كاتب ومترجم. كان جداه من والده، اللذان هاجرا من بولونيا إلى تركيا سنة 1925، يتحدثان بالروسية في البيت ؛ وجداه من والدته، المنتميان إلى يهود السفرديم الذين استقروا بإزمير، باللادينو* ؛ فيما كان والداه يكلمانه بالفرنسية ويرد عليهما من جهته بالتركية. بعد المدرسة الابتدائية التركية، سيتعلم الإنجليزية بالثانوية الإنجليزية بنين ثم بالثانوية الأمريكية، روبرت كوليدج. وفي سنة 1972، سيغادر تركيا نحو إنجلترا لدراسة الاقتصاد حيث حصل بها سنة 1982 على الدكتوراة وقضى أكثر من ثلاثين سنة، قبل أن يعود ليستقر بإسطنبول. نشر المؤلف ثمانية دواوين شعرية، كتابا واحدا على شكل مذكرات طفولة، أربع

* اللغة اليهودية الإسبانية، (المترجم).

مجموعات تضم مقالات نقدية أدبية وسياسية، إلى جانب ترجمات إلى التركية لأشعار تيد هيوز، فيليب لاركين ويهودا أميشاي. وهو أيضا كاتب مقالات افتتاحية بصحيفة «طرف» (*Taraf*) التي يمدها بمقالتين أسبوعيا. وتصدر معظم كتبه عن داري آدم (*Adam*) ويابي كريدي (*Yapi Kredi*) للنشر.

لين ميلير–سعيد :

رأت لينا ميلير-سعيد النور بالبليدة (الجزائر)، وتابعت دراستها الابتدائية والثانوية بمسقط رأسها ثم دراساتها الجامعية في الفلسفة وعلم النفس بالجزائر العاصمة وباريس (السوربون). لها خمسة أطفال ولدوا وتربوا جميعهم بالجزائر حيث عاشت حتى 1995 وحيث تعود بانتظام منذ ذلك الوقت. ولكونها ممثلة للجنة *Joint* (اللجنة الأمريكية اليهودية المشتركة للتوزيع) (*American Joint Distribution Committee*) بالجزائر منذ 1985، فقد عملت في إطارها وداخل مجمع (*Consistoire*) الجزائر لفائدة اليهود الذين بقوا بالجزائر بعد الاستقلال. وتستمر متطوعة في ضمان تسيير المصالح والالتزامات التي ما زالت تحتفظ براهنيتها في علاقة بمجمع الجزائر.

إلى جانب مقالات ومتابعات عديدة، نشرت الكاتبة : «طفل معذب» (رواية، دار رافاييل، 2001) ؛ «اليهودية ذات التشادور» (رواية، دار ألان سوتون، 2005) ؛ «البليدة والبقايا... جزائر في المرآة» (سرديات وقصص، سلسلة تيرا هيبرايكا، دار روميا، 2007) ؛ «لن يكون هذا حلما» (رواية حقيقية، تقديم بينجامان سطورا، دار جان-بول بايول، 2009).

دانييل ميسگيش :

ولد الكاتب في يوليوز من سنة 1952 بالجزائر، البلد الذي كان يتحدث فيه بالفرنسية بالبيت كما بالمدرسة، ثم غادر دانييل ميسگيش الجزائر في ماي 1962 متجها نحو مارسيليا، فضاء طفولته الثاني.

هو ممثل، مخرج، أستاذ الفنون الدرامية ومدير الكونسيرفاتوار الوطني العالي للفن الدرامي. وهو أيضا صاحب عدد كبير من المقالات النظرية حول المسرح وترجمات لبعض المسرحيات، ومن بين ما صدر له دراسة عنوانها «العابر الأبدي» (دار فيردي، 2006؛ لوسوي، سلسلة فيكسيون إي سي (*Fiction & Cie,* 1991)؛ كتاب عبارة عن حوارات مع رودولف فوانو، «لم أغادر المدرسة أبدا...» (ألبان ميشيل، 2009)؛ «المسرح» (بالاشتراك مع ألان فيالا، *PUF*، زدني علما، 2011)؛ ورواية، «الممحو» (بلون، 2009).

نينا مواتي:

جاءت الكاتبة إلى الحياة في سنة 1937 بباريس، حيث طردت سلطات الحماية والدها، سيرج مواتي، الصحافي ورجل السياسة الفرنسي، من تونس بسبب التزامه السياسي لصالح التونسيين. وستصل نينا مواتي إلى تونس العاصمة برفقة والديها على متن آخر سفينة تغادر مارسيليا التي كانت ما تزال حرة في ذلك الوقت. وستقضي بها طفولة مطبوعة بنفي والدها جراء تهمة القيام أعمال مقاومة، ثم بالسعادة الغامرة بعد عودة هذا الأخير عند نهاية الحرب. لا حديث إلا بالفرنسية في المدرسة الابتدائية، الثانوية والبيت (باستثناء يوم الثلاثاء، حين تأتي بنات العم اللائي يتحدثن الإيطالية للزيارة). في سنة 1957، مباشرة بعد وفاة والديها، ستغادر نينا مواتي تونس العاصمة باتجاه باريس حيث ستستقر ومعها أخوها الأصغر هنري حاييم، المولود سنة 1946، الذي ستسهر على تربيته (والذي سيأخذ لاحقا اسم والده). هكذا كتبت نينا مواتي، الصحافية بالإذاعة ثم بمجلة «هي» (*Elle*)، روايتها الأولى، «طفلي، والدتي»، سنة 1974 (دار ستوك؛ رامسي الجيب، 2006). ثم بعد ذلك على الخصوص «حسناوات تونس

العاصمة» (سوي، 1983 ؛ لوروشي، 2004) و«امرأتان بباريس» (رامسي، 1998 ؛ طبعة ثانية 2000، ورامسي الجيب، 2005). إلى جانب روايتها السادسة عشرة، «بساط الحياة» التي ستصدر عن منشورات بالاند.

ألدو ناوري :

ولد ألدو ناوري في ديسمبر 1937 ببنغازي (ليبيا)، وهو سابع وآخر طفل من عشرة إخوة. وقد تم إبعاده مع عائلته ذات الجنسية الفرنسية، في غشت (أغسطس/آب) إلى أقرب بلد تابع للتراب الفرنسي، الجزائر، من قبل السلطات الإيطالية التي كانت تحكم ليبيا. هكذا جعله هذا الاستقرار بأرض جديدة يواجه، كما ذويه، تكيفا لسانيا مزدوجا، مع الفرنسية، اللغة الأجنبية كلية، ومع اللهجة العربية الجزائرية، المختلفة كثيرا عن تلك اليهودية الليبية المتحدث بها في البيت. عاشت عائلته بأورليانسفيل (الشلف حاليا) حتى سنة 1954، ثم بعد الزلزال الذي دمر المدينة، بغليزان حتى 1962. من جهته، سيصل إلى العاصمة الفرنسية، سنة 1956، ليتابع بها دراسته للطب. وسيمارس طب الأطفال بباريس خلال أربعين سنة لن يتركها تمر دون أن يؤلف كتبا عديدة أثارت اهتمام جمهور واسع ؛ ومن بينها : «تربية الأطفال» (2008) ؛ «الطفل الصحيح» (2010) ؛ «الحموات، الأحماء، زوجات أبنائهم وأزواج بناتهم» (2011)، وقد صدرت كلها عن دار النشر أوديل جاكوب.

طوبي ناثان :

بعد ولادته في نوفمبر 1948 بالقاهرة، سيغادر طوبي ناثان مصر بصحبة أهله في فبراير 1957، نتيجة لقضية قناة السويس. وعند وصول العائلة إلى نابولي، ستستقر بروما بعد ذلك، حيث سيتعلم الطفل طوبي الإيطالية هو

الذي نشأ في كنف لغتين، الفرنسية، على الخصوص، والعربية؛ ثم انتقلت العائلة إلى باريس سنة 1958، ثلاثة أشهر بعد وصول دوگول إلى الحكم.

دكتور في علم النفس وفي الآداب والعلوم الإنسانية، سيعمل طوبي ناثان كسيكولوجي، محلل نفسي، أستاذ جامعة ودبلوماسي. وفي السنوات الأخيرة، شغل منصب مستشار ثقافي بالسفارة الفرنسية بتل أبيب وكوناكري. خصص الكاتب أهم بحوثه للطب النفسي الإثني (*ethno-psychiatrie*)، الذي هو في فرنسا واحد من أبرز ممثليه. وقد نشر أكثر من مائتي مقالة علمية في مجلات متخصصة، خمسة وعشرين كتابا في علم النفس والأنثروبولوجيا، ست روايات ومسرحية. ومن آخر أعماله المنشورة: «تأويل الأحلام الجديد» (باريس، أوديل جاكوب، 2011)؛ «من قتل أرلوزوروف؟» (رواية، گراسي وبوان سوي، 2009)؛ «مريضي زيگموند فرويد» (رواية، بيران، 2006؛ بوان سوي، 2011).

روزي بينحاس – ديلبويك:

رأت روزي بينحاس-ديلبويك النور في نهاية 1946 بإسطنبول التي عاشت بها حتى سنة 1965، بين بيت العائلة الواقع بالجهة الغربية وواحدة من جزر «برانس» (*Princes*)، بورگاز، حيث كانت تقضي صيفها حتى سن الحادية عشرة، «جنتها المفقودة». بالبيت، كان والدها يكلمها بالفرنسية، والدتها أيضا التي درست مع ذلك بالألمانية وتتحدث باليهودية الإسبانية مع والدتها الخاصة. ستتعلم الطفلة روزي التركية بالمدرسة الابتدائية التركية، قبل أن تلج ثانوية نوتردام صهيون حيث حصلت على الباكلوريا الفرنسية التركية. ثم ستغادر بعد ذلك إسطنبول في سنة 1965 باتجاه گرونوبل وفي السنة الموالية نحو باريس حيث ستدرس الفلسفة (بنانتير) مع بول ريكور وإيمانويل ليفيناس

بالخصوص، إلى جانب الأدب الفرنسي لاحقا (دكتوراة). بعد تدريس الفلسفة والفرنسية في ثانويات وجامعات إسرائيلية، خلال ما يناهز عشر سنوات، ستعود إلى باريس في سنة 1984، كي لا تكرس جهودها بعد إلا لترجمة العبرية (تدير سلسلة «آداب عبرية» بدار النشر أكت سود (*Actes Sud*) وأحيانا أيضا التركية (لترجمة مؤلف واحد، القاص سعيد فايق (*Sait Faik*) الذي عاش هو الآخر في جزيرة بوركاز). ثم ستدخل عالم الكتابة. نشرت الكاتبة رواية، «أنسومنيا. ترجمة ليلية» (أكت سود، 1998 ؛ بلوه أوتور، 2011) ؛ «متتاليات بيزنطية» (بلوه أوتور، 2009) والذي يشمل إعادة نشر نص سردي، «متتالية بيزنطية» (بلوه أوتور، 2003، مستنفد)، إلى جانب مجموعة من القصص القصيرة، «بين الجُزُر» ؛ ونص سردي آخر، «آنا، قصة فرنسية» (بلوه أوتور، 2007).

ليلى صبار :

بيلدة تسمى أفلو (الجزائر) على الهضاب العليا، كان مسقط رأس ليلى صبار من والد جزائري ذي ثقافة أدبية عربية وفرنسية رفيعة، تربى في كنف الدين الإسلامي، ومن والدة «فرنسية من فرنسا»، تربت في الكاثوليكية ؛ كان الإثنان معلمي مدرسة عمومية لائيكية في الجزائر الفرنسية والاستعمارية، حيث الزيجات المختلطة تشكل الاستثناء. لم تتحدث ليلى صبار يوما بلغة والدها، العربية («لا أتكلم لغة أبي»، جوليار، 2003) ؛ «العربية كنشيد سري»، بلوه أوتور، 2007، 2010). ستغادر الجزائر بين سنتي 1960 و1961 وستتابع دراسات عليا في الآداب بإيكس-أون-بروفانس ثم بباريس، حيث تقيم منذ 1963. نشرت الكاتبة، جامعة هذه الباقة من الشهادات «طفولة يهودية بالمتوسط المسلم»، عدة دراسات من بينها : «رسائل باريسية، تشريح المنفى» (مع نانسي هيوستن،

سلسلة «قرأت»، (*J'ai Lu*)، 1999) ؛ روايات بما فيها «شهرزاد» (التي تنفتح على: «شهرزاد، 17 سنة، سمراء، مجعدة الشعر، خضراء العينين»، أعيد نشرها بدار بلوه أوتور، 2010) ؛ «نهر السين كان باللون الأحمر. باريس 17 أكتوبر 1961» (بابل، أكت سود، 2009) و «اعتراف مجنون» (بلوه أوتور، 2001) ؛ مجموعات قصصية من بينها: «إزابيل الجزائري» (رسومات سياستيان بينيون، منشورات المنار - ألان گوريوس، 2005) و «كاتب عمومي» (بلوه أوتور، مارس 2012) ؛ إلى جانب كتب في أدب الرحلة مثل: «رحلة إلى الجزائر حول غرفتي» (بلوه أوتور، 2008). وأخيرا، أدارت الكاتبة نشر عدة مجموعات تحمل نصوصا سردية تستعرض طفولة كتاب منفيين، يذكر منها: «طفولة جزائرية» (فوليو، 1999) ؛ «طفولات تونسية» (إليزاد، 2010) و «طفولة كورسيكية» (بلوه أوتور، 2010، 2011).

نيكول س. سرفاتي:

ولدت الكاتبة في سنة 1947 بالدار البيضاء، من أم ذات أصول تعود إلى المستعمرة الإسبانية مليلية وأب من جنوب المغرب تاجر بالصويرة خلفا لوالده الذي كان ربيا. تحدثت نيكول سرفاتي مبكرا العربية مع طباخة العائلة التي كان لها دور كبير في تربيتها، واستمعت إلى والدتها وهي تتحدث بالإسبانية كما الأمازيغية والعبرية على لسان والدها إلى جانب اكتسابها للفرنسية في مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية، تلك اللغة التي كان والداها، خاصة الأب، يتقنانها أيضا. تابعت دراستها الثانوية بإعدادية مرس السلطان بالدار البيضاء، ثم بالمدرسة العليا اليهودية الشرقية بباريس التي كان يديرها إيمانويل ليفيناس. في 1964، عند حصولها على الباكلوريا، ستعود إلى الدار البيضاء حيث، خلال ثلاث سنوات، ستتابع دراساتها

في القانون لتحصل على الإجازة بعد ذلك. ثم تأتي ظروف حرب الأيام الستة، في سنة 1967، فتقرر العودة النهائية إلى فرنسا. لكنها ستأخذ طريق الجامعة من جديد لتدرس اللغتين العربية والعبرية في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية، ثم السوسيولوجيا بباريس 5، قبل أن تدافع عن أطروحتها بباريس 8، تحت إشراف حاييم زعفراني. والكاتبة لها دكتوراة في «اللغات والحضارات اليهودية في أرض الإسلام»، وهي تدرس العبرية بجامعة بوردو 3، تاريخ المغرب العربي بباريس 7 واللغة اليهودية العربية بمعهد اللغات والحضارات الشرقية، وهي تكرس جهودها حاليا للبحث: بصفتها عضوا نشيطا في مختبر «اللغات والحضارات اليهودية في المغرب العربي والمتوسط الغربي» (معهد اللغات والحضارات الشرقية)، فإن الكاتبة تشتغل على التاريخ السوسيولوجي واللساني لليهودية المغربية.

صدر لنيكول س. سرفاتي: «جلساء السلاطين المغاربة اليهود. بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر. رجال سياسة ووجهاء كبارا» (دار بوشين، باريس، 1999)؛ «الحضور اليهودي بالمغرب العربي. تكريما لحاييم الزعفراني» (نشر بالاشتراك مع ج. تدغي، دار بوشين، 2004)؛ «يهوديات من إفريقيا الشمالية. بطائق بريدية 1880-1930 (بالتعاون مع كليمونس بولوك وجيرار سيلفان، بلوه أوتور، 2005)؛ «كتيب تعلم اللهجة اليهودية العربية المغربية» (المركز الوطني للتعليم عن بعد، بواتيي، 2009).

دانييل سيبوني:

رأى المؤلف النور بمراكش (المغرب) في شهر غشت (أغسطس/ آب) من سنة 1942، بالمدينة القديمة. وقد عايش دانييل سيبوني وهو طفل ثلاث لغات: العربية، لغته الأم، العبرية التوراتية والفرنسية. هاجر إلى باريس في الثالثة عشرة من عمره، ليصير بعد مشوار جامعي طويل

باحثا في الرياضيات وأستاذا جامعيا. وقد دافع أيضا عن أطروحة في الفلسفة. عند بلوغه الثانية والثلاثين وبعد عمل إلى جانب جاك لاكان سيصير محللا نفسيا، مع حرصه على الاستقلالية بالنسبة إلى هذا الأخير والتيارات التحليلية النفسية المؤسساتية.

ويُنَشِّط الكاتب كل سنة منذ 1974، ملتقى يخصص للأسئلة العلاجية وللممارسات الإبداعية والرمزية في علاقاتها باللاشعور. وقد كان موضوع ملتقاه في دورة 2010-2011 حول «الشغف» (في الحب، المال، التوريث، السلطة، التحليل...) ؛ وفي 2012 كان الموضوع حول «الوجودي» («من الهوية إلى الوجود. إضافة الشعب اليهودي»، دار أوديل جاكوب، 2012).

دانييل سيبوني مؤلف لعدة كتب، من بينها : «إبداع. بحث في الفن المعاصر» (دار لو سوي، 2005) ؛ «مع شيكسبير» (لو سوي، 1988) ؛ «رهان الوجود. تحليل أنماط العلاج» (لو سوي، 2007) ؛ «قراءات توراتية» (دار أوديل جاكوب، 2006) ؛ «معاني الضحك والسخرية» (أوديل جاكوب، 2010). إلى جانب روايته «مراكش، الذهاب» (أوديل جاكوب، 2009) ؛ ومسرحية، «التمريرة» في «اللعب والتمريرة - الهوية والمسرح» (لوسوي، 1997).

گي سيتبون :

ولد الكاتب في يناير 1934 بموناستير (تونس)، مدينة عائلته منذ القدم، التي لم تكن بها مستوطنات فرنسية ولا تطورت كثيرا منذ القرن الخامس عشر. تحدث گي سيتبون، وهو طفل، العربية والفرنسية على غرار أهله كلهم، باستثناء جديه من الأب اللذين يسكنان تحت سقف واحد ولا يتحدثان إلا العربية. وقد دخلت الفرنسية عن طريق المدرسة التي تردد عليها والداه شيئا ما. وبعد دراسته الابتدائية بموناستير،

سيصير الكاتب في سن الثانية عشرة تلميذا داخليا بإعدادية سوسة، على مسافة عشرين كيلومترا من موناستير، وسيستهل، بعد تخرجه، دربه في مهنة الصحافة المكتوبة بانتسابه إلى «لا براس»* وفي سنة 1964، وهو في الثلاثين، سيغادر تونس ليستقر بباريس حيث سيشتغل كمتعاون في صحيفة «لو موند» الفرنسية، «جون أفريك»، «ليكسبريس»، «النوفيل أوبسيرفاتور»، «الماگازين ليتيرير»، التي كان مؤسسها، ثم منذ عشر سنوات في «ماريان». وإذا كان لبعض أعضاء «قبيلته» جذور بإسرائيل، فكل أعضاء عائلته الأقرب قد هاجروا إلى فرنسا ومنحتهم الجنسية الفرنسية باستثناء أخت له (أما هو فمنذ خمس عشرة سنة). لماذا هذه الهجرة من قبل كل الطائفة اليهودية تقريبا ؟ يتساءل گي سيتبون، ليسجل أن أحدا لم يجب عن السؤال وليقترح حول الموضوع تأليف كتاب جماعي يمكن أن يأتي بمحاولة جواب.

گي الصحافي هو أيضا مؤلف لعدة كتب، من بينها اثنان يتعلقان بتونس: «گاگو» (رواية، دار گراسي، 1980) و«العربي واليهودي» (حوار مع حميد برادة، منشط الجلسة: فيليب گايار، بحث، دار بلون، 2004).

بينجامان سطورا :

كان ميلاد الكاتب في الثاني من ديسمبر 1950 بقسنطينة (الجزائر)، حيث كان يتحدث العربية مع والدته والفرنسية مع والده. تابع بينجامان سطورا دراسته بالثانوية الفرنسية أومال وتردد على مدرسة التلمود توراة («الرابطة») حيث تعلم العبرية من أجل البار ميتزفاه. وفي الثاني عشر

* صحيفة تونسية أسسها اليهودي التونسي هنري سمادجة وصدر العدد الأول منها في 12 مارس 1936. أصبحت صحيفة عامة بعد الاستقلال عام 1956، ومنذ 1989 عززت وجودها برديفة لها هي جريدة الصحافة اليومية (المترجم).

من 1962 سيغادر برفقة عائلته قسنطينة ليستقروا بسارتروفيل، بالضاحية الباريسية. الكاتب حاصل على الدكتوراة في الآداب والتاريخ، وهو أستاذ جامعي يدرس بجامعة باريس 13 وبالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية، إلى جانب عضويته بلجنة تحكيم جائزة كتاب التاريخ التي يمنحها مجلس الشيوخ الفرنسي.

نشر الكاتب عدة كتب، من بينها : «الموات والنسيان. ذاكرة حرب الجزائر» (دار لا ديكوفيرت، 1991) ؛ «جنود احتياط بحرب الجزائر» (دار گاليمار، 1997) ؛ «الجزائر، المغرب : تاريخان متوازيان، مصيران متقاطعان» (دار ميزونوف ولاروز، 2002) ؛ «المنافي الثلاثة. يهود الجزائر» (دار سطوك، 2006 ؛ هاشيت، سلسلة بلوريل، 2008) ؛ «الجزائر 1954-1962، رسائل، دفاتر ومحكيات الفرنسيين والجزائريين في الحرب» (دار ليزارين، 2010، جائزة قارئات مجلة *Elle*) ؛ «حرب الجزائر من وجهة نظر الجزائريين» (مع رونو ذي روشبرون، دار دونويل، 2011) ؛ «89 العربية» (حديث مع إدفي بلينيل، سطوك، 2011). هو أيضا صاحب عدة وثائقيات سمعية بصرية، منها «فرانسوا ميتران وحرب الجزائر» (قناة فرنسا 2، 2010 ؛ نشر بينجامان سطورا في نفس السنة بدار كالمان-ليفي كتابا تحت نفس العنوان، بالتعاون مع فرانسوا مالي).

رالف طوليدانو:

رأى الكاتب النور في يوليوز 1953 بباريس، ونشأ في الدار البيضاء في كنف عائلة استقرت بطنجة منذ نهاية القرن الثامن عشر. بعد دراسته بثانوية ليوطي، تابع تعليمه العالي بالسوربون، حيث حصل على الدكتوراه في تاريخ الفن سنة 1983، وفي مدرسة اللوفر. للكاتب عدة مونوغرافيات وكاتالوغات مبوبة (فرانسيسكو ذي دجيوردجيو مارتيني،

ميكيلي ماريتشي، أنطونيو جولي) صادرة بإيطاليا. نشر كذلك «رحلة في المغرب اليهودي» (تصوير رولان بوفر، دار سوموجي للمنشورات الفنية، 2004)، رحلة اقتفاء لآثار الحياة اليهودية بالمغرب. وهو أيضا خبير في اللوحات القديمة ويعيش بين باريس والقدس.

داني توبيانا :

ولدت الكاتبة في ديسمبر 1948 بگالمة (الجزائر) ؛ ولم تكن تتحدث وهي طفلة إلا الفرنسية، على عكس والديها اللذين كانا متمكنين كذلك من العربية العامية، فيما كانت العائلة كاملة تتحدث بالعبرية أثناء الأعياد الدينية. قضت الكاتبة طفولتها بين گالمة وعنابة حيث كانت تلميذة داخلية لسنتين، في السادسة والخامسة. ثم نقل والدها، الموظف بالبريد، سنة 1961 إلى نيس التي هاجرت إليها العائلة جميعها في يوليوز من نفس السنة. بفرنسا ستصير الكاتبة مخرجة، مؤلفة وأستاذة مسرح. وتعيش داني توبيانا حاليا بجهة باريس. وبما أنها متخصصة في الريبيرتوارات الفرنكوفونية، فهي تسير فرقتها الخاصة، «فرقة الورقة الذهبية». الكاتبة مكلفة ببرنامج دروس وتنشط محترفات بمعهد الدراسات المسرحية كما تدير ورشة كتابة في الوساطة الثقافية بشعبة الفنون والوسائط التابعة لجامعة باريس 3 - السوربون الجديد.

من آخر إصداراتها وأعمالها الإخراجية : «عبور التخريب. الدراماتورجيات المعبرة بالفرنسية» (دار لارماطان، 2010) ؛ «خيط البهلوان» (رواية، دار شومان دو ترافيرس، 2010) ؛ «موت الطفل في المسرح» (عمل جماعي تحت إدارة جورج بانو، دار لونتروتون، 2010) ؛ «أنا الممنوعة»، المقتبس عن رواية أنادا ديفي، إخراج 2009) ؛ «كاليدونيا الجديدة، أصوات الحصى» (إخراج فضائي لنصوص مؤلفين كاليدونيين في إطار سنة ما وراء البحار).

إيف توركيي:

ولد إيف توركيي سنة 1941 في حضن عائلة يهودية من بيروت. تابع الكاتب دراسته في الآداب وعلم النفس ثم مارس الصحافة خلال خمس سنوات. وعند بلوغه سن الثالثة والعشرين سيتوجه إلى باريس ليحضر مباراة الالتحاق بمعهد السينما (*IDHEC*). بعد سنتين من دراسة السينما سيصير مخرجا مساعدا، ثم مخرجا لعدة أفلام وثائقية، من بينها «الهروب الأخير»، حول الرقص المعاصر (بُرمج في قناة آرتي). وفي نفس الوقت، قام بتدريس السينما والتكنولوجيات المستحدثة بالمعهد الوطني للسمعي البصري (*INA*) وبالمعهد الدولي للصورة والصوت. وهو واحد من مؤسسي «*FEMIS*». خلال بداية سنوات الألفين، سيقرر الذهاب للبحث عن «مهاجري» طائفته الأصلية. وقد تمت مشاهدة فيلمه الوثائقي الأخير، «مختصر تاريخ يهود لبنان»، في عشر دول على الأقل كما تم انتقاؤه في مهرجان «باريس سينما» في سنة 2007.

الفهرس

مقدمة 9

تمهيد
ليلى صبار 13

فرنسيون ممتازون
جان لوك علوش 17

من أجل غد آخر ؟
أندري أزولاي 25

ديار السعادة
جويل بهلول 33

ماتزاه، سيميت وجبن أبيض
ليزي بيهمواراس 39

البحر المحيط داخل غرافة
مارسيل بنعبو 47

«الجلفة، محبوبتي»
ألبير بنسوسان 55

مهد الله
آمي بوغانيم 65

لا شيء عن الطفولة
شوشانا بوخبزة 73

بين ملذات وأوجاع
باتريك شيملا 81

بنت الجزائر العاصمة
أليس شرقي 89

«المسلمون الزرق»
ميراي كوهين-مسودا 97

جو وريتا
ريتا راشيل كوهين 105

قاديش من أجل طفولة فقيدة
روجي دادون 113

بقع ذاكرة
آني دايان روزنمان 121

الطريق المسدود
لوسيان إيليا 129

ماما سلطانة وأفراسها القرناء
موريس فارحي 137

تعايش ثلاثي
آني گولدمان 149

أجنحة وبصمات
هوبير حداد 157

مامادا
لوسيت هيلير-گولدينبيرغ 165

الصفقة الخاسرة
إيدا كومر 173

يهودي من تركيا ليس يهوديا
روني مارگوليس 181

كالصفعة!
لين ميلير-سعيد 191

«لا، ليس يهوديا، بل إسرائيليا»
دانييل ميسگيش 201

رسالة مفتوحة إلى أحفادي أدريان، إيليا، رافائيل وآنا
نينا مواتي 215

حاشاكم...
ألدو ناوري 223

يوم عيد
طوبي ناثان 231

كانت تسمى دورسينة
روزي بينحاس-ديلبويك 239

عبور مسافة خفية
نيكول س. سرفاتي 247

في المدينة القديمة
دانييل سيبوني 255

طفل موناستير اليهودي
گي سيتبون 263

الحمام، وماذا بعد...
بينجامان سطورا 271

كنت أحيا بين السطور
رالف طوليدانو 279

من جهة الباحة...
داني توبيانا.. 287

ابن الخباز
إيف توركيي 295

مطبعة دار النشر المغربية
نونبر 2015